ليوناردو دافنشي

الأعمال الأدبيَّة



نقلَها عن الإيطاليَّة وهيَّأ حواشيها

أمارجي



ليوناردو دافِنشي

الأعمال الأدبيَّة

نقلَها عن الإيطاليَّة وهيَّأ حواشيها

أمارجي



* **تنويه**: الحواشي جميعها من وضع المترجم.

Leonardo da Vinci
Scritti letterari
ليوناردو دافِنشي، الأعمال الأدبيَّة
نقلَها عن الإيطاليَّة وهيَّأ حواشيها: أمارجي
الطبعة الأولى2013

لِـ دار **التكوين** للتأليف والترجمة والنشر
هاتف: 00963 112236468
فاكس:00963112257677
ص. ب: 11418، دمشق . سوريا
www.attakwin.com
taakwen@yahoo.com

شذرات فِكريَّة

1. **عنِ الرُّوح.** حركةُ الأرضِ هي في آنٍ واحد بعكسِ الأرضِ واقتفاءٌ لها، فطفيفةٌ تكونُ بالمُحصِّلة حركةُ الأجسامِ المتأثِّرة. المياهُ الملطومةُ بمياهٍ مثلِها تصنعُ دوائرَ في مواضعِ التَّصادم. بعيداً ينتشرُ الصَّوتُ خلالَ الهواء، وأكثر بعداً خلالَ النَّار. العقلُ يمتدُّ أبعدَ من ذلك خلالَ الكَون. لكن، ما بالُ تلكَ المُتناهية لا تمتدُّ خلالَ اللامتناهي وتنتشر.

2. **حياةٌ تُصنَعُ مِن موتٍ أخرى.** في أعماق كلِّ شيءٍ ميِّتٍ تقبعُ حياةٌ لا محسوسة، هي تلكَ التي تتَّحدُ بمِعَدِ الأحياء، تنتزعُ منهم حياةَ الفِكر والشُّعور.

3. الحركةُ عِلَّةُ كلِّ حياة.

4. الطَّبيعةُ ملأى بنظريَّاتِ منطقٍ لا حدودَ لها، لم تخضعْ للتَّجربةِ مِن قبلُ أبداً.

5. العلمُ رُبَّانٌ والخبراتُ التَّطبيقيَّةُ جُندُه.

6. مثلما الأكلُ بلا شهيَّةٍ مُفسدٌ لصحَّة الإنسان، كذلك التَّعلُّم بلا رغبةٍ يُتلِفُ الذَّاكرة فلا تعودُ تقبضُ على ما تأخُذ.

7. دائماً الكلماتُ التي لا تُرضي أذُنَ المُستمع تُورِثُه الضَّجر أو بالأحرى الأسى. وعلامةُ ذلك أنَّكَ كثيراً ما ترى أولئك المستمعين يغرقون في التَّثاؤب. لذلك حين تتحدَّث أمام البعض سعياً إلى حُسنِ التفاتةِ منهم، فترى على وجوههم أماراتِ ذلك

الأسى، اختزلْ إذّاكَ حديثَك أو بدِّل فكرتَه بحنكة، ذلك أنَّك إن لم تفعل، حصلتَ عِوَضَ المُجاملاتِ التي ترغَبُ بها على العداوة والبغضاء. فإذا أنتَ أَردتَ أن ترى أحدهم يستمتعُ بالإصغاء دونَ أن تسمعه يتكلَّم، حدِّثهُ مُبْدِلاً الفكرةَ بالأخرى حتَّى إذا ما رأيته بدأ به الاهتمامُ وانتهى عنه التَّثاؤبُ وتمعُّجُ الحاجبَينِ أو سواهما من ردود الأفعال، فاعلم علمَ اليقين أنَّ ذلك الذي تقولُه هو ما يُمتِعُه، وسُقْ على ذلك.

8. **عن العلوم.** لا يكونُ يقينٌ أبداً حيث لا تكونُ إمكانيَّةٌ لتطبيق أحد العلوم الرِّياضيَّة، أو بتعبيرٍ آخر لا يقينَ إن لم يكنْ متَّحداً بتلك العلوم.

9. أيُّها المتبصِّرُ بالأشياء، لا تُباهي بمعرفةِ الأشياء التي عادةً ما تسوقُها الطَّبيعةُ من تلقاءِ نفسِها. لكن افرحْ بمعرفةِ غايةِ الأشياءِ التي هي من تصميمِ عقلِك.

10. **عن خطأِ أولئك الذين يستخدمون المعرفة[1] من غير العلم.** إنَّ أولئك الذين يُشغَفون بالمعرفة بدلَ العلم، مثلهم كمثلِ ملَّاحٍ ماهرٍ صعدَ إلى السَّفينةِ من غيرِ دفَّةٍ ولا بُوصلة، فهو ليس على يقينٍ إلى أين يُبحِر.

11. كثيرون يُقيمون صروحَ أسواقهم على صخرةِ الغشِّ والعجائبِ الزَّائفة، مُغرِّرين بالجمهورِ المغفَّل، وإذا أحدٌ لم يتَّضح أنَّه عارفٌ بخداعِهم فإنَّهم يطعنونَه.

12. كلُّ إنسانٍ يرغبُ أن يكسبَ وَفراً من المال ليدفعَ للأطبَّاء، مدمِّري حياة الآخرين؛ فكيف لا يَثرى هؤلاء.

---

(1) المعرفة في هذا السياق تحمل معنى المعرفة التطبيقيَّة، أو الخِبرة العمليَّة.

13. التَّجربة، التي تمثِّلُ الوسيطَ بين الطَّبيعـةِ التَّكوينيَّـة والجـنس البشري، تعلِّمُ كيف تلعبُ الطَّبيعةُ دورَها بين البشر، ولأنَّها مقيَّدةٌ إلى الضّرورة فهي لا تستطيعُ أن تتصرَّفَ بخلافِ ما يملي عليهـا المنطـق، الذي هو دَفَّتُها، أن تفعل.

14. لا إنجاز يتحقَّق في الطَّبيعة من دون منطِـق؛ اعتنـق المنطِـق ولن تعوزَكَ التَّجربة.

14. bis. مَن يُنكر منطقَ الأشياء، ينشر جَهلَه.

15. a) التَّجربة لا تُخطئ أبداً، إنَّمـا تُخطـئُ أحكامُنـا فحسـب، حين تصيرُ تبشيراً بنتـائج لم تُفـضِ إليهـا تجاربُنـا قـط. مـا إن ننطلقُ من مبدأٍ ما، حتَّى يُـصبحَ لِزامـاً أنَّ مـا يتبعـه ينبغـي أن يكون نتيجةً صَحيحةً لذلك المبدأ، في حال لم يـتمَّ دحـضُه؛ فإذا طرأ عائقٌ ما، فإنَّ النَّتيجة الـتي كـان ينبغـي لهـا أن تتبـعَ المبدأ المُقرَّرَ سلفاً تشكِّلُ هي نفسُها، بشكلٍ أو بـآخر، جـزءاً من العائق المذكور، بقـدرِ يزيـدُ أو يـنقص وفقـاً لقـوَّة ذلـك العائق على دحضِ المبدأ إيَّاه.

b) التَّجربة لا تُخطئ أبداً، إنَّما تُخطئ أحكامُنا فحسب، حين نعـدُ التَّجربـةَ بمـا هـو خـارج قـدرتها. ظُلمـاً يلـومُ الإنـسانُ التَّجربة؛ وبتقريـعٍ عنيـفٍ يتَّهمُهـا بأنَّهـا تـضلِّلُه. لكـن حِيـالَ التَّجربة، حـريٌّ بـه أن يحـوِّلَ لومَـه إلى جهالتـه، تلـك الـتي تجعله يبدِّدُ الوقتَ بتمنيةِ النَّفسِ برغبات فارغة وبلـهاء ليـست في مقدور التَّجربة أصلاً، بدلَ الادِّعاء بأنَّ التَّجربة مُضلِّلة.

c) ظلماً يلومُ النَّاسُ التَّجربةَ البريئةَ من التُّهم التي تُـساقُ إليهـا بأنَّها وراء البراهين الكاذبة والمُضلِّلة.

16. مَن يحمِّل التَّجربةَ ما لا طاقة لها به، يشذّ عن المنطق.

17. **العينُ وشعاعُ الشَّمس والعقل، الحركاتُ الأكثر خَطفاً.** الشَّمسُ حالما تبزغُ من الشَّرق، تبلغُ بأشعَّتها الغربَ، أشعَّةً إنَّما هي مركَّبةٌ من ثلاث طاقاتٍ رُوحيَّة: النُّور، الحرارة، وطبيعةِ المُشعِّ الباعث.

العين، فورَ فتحِها، ترى نجومَ نصفِ الكرة الأرضيَّةِ برمَّتها.

العقلُ يثِبُ بلحظةٍ واحدة من الشَّرقِ إلى الغرب، وكلُّ الأشياء الرُّوحيَّةِ الأخرى مُغايرةٌ جداً في خفَّتِها لهذا الخَطف.

18. ليس مَعيباً إقحامُ قاعدةٍ عامَّة مولودةٍ من استنتاجٍ سابق في السِّياق التَّطوُّري للعلم.

19. مع الزَّمَن كلُّ شيءٍ يتغيَّر.

20. إذا تحقَّقتِ العلَّة، فإنَّ الطَّبيعةَ تُنتِجُ المعلول بأقصرِ وسيلةٍ مُمكنة.

21. كلُّ فِعلٍ تُنجِزه الطَّبيعة لا يمكن إنجازه بوسيلةٍ أقصر من وسائلِ الطَّبيعةِ نفسِها.

22. إذا تحقَّقتِ العلَّات، فإنَّ الطَّبيعةَ تلدُ المعلولات بأقصر الوسائل الممكنة.

23. كلُّ حُجَّةٍ ينبغي أن تكون صنيعةَ التَّجربة التي من رحمها كانت ولادتُها.

24. يتساءلون أيكونُ القدِّيسون عراةً.

25. لدى الرَّجل رغبةٌ في معرفةِ إذا ما كانت الأنثى قابلةً للإذعانِ لشهوتِه أم لا، فإن هوَ لمس عندَها قبولاً، من جهةِ أنَّ لها ما للرَّجل من رغبات، فإنَّه يُلحُّ عليها في تلبيةِ رغبتِه؛ وإن فهمَ أنَّها لن تُقرَّ برغباتِها قبلَ إقرارِه برغباتِه، فإنَّه يُقرُّ برغباتِه بغضبٍ وسُخط.

26. يتساءلون عمَّا إذا كانت جميعُ اللانهائيَّات متساوية أو أنَّها تتفاوتُ عظمةً فيما بينها.

أجيب، إنَّ كلَّ لانهائيَّةٍ أبديَّةٌ والأشياء الأبديَّة متعادلةٌ في دوامِها، لكن ليس في طول زمانِها، ذلك أنَّ التي بدأت انفصالَها أوَّلاً تكون قد أمضتْ زمناً أطولَ من التي تولَّدتْ بعدَها، أمَّا الأزمنةُ المتبقِّيةُ لها فمتساوية.

27. كما هي هالكةٌ كلُّ مملكةٍ منقسمةٍ على نفسِها، كذلك شأنُ كلِّ عبقريٍّ موزَّعِ الفِكرِ على مجالاتٍ مختلفة، تلتبسُ عليه الأمور ويَضعُف.

28. يتحرَّكُ العاشقُ حِيالَ الشَّيء[1] المعشوق مثلما تتحرَّكُ الحاسَّةُ حيالَ المحسوس، فتتوحَّدُ نفسُه به ويصيران نفْساً واحدة.

التَّأثُّرُ هو أوَّلُ شيءٍ يولَدُ من الوحدة.

إذا كان الشَّيء المعشوق دنيئاً، يصيرُ العاشقُ كذلك دنيئاً.

حين يكون الشَّيءُ المُستَمزَج ملائماً للمُستمزِج لائقاً به، يتبعُ ذلك الامتزاج اللذَّةُ والسُّرور والرِّضا.

حين يَتَضامُّ العاشقُ إلى المعشوق، هنالكَ يستريح.

حيثُ يحطُّ أثقالَه، هنالكَ يستريح.

إنَّما تُعقَلُ الأشياء بالقوَّةِ العاقلة.

---

(1) الشَّيء هنا بمعنى الموضوع الذي يمكن أن يكونَ عاقلاً، لا بمعنى الغرض الجامد.

29. أربعٌ هي القُوى: القـوَّة الحافظـة[1] والقـوَّة العاقلـة[2]، قـوَّة الرَّغبات[3] وقوَّةُ الشَّهوات[4]. أوَّلُ اثنتين تتَّصلان بالعقـل، والأخريـان تتَّصلان بالحِسِّ.

فيما يتعلَّق بالحواسِّ الخمس، فإنَّ الرُّؤيـة والـسَّمع والـشَّم قلَّمـا تعوقها نواميسُ التَّحريم[5]، أمَّا اللمس والذَّوق فلا.

الشَّمُّ طريقٌ إلى الذَّوقِ عندَ الكلب، وسواه من الحيوانات الشَّرِهة.

30. جميع القوى الرُّوحيَّة تستقرُّ وينقصُ كمالُها، بقدرِ مـا تبتعـدُ عن الباعث الأوَّل أو الثَّاني.

31. كلُّ معرفةٍ تبتدئُ مِن العاطفة.

32. الإنسانُ هـو دائمـاً موجـودٌ في منتـصفِ الكُـرة[6]، وتحـتَ منتصفِ نصفِ الكُرة، وفوقَ مركزِ تلك الكرة.

33. لا شيء يمكن أن يُكتَب عـن بحـوثٍ جديـدة، كـذلك هـي الأشياء التي تعدُني أنا نفسي بها.

34. الحواسُّ رهنُ الأرضيِّ، يتفلَّتُ العقلُ منها عندما يتأمَّل.

35. المياه التي تبلغُ الأنهار هـي آخـرُ الميـاه الـتي تـذهب وأوَّلُ المياه التي تأتي. كذا هو الزَّمنُ الحاضر.

---

(1) أي الذَّاكرة.

(2) القدرة الفِكريَّة للعقل.

(3) الميول الجامحة التي لا تتَّصل بالجنس.

(4) الرَّغبات الجنسيَّة الملحَّة.

(5) حرفيَّاً: "فإنَّ الرُّؤية والسَّمع والشَّم قليلة التَّحريم".

(6) الكرة الأرضيَّة، أو العالَم.

36. كلُّ فِعلٍ يلزمُ أن يُنجزَ بالحركة.

المعرفة والإرادة هما عمليَّتان مخصوصتان بالبشر.

التَّميزُ والحُكمُ والتَّدبُّر هي أفعالٌ بشريَّة.

جسدُنا خاضعٌ للسَّماء، والسَّماء خاضعةٌ للرُّوح.

37. **مُقارنة.** يُمكن إصلاحُ زَهريَّةٍ خزفيَّةٍ كُسِرتْ قبل أن تنضُج، أمَّا المطبوخةُ[1] فلا.

38. الرُّوح لا تفسدُ أبداً مع تعفُّنِ الجسد، ولكنَّها تفعلُ في الجسد كما تفعلُ الرِّيحُ التي تُحدثُ موسيقى إذ تَسري في نبتةِ القصب، فإذا كانت القصَبَةُ تالفةً مُنَخْرَبَة فإنَّ الرِّيح لن تصنعَ أجملَ الأصوات[2].

39. حَبسُ الحقيقةِ ينقلبُ إلى ندم.

40. المعرفةُ بنتُ التَّجربة. [...]

41. الطَّبيعةُ تتجلَّى هنا في كثيرٍ من الحيوانات أو لكثيرٍ من الحيوانات كزوجةِ أبٍ قاسية أكثر ممَّا تتجلَّى أمَّاً، وللبعض الآخر تتجلَّى أمَّاً رؤوماً لا زوجةَ أبٍ قاسية.

42. كلُّ جسدٍ مركَّبٌ من مجموعِ الأعضاء وما تحويه من

---

(1) في فرن شِواء الخزف يقصد.

(2) هذه الفقرة تحتمل قراءتَين، والسبب في ذلك يعود إلى استخدام دافنشي لكلماتٍ تحتمل أكثر من معنى. القراءة الثانية هي:
"الرُّوح لا تفسدُ أبداً مع تعفُّن الجسد، ولكنَّها تفعل في الجسد كما يفعل الهواء الذي يُحدِثُ صوتاً في آلةِ الأرغن، فإذا انفجر أحدُ مواسيرِ الآلة، عجزَ الهواء عن صنع صوتٍ جميل".

السَّوائل[1]، والتي هي ضروريَّةٌ لبقائه، وهذه الضّرورة معروفةٌ جيِّداً وهي التي تحتِّمُ على الرُّوحِ أن تختارَ في الوقتِ الملائم هيئةَ الجسد الملائمة لتكونَ لها مُستقراً ووِقاءً.

انظر إلى السَّمكة التي لضرورة اتِّصالِها الدَّائم بالماء تهيَّأت، لأجلِ الرُّوح، بمساميَّةٍ تتوضَّعُ بين وُصلاتِ الحراشف، تخرجُ منها مادَّةٌ لزجة، من العسيرِ نزعُها عن السَّمكة، وهي تقومُ من السَّمكة مقامَ القطران من المركب.

43. الضرورةُ مُعلِّمُ الطَّبيعة ومُرشدُها.

الضرورةُ مَبْحثُ الطَّبيعةِ ومُبدعُها، هي الرَّادعُ والنَّاموس الأبدي.

44. الذَّاكرة التي تحفظُ الأحداث الطَّيِّبة، من غيرِ عُرفان، ذاكرةٌ هشَّة.

45. لُمْ صديقَك في السِّرِّ، ومجِّدْهُ في العَلَن.

46. مَن يخشَ المخاطرَ، لا يَهلك بها.

47. لا تكذبْ حيالَ الماضي.

48. لا شيء أكثر إثارةً للخوف من صيتٍ قَذِر.

49. ما أشقى الهروب مع سُمعةٍ بالكادِ تُبطِنُها.

50. الشَّهوةُ أصلُ التَّكوين.

الشَّراهةُ دعامةُ الحياة.

الخوفُ، أو بالأحرى الفَزَع، إطالةُ الحياة.

الألمُ خلاصُ الكائن.

---

(1) يرى جالينوس أنَّ سوائل الجسد أربعة: الدَّم، العصارة الحمراء، العصارة السَّوداء، والعصارة اللزجة القوام.

51. لا شيء يثيرُ الخوف كما الصِّيتُ القذر. هذا الصِّيتُ هو مولودُ الرَّذيلة.

52. النُّذورُ لا تُولَدُ إلا عندما يموتُ الأمل.

53. الحسدُ يجرَحُ إذا اقترنَ بالتَّشهيرِ المُختلَق، بالتَّشنيع الذي يروِّعُ العفَّة.

54. الشُّهرةُ تحلِّقُ وتصعدُ إلى السَّماء، لأنَّ الأشياء العفيفة صديقةُ الله. أمَّا السُّمعة السَّيِّئة فمقلوبةٌ رأساً على عقب، لأنَّ أعمالَها نقيضُ الله، ونحو الأسافلِ يكونُ اتِّجاهُها.

55. الفراشاتُ الذَّهبيَّة تنتهي في النَّار.

56. مَن يحفر في الجدار، يهوِ الجدارُ عليه.

57. مَن يقصّ النَّبتة، تنتقمُ منه النَّبتةُ بموتِها.

58. أمامَ الخائن يدَّعي الموتُ الحياة، لأنَّه إذا استخدمَ الصِّدق لن يثقَ الخائنُ به[1].

59. اطلبْ النُّصحَ من فمِ القويم.

60. العدلُ يقتضي القُوَّة، الفطنة، الإرادة، وهو يشبه ملكةَ النَّحل.

61. مَن لا يُعاقب الشَّرَّ، يأمر بصُنعِه.

62. مَن ينتزع الحيَّةَ من ذيلِها، يُلدَغ برأسِها.

---

(1) في نصٍّ آخر: "الموتُ يتحاشى الخائن، لأنَّه إذا استخدم الصِّدق لن يصدِّقه الخائن".

63. مَن يحفر قبراً، يَنْردم القبرُ عليه.

64. مَن لا يكبح الشَّهوة البهيميَّة، يُصاحب البهائم.

65. لا يُمكـن بلـوغُ سـيادةٍ أعظـم ولا أدنى مـن سـيادتِك علـى نفسِك.

66. مَن يفكِّر قليلاً، يُخطئ كثيراً.

67. أسهلُ لك أن تعارضَ في البداية من أن تعارضَ في الخاتمة.

68. لا نصيحةَ أكثر صدقاً من تلك التي تأتي من مركبٍ يغرق.

69. إنَّما مشورةُ الشَّباب مَهلكة.

70. تفكَّرْ جيِّداً بالخاتمة.

تبصَّرْ من البدءِ بالخاتمة.

71. كلُّ خـسارةٍ تتـركُ أسـفاً في الـذَّاكرة إلا الخـسارةُ الكُـبرى، الموت، الذي يجتثُّ الذَّاكرة مع اجتثاثِه الحياة.

72. لا يطلبُ المرء ثروةً زائلة. الفضيلةُ هي الثَّراء الحقُّ والجـائزةُ الحقيقيَّةُ لمالكِها. هـي لا تـضيعُ أبـداً، ولا تتخلَّـى عنَّـا أبـداً قبـل أن تتخلَّى الحياةُ عنَّـا. المتـاعُ والملـذَّات الخارجيَّـة أنـتَ تحوزُهـا دائمـاً بخوفٍ، فلطالما كانت تمضي مخلِّفةً مالِكيها للعارِ والهُزْء.

73. مَن يملك وقتاً وينتظر الوقتَ، يخسر الصَّديق ولا يحُز المالَ أبداً.

74. الذي هو حمارٌ ويحسبُ أنَّه أيلٌ [...][1]

---

(1) النَّصُّ مبتورٌ في الأصل.

75. لا تعوزُنا الطَّرائق ولا السُّبُل لتقييم وتدبيرِ أيَّامنا الضَّئيلة هذه، والتي يجب ألَّا نُنفقها أو نقضيها دون جدوى، دون أيِّ ثناءٍ يمكن أن نحظى به، ودون أن نترك من ذواتنا ذكرى ما تنطبعُ في أذهان الخَلق، فلا تكون مِن ثمَّ دورتُنا الضَّئيلة هذه بلا معنى.

76. السَّعادةُ الكبرى هي السَّببُ الأكبر للتَّعاسة، وكمالُ المعرفة سببُ الغباوة.

77. اكتساب المعرفة في الفتوَّة يخفِّفُ شرَّ الشَّيخوخة. فإن كنتَ ممَّن يؤمنون بأنَّ الحكمةَ غذاءُ الشَّيخوخة، فليكن سعيُك كبيراً في الشَّباب، بغيةَ ألَّا يصيبَ شيخوختَك نقصٌ في التَّغذية.

78. لا يمكنُ أن نحكُمَ على الأشياء المُنجَزَة على فتراتٍ زمنيَّة متباعدة وفقاً لبعدِها الزَّمني الخاصِّ والدَّقيق، ذلك أنَّ الكثير من الأشياء التي مضت عليها سنون كثيرة تبدو قريبةً من الحاضر والكثير من الأشياء القريبةِ الحاضرِ تبدو قديمة، تماماً مثلما يبدو لنا عهدُ الشَّباب القديم قريباً، وعلى هذه الشَّاكلة تفعلُ العينُ حيالَ الأشياء البعيدة التي، إذ تُنيرُها الشَّمس، تبدو قريبةً من العين، بَينا كثيرٌ من الأشياء القريبة تبدو آنئذٍ بعيدة.

79. أنتَ أيُّها النَّائم، ما هو النَّوم؟! النَّومُ شبيهُ الموت؛ ما لكَ إذاً لا تكونُ كما يكونُ الحالُ بعدَ الموت فتُشابِه الحيَّ التَّامَّ الخالصَ، فأن تكون حيَّاً مع النَّومِ يجعلكَ أشبَه بموتى كئيبين؟

80. الإنسانُ وسائرُ الحيوان هم بالضَّبط ممرَّاتٌ ومَجاري طعامٍ؛ هم أنفسُهُم مقبرةُ الحيوانِ ونُزلُ الموتى، كلٌّ يصنع حياتَه من موتِ الآخر؛ همُ الوعاء الذي يحتوي التَّفسُّخ.

81. لمَّا كـان في الإقـدام خطـرٌ علـى الحيـاة، كـانَ في الخـوفِ ضماناً لها.

82. النُّذُر[1] سلاحُ المُنْذَر.

83. حيثمـا يتـدخَّلُ الحـظُّ، يـضربُ الحـسدُ مـن حولِـه طوقـاً ويُقاتلُه، فإذا غادرَ الأوَّلُ المكان، خلَّفَ هناكَ الحسرةَ والألم.

84. نادراً ما يسقطُ مَن يُحسنُ المَشيَ.

85. السُّلطةُ عملُ النُّبلاء، العملُ فِعلُ الأذلاء[2].

86. مَن هو جاهلٌ بالطَّبيعة وعارفٌ بالصُّدفة، عنـدما يتحـدَّث أو يتصرَّف على طبيعتِه يبدو دائماً جاهلاً، ويصدفُ أن يبدو حكيماً.

87. **مُقارنة حول الصَّبر.** يفعلُ الصَّبرُ حيـالَ الإهانـة تمامـاً كمـا تفعلُ الثياب حيالَ البرد؛ من جهةِ أنَّكَ إذا ما ضـاعفتَ عليـكَ الثيـاب وفقاً لتضاعُف البرد، فلن يستطيع البردُ إيذاءك. هكذا تلقـاءَ الإهانـاتِ الكبيرة زِدْ في صبرِك، تعجزْ تلك الإهاناتُ عن إلحاق الأذى بك.

88. العمرُ يتبخَّـر، يَطـوي المـسافاتِ خِفيـةً ويُـضلِّلُنا؛ لا شـيء أسرعُ من السِّنين، ومَن يَبذُر الفضيلةَ يحصدَ الإجلال.

89. حينَ صوَّرتُ اللهَ طفلاً، وضعتموني في الـسِّجن؛ فـالآنَ إذا صوَّرتُه معمَّراً، سوف تصنعون بي ما هو أسوأ.

90. فيما كنتُ أظنُّ أنَّني أتعلَّـم كيـف أحيـا، كنـتُ أتعلَّـم كيـف أموت.

---

(1) الإنذار مع التَّخويف، التَّهديد.

(2) التَّرجمة الحرفيَّة هنا: "السُّلطةُ عملٌ نبيل، العملُ فِعلٌ ذليل".

91. مَن يرغب أن يرى كيف تسكنُ الرُّوح الجسد، فلينظرْ إلى ذلك الجسد كيف يصنعُ بمحيطِه اليوميّ. إذا كان المسكن قذراً ومُهمَلاً، فإنَّ الرُّوح سوف تُبقي الجسدَ بنفسِ الطَّريقة، قذراً ومُهمَلاً.

92. صكوكُ المحتالين هي بذور التَّجديف البشريّ على الله.

93. شغفُ الرُّوح يطردُ الشَّهوة.

94. جميعُ المخلوقات تنهارُ، مالئةً بعويلِها الهواء، الغاباتُ تُدَمَّرُ، بطونُ الجبالِ تُفتَحُ لاغتصابِ الفلْزاتِ المتولِّدةِ فيها؛ لكن أنَّى لي أن أتحدَّثَ عمَّا هو أشدُّ فجوراً ممَّن يرفعُ نحوَ السَّماء تراتيلَ المديح لأولئك الذين، بحميَّةٍ عظيمةٍ، آذوا أوطانَهم والجنسَ البشريّ.

95. يقول **أرسطو** في المجلَّد الثَّالث من فلسفة الأخلاق: يكونُ الإنسان مُستحقّاً للمَدحِ وللذَّمِّ فقط فيما هو في نطاقِ قدرتِه على الفِعل وعدمِ الفِعل.

96. على جبلِ **إتنا** تتجمَّد الكلماتُ في فمِك، ويمكنُ أن تصنعَ هُلاماً منها[1].

97. مثلما يصدأ الحديد من الإهمال، والمياه تَنْتَنُ من الرُّكود أو تتجمَّدُ من البرودة، كذلك يقوِّضُ الخمولُ قوَّةَ العقل.

98. متوحِّشاً يكونُ مَن يخلِّصُ نفسَه.

---

(1) ليس ثمَّة مفتاحٌ لحلِّ لغزِ هذه العبارة المُبهمة.

99. عَن **كورنِليوس ثشِلسوس**[1]:

الخيرُ الأعظم هو المعرفة، والشَّرُّ الأعظم هو ألمُ الجسد؛ ذلك أنَّ الإنسان مركَّبٌ من شيئين، الرُّوحِ والجسد، ومِن بينهما الأوَّلُ هو الأخيَر والثَّاني هو الأشَرُّ، فالمعرفةُ تتبعُ الجزءَ الأخيَر والأسمى، والألمُ يتبعُ الجزءَ الأشَرَّ والأدنى. أسمى ما في الرُّوح هي المعرفة، وأردأ ما في الجسد هو الألَم. ولذلك بما أنَّ الألم الجسديَّ هو الشَّرُّ الأعظم، فالمعرفةُ هي الخيرُ الأعظم للرُّوح، وهي مِلكُ الإنسان الحكيم، ولا شيء يمكن أن يُضاهيها.

100. مثلما النَّهار المُصرَّفُ على نحوٍ جيِّدٍ يُفضي إلى نومٍ سعيد، كذلك الحياةُ المكرَّسَةُ على نحوٍ جيِّدٍ تُفضي إلى موتٍ سعيد.

101. حيثُ تكونُ العاطفةُ أكبر، يكونُ الاستشهادُ الأعظم؛ الشَّهيد الأعظم.

102. إنَّما اعتادَ **ديميتريوس**[2] أن يقول أنَّه لا يوجد فرقٌ بين حديث وكلماتِ الأحمق والجاهل، وبين ضوضاءِ وقرقعةِ البطونِ المنتفخة بالغازات.

---

(1) أولوس كورنِليوس تشِلسوس (14 ق.م- 37م)، يُعتَقَد أنَّه كان مُعاصراً لجايوس يوليوس قيصر أوغوستوس امبراطور روما الأوَّل؛ هو مؤلِّف موسوعي وطبيب روماني لم يصل إلينا من أعماله سوى مؤلَّفه الأخير *Il De Medicina*، الذي يشمل ثمانية مجلَّدات، وأولى طبعاتِه هي: طبعة ميلانو 1481، وطبعتا البندقيَّة 1493 و1497.

(2) يستبعد العالِم الفيلولوجي **هرمان ميلر ستروبِنغ** أن يكون ديميتريوس فالِريوس، الفيلسوف والخطيب الإغريقي، هو المقصود هنا، ويرى أنَّه من الصَّعب كذلك أن يكون المقصود ديميتريوس الأوَّل ملك مقدونيا.

هو لم يقُل هذا بدونِ سبب، بل الحقيقةُ أنَّه لم يكن يرى فرقاً بين الجزأين اللذَين تصدرُ الضَّوضاءُ عنهما؛ سواءٌ أكانَ الجزء الأسفل أم الفم، فكلا الجزأين يتساويان في الأهميَّةِ والمادَّة.

103. الحماقةُ درعُ الحياء مثلما الوقاحةُ درعُ العَوَز.

104. الفرِّيسيون ـ مرادفٌ للرُّهبان[1].

105. الحياةُ التي نُحسنُ تمضيتَها، طويلةً تكون.

106. أن تقُولَ خيراً في رجلٍ أثيمٍ كأن تقولَ شرّاً في رجلٍ صالح.

107. ذلك الإنسان فائقُ الجنون، فهو دائماً يُكابدُ لئلَّا يُكابِد؛ فتتبخَّرُ حياتُه فيما هو لا يزال يأملُ أن يتذوَّقَ متعةَ الأشياء التي جناها بمشقَّةٍ فائقة.

108. أطيعُكَ، أيَّها الرَّبُّ الإله، أوَّلاً للحبِّ الذي ينبغي، في جميع الأحوال، أن أحمله إليك؛ ثانياً لأنَّك قادرٌ على أن تقصِّرَ أو تمدَّ في أعمارِ البشر.

109. جنِّبِ الدِّراساتِ النَّتائجَ التي تموتُ مع موتِ الدَّارسِ.

110. تلميذٌ سيِّءٌ الذي لا يتفوَّق على معلِّمه.

111. ثمَّةَ مَن هم ليسوا أكثرَ مِن ممرَّاتِ طعامٍ ومُكوِّمي غائطٍ ـ ومالئي رَوث ـ لأنَّه مِن خلالِهم لا شيء آخر في العالَم، ولا أيَّ أثَرٍ آخَر يمكنُ أن يُنجَز، فهؤلاء لا يبقى من آثارِهم سوى الغائط.

112. a) فوقَ كلِّ شكٍّ أنَّ صلةَ الحقيقةِ بالزَّيف هي تماماً كصلةِ

---

(1) يصفُ رجال الدِّين بالمنافقين.

النُّور بالظَّلام؛ وهذه الحقيقةُ في حدِّ ذاتِها عظيمةُ الشَّأن حيثُ أنَّها، حتَّى عندما تتناولُ المسائلَ المتواضعة والبسيطة، فإنَّها تظلُّ على نحوٍ لا متناهٍ [تحلِّقُ][1] فوقَ الشُّكوك والكذب، متخفِّيةً في الكلماتِ الرَّفيعة والسَّامية؛ ذلك أنَّه وإن تكن عقولنا تنظر إلى الكذب على أنَّه العنصرُ الخامس، إلا أنَّ هذا لا يمنع حقيقةَ الأشياء عن أن تكون القوتَ الأساسَ للعبقريَّات الفائقة، لا للمواهب المتسكِّعة.

b) الكذبُ تحقيرٌ، لأنَّه حتَّى وإن تغلَّفَ بالحديث الحَسَن عن الأشياء الألوهيَّة فإنَّه ينتقصُ شيئاً من صفاتِ الله؛ والحقيقةُ سموٌّ، لأنَّها إذا أثنتْ على الأشياء الصُّغرى رفعتْ من قدرِها.

c) أمَّا أنتَ يا مَن تحيا في الأحلام، أراكَ تُسَرُّ بالمنطقِ السَّفسطائيِّ وبالأضاليلِ التي تغلِّفُ الكلامَ عن الأشياء العظيمة والغامضة، أكثر من سرورِك بالمنطقِ اليقينيِّ والطَّبيعيِّ والذي لا يعلو كثيراً علينا.

113. الرُّوح تعودُ لتهتدي إلى الدِّماغ الذي انطلقتْ منه، معَ هذا الصَّوتِ ومع هذه الكلمات التي تحرَّكتْ بها:

"أيَّتها الرُّوح المغبوطةُ والمباركة، مِن أينَ أتيتِ؟ جليَّةً كانت معرفتي بالإنسان، وضدَّ مشيئتي. إنَّه وعاءٌ للنَّذالة؛ وهو كومةٌ كاملة من الجحود الأقصى ممزوجةٌ بكلِّ رذيلة. لكن لماذا أجهدُ نفسي بكلماتٍ فارغة؟ لا شيء يمكن أن يُوجَدَ في البشر سوى صنوف الخطايا. وإن كان لأيِّ شيءٍ آخرَ، شيءٍ طيِّبٍ، أن يوجدَ فيهم، ما كانوا ليُعامَلوا على نحوٍ مختلفٍ عن معاملةِ الآخرين لي؛ وفي النِّهاية،

---

(1) تنويه: كل كلمة أو عبارة تكون محتواةً بين هذين القوسين [..] هي مزيدة من عندي على الأصل لكي يستقيم المعنى في ذهن القارئ، ما لَم يوضِّح غيرُ ذلك.

وصلتُ إلى هذه الخلاصة، أن يكونوا عدائيِّين هو أمرٌ سيِّء، وأن يكونوا ودودين فالأمرُ أسوأ".

(وأيُّ رجلٍ آخر إذا ما هو حازَ الحكمةَ أو الخير، فلن تكون معاملةُ الآخرين له بخلافِ ما أعامَلُ أنا به. سيِّءٌ أن تكون قريباً منه، وأسوأ من ذلك أن تكون بعيداً عنه)[1].

114. مَن يرجُ أن يصبحَ ثريّاً في يوم، سيكون مشنوقاً في سنة.

115. هوراس[2]: "بِعْنا، يا الله، كلَّ الأشياء الطَّيِّبة بثمنِ الضَّنكِ".

116. الحقيقةُ كانت ابنةُ الوقتِ الوحيدة.

117. مَن يسئ إلى الآخرين، لا يأمَن نفسَه.

118. الخوفُ يولَدُ أسرعَ من أيِّ شيءٍ آخَر.

119. ذلك الذي يَهَب، لا يَهَبُ كساءَه.

120. إذا أنتَ حكَمتَ جسدَكَ بقوانين الفضيلة، فلن تسيرَ على أربع في هذا العالَم.

121. إنَّك تكبرُ في الذِّكْر كما الخبزُ في يدِ الأطفال.

122. هنا تُحفَظُ النَّواة، التي تكمنُ فيها الرُّوحُ النقيَّة للشَّاعر.

123. الشَّيءُ يحرِّكُ الحاسَّة.

---

(1) هذه الفقرة، التي من الصَّعب جداً فكُّ رموزها، مكتوبةٌ بخطٍّ دافنشي على ظهرِ إِحدى الرُّسومات التي توجد نسخة منها في المكتبة الملكية في ويندسور Windsor، وتحمل الرَّقم PI. CXXII، ويمكن أن تكون هذه الفقرة متعلِّقة في بعض جوانبها بالرَّسم نفسِه.

(2) هوراس فلاكُوس كُوينتوس (65- 8 ق.م)، شاعر روماني مشهور. اللافت في شأن هذه العبارة أن بعض المراجع تنسبُها إلى دافنشي لا إلى هوراس.

124. لا تعدْ نفسَك بأشياء ولا تُنجِزْها، فالشَّيء الذي لم يتحقَّق بعد يمنحُكَ الشَّغف.

125. يبدو لي أنَّ الرِّجال ذوي العادات الفظَّة والخشنة والمعرفة التَّافهة لا يستحقُّون الوسائلَ البديعة ذاتَها ولا الآليَّةَ الطَّبيعيَّةَ الفائقةَ التَّنوُّعِ ذاتَها التي يستحقُّها رجالُ التَّفكُّر والمعرفة العظيمة؛ هم لا يستحقُّون إلا ذلك الجَوفَ الجِرابَ الذي ينزِلُ فيه طعامُهم ومنهُ يخرُج، وليس يُمكن النَّظر إليهم إلا باعتبارِهم معابرَ طعامٍ؛ ذلك أنَّهم، كما يبدو لي، لا يملكُون في ذواتِهم ما يتَّصلُ بالجنس البشريِّ سوى الصَّوت والشَّكل، وكلُّ ما تبقَّى هو أدنى ممَّا لدى البهائم بكثير.

126. يُخطئُ البشرُ إذ يرثون الوقتَ الهارب، متَّهمين إيَّاه بأنَّه فائقُ الخَطف، غير مدركين أنَّه عبورٌ كافٍ [في ذاته]؛ فالحقيقةُ أنَّ ذاكرةً جيِّدة، منحَتنا إيَّاها الطَّبيعة، هي ما يجعلُ أشياء مضتْ مِن زمنٍ بعيد تبدو وكأنَّها راهنةُ الحضور.

127. الكتَّانُ منذورٌ للموت ولتفسُّخِ الموتى: للموت، إذْ يُستَخدمُ لصُنعِ الفِخاخ وشِباك صيدِ الطُّيور والحيواناتِ والأسماك؛ وللتفسُّخ، إذْ تُحاكُ منه ملاءاتُ التَّكفين التي يُلفُّ بها الموتى عندَ دفنِهم، حيثُ يتعفَّنون مِن ثمَّ في تلك اللفائف. وفوقَ ذلك، هذا الكتَّان لا ينفصلُ عن غصنه الجاف ما لَم يفسد ويتفسَّخ، ومنه هو ينبغي أن تُصنَع أكاليلُ وزِيناتُ الجنازات.

128. القمرُ، كثيفٌ وثقيل، كثيفٌ وثقيل، كيف هو، القمر؟[1]

***

---

(1) كتب دافنشي هذه العبارة الشِّعريَّة على هامش إحدى كتاباتِه التي تعتمد النِّظام الشَّفري، وهي عبارةٌ لا يمكن قراءتها إلا بالاستعانة بمرآة.

خُـرافات

1. **خُرافة.** أحسَّت شجرةُ الليغستروم بفروعِها الرَّقيقـة، المُحمَّلـةِ بثمـارٍ جديـدة، تُنـهَشُ بمخالـبِ ومنقـارِ طـائر الـشُّحرور اللحـوح، فتضرَّعتْ إليه شاكيةً بألمٍ يثيرُ الشَّفقة ألَّا يُجرِّدَها، وهـو يـسرقُ ثمارَهـا اللذيذة، من الأوراق التي تقيها أشعَّةَ الشَّمس، وألَّا ينزعَ عنها لحاءَهـا الطَّريَّ بخدشِه له بتلك المخالب الحادَّة. وما كان من طـائر الـشُّحرور إلا أن أجابها غاضباً، معنِّفاً: "أوه، اصمُتي، أيَّتها الشُّجيرةُ الفظَّـة! ألا تعلمين أنَّ الطَّبيعةَ جعلتكِ تؤتين هاته الثِّمار لأجل تغـذيتي؟ ألا تـرين أنَّكِ من بـين جميـعِ نباتـات الأرضِ وحـدكِ المكرَّسـةُ مـأكلاً لي؟ ألا تدركين، أيَّتـها الخسيـسةُ، أنَّـك سـتكونين في الـشِّتاء القـادمِ فريـسةً وطعاماً للنَّار؟" وكانـت الـشَّجرةُ تـصغي إلى تلـك الكلمـات بـصبرٍ، ولـيس مـن غـيرِ دمـوعٍ. لم يمـضِ وقـتٌ طويـلٌ حتَّـى اصـطيدَ طـائرُ الـشُّحرور وقُـصَّتْ الفـروعُ ليُـصنَعَ منـها قفـصٌ يوضَـعُ الطَّـائرُ فيـه. الأغصانُ قُصَّتْ، من بين كثيرٍ من أغصانِ شجرةِ الليغستروم السَّمحة، لتكون قُـضباناً لـذلك القفـص؛ وإذ رأت الـشَّجرةُ أنَّهـا سـتصيرُ سـبباً لضياعِ حريَّةِ الشُّحرور، ابتهجتْ وقالتْ: "ها أنِّي هنا، أيُّها الشُّحرور، ولم أحرَقْ بعدُ بالنَّار كما قلتَ. ولَسوفَ أراكَ في السِّجن قبلَ أن تـراني في النَّار".

2. **خُرافة.** إذْ رأت شجرتا الغارِ والآسِ شجرةَ الكُمَّثـرى تُقطَـع، صرختا بصوتٍ عالٍ: "هـا شـجرةَ الكُمَّثـرى! أيـن أنـتِ ماضـية؟ أيـن زهوُكِ الذي كانَ حـين كنـتِ مـلأى بثمـاركِ النَّاضـجة؟ أوه، الآنَ مـا عدتِ ترمين علينا الظِّلالَ مِنَ تاجكِ الورقيِّ الملتـفِّ." أجابـت شـجرةُ

الكُمَّثرى: "أنا ماضيةٌ مع الفلَّاح الذي قطعني والذي سوف يحملُني إلى وَرشة نحَّاتٍ عظيمٍ ليشكِّلني بفنِّه على شكلِ جوبيتر الإله؛ ولأكونَ مكرَّسةً مِن ثَمَّ للمعبد ويعبدُني البشرُ مكانَ جوبيتر، فيما تُرغَمان أنتما إلى الأبد على أن تُبتَر أغصانُكم وتُعرَّى، لأجلِ أن تُفرَشَ من حولي تمجيداً لي".

3. **خُرافة.** لمَّا رأت شجرةُ الكستناء رجلاً عندَ شجرةِ التِّين يلوي أغصانَها نحوَ الأسفل ويقتلعُ فاكهتَها النَّاضجة، ليضعَها مِن ثمَّ في فمه المفتوح حيثُ تُسحَقُ وتُهرَسُ بأسنانه القاسية، هزَّتْ فروعها الطَّويلة وبحفيف ضجَّاجٍ راحت تصرخ: "أوه يا شجرةَ التِّين! لَكَم جعلتكِ الطَّبيعةُ أقلَّ منِّي منعةً. انظُري كيفَ تلتحمُ ذُرِّيتي العذبة[1] بي في زُمَرٍ مُغلَقة؛ في البدءِ تُكسى بغلافٍ ناعمٍ، ثمَّ تكونُ مِن فوقِه قشرةٌ صلبة ولكنَّها مبطَّنةٌ بنعومة؛ ولمَّا لم تكن الطَّبيعةُ قانعةً بنعمتها هذه عليَّ، أو بذلك الوِقاء الذي جادت به على ذرِّيتي، فقد وهبَتها فوقَ ذلك أشواكاً حادَّة وكثيفة تردعُ بها يدَ الإنسان عنِّي." فضحكت شجرةُ التِّين ومعها ذرِّيتُها، وقالت فيما هي غارقةٌ في الضَّحك: "أعلمُ أنَّ الإنسان في غايةِ الحذقِ، فهو بقضبانه وحجارته وأوتاده التي يلوِّحُ بها بعنفٍ وسطَ أغصانِك قادرٌ أن يجرِّدَكِ من ثمارِك؛ وعندما تتهاوى هاته الثِّمار على الأرض سوف يسحقُها بقدمه أو بالحجارة، فتخرُجُ إذَّاكَ ذرِّيتُك من درعِها، مسحوقةً ومشوَّهة؛ أمَّا أنا فإنِّي أُلْمَسُ بيديه الحذرتَين، لا بأوتادِه وحجارتِه مثلما هو حالُكِ".

4. **خُرافة.** الفراشةُ المغرورةُ والشَّاردة، التي لم تكن قانعةً بقدرتِها على الطَّيران بِدعَةٍ في الهواء، والمهزومةُ بإغواء ألسنةِ النَّار

---

(1) الأخلاف النباتيَّة النَّاشئة انطلاقاً من النَّبات الأم.

الملتهبة، قرَّرت أن تطيرَ نحوَها؛ لكنَّ نزوتَها البشوشة كانت السَّببَ لتعاسة مُباغتة، ذلك أنَّ أجنحتَها اللطيفةَ احترقت في اللهب؛ والفراشةُ البائسةُ هوَتْ، مكويَّةً بالكامل، عندَ قاعدةِ الشَّمعدان، وبعدَ طولِ تفجُّعٍ وتحسُّر، جفَّفتْ الدُّموعَ عن عينيها البليلتَين، وصرختْ رافعةً وجهَها: "أيُّها النُّور الخدَّاع! كم ضلَّلتَ، في الماضي، مِن مثيلاتي، دونَ رحمةٍ أو شفقة؛ [ولكن] لو أنَّني أردتُ بحقٍّ رؤيةَ النُّورِ عن كثب، أما كان حَرِيّاً بي قبلَ كلِّ شيءٍ أن أُميزَ الشَّمسَ من الوهجِ الزَّائفِ للشَّحمِ[1] القذر؟"

5. **خُرافة.** ثمرةُ الجوز، إذْ حملَها غرابٌ إلى قمَّةِ برجٍ كنسيٍّ عالٍ وحرَّرها على غفلةٍ من قبضةِ منقارِه المُهلِك لتسقطَ في صدعٍ جداريٍّ ضيِّق، أخذتْ تتضرَّع إلى الجدار بحقِّ ما وهبَه له الله مِن نعمةِ أن يكونَ هكذا عالياً وثخيناً، وما منَّ عليه به من مثلِ تلك الأجراسِ البديعة ذاتِ الرَّنين المجيد، أن ينجِّيها، وألَّا يتخلَّى عنها بعدما خذلَها الحظُّ بأن تسقطَ تحت الغصون المخضوضرة للشَّجرةِ الأصلِ الجليلة، وتنتهي في الأرض الخصبة مغطَّاةً بالأوراق المتساقطة؛ ذلك أنَّها، عندما وجدتْ نفسَها في منقار الغرابِ الوحشيِّ، قطعتْ على نفسِها عهداً بأنَّها، إذا ما نجتْ من هذا، فسوف تُنهي حياتَها في شقٍّ صغير. فلمَّا سمعَ الجدارُ تلك الكلمات حرَّكته الرَّأفة، ووافقَ أن يؤويها في البقعة حيث استقرَّتْ. وبعد زمنٍ قصير، بدأت ثمرةُ الجوزِ تنفلِق، وأخرجَتْ جذورَها لتضعَها في شقوقِ الحجَر وتدفعَها هناكَ عميقاً عميقاً، ثمَّ أطلقتْ بادراتِ الفروع من جوفِ قوقعتِها؛ وباختصار،

---

(1) الكلمة الأصليَّة هنا هي "سيغو"، Sevo بالإيطاليَّة القديمة التي يستخدمها دافنشي، وSego بالحديثة، ولا يوجد مرادفٌ لها بالعربيَّة، لكنَّها تسمية لنوعٍ من الشُّحوم الحيوانيَّة يُستخدَمُ لصُنعِ الشُّموع خاصَّةً.

فلقد نهضتْ أغصانُها فوق البناء، والجذورُ الملتفَّة التي غلُظَتْ كثيراً بدأتْ تصدِّعُ الجدار وتقتلعُ الحجارةَ العتيقة من مواضعها القديمة. عندئذٍ، متأخِّراً جداً ومن دون طائلٍ، راحَ الجدارُ يندبُ سببَ هلاكِه، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى تهدَّمَ جزءٌ كبيرٌ منه.

6. **خُرافة.** حين رأى القردُ عشَّ طيورٍ صغيرة دنا منها مسروراً. غير أنَّه، وقد نبتَ ريشُها وتأهَّلتْ للطَّيران، لم يُفلِح إلا بأخذِ أصغرِها؛ ومضى مغتبِطاً صوبَ مأواه والطَّائر الصَّغير في يدِه؛ وهناك راحَ يتأمَّلُه بإعجابٍ وينهالُ عليه بالقُبَل، وبسبب ما اعتراه من هذا الحبِّ المفرِط، أفرطَ في تقبيلِه وضمِّه حتَّى قتلَه. هذا ما يُقالُ عن أولئك الذين عندما لا يؤدِّبون أبناءَهم، يجعلونهم يتمادون في الشَّقاوة.

7. **خُرافة.** الصَّفصافةُ البائسة، لمَّا أدركتْ أنَّها لن تتمتَّع بنعمةِ أن ترى أغصانَها الرَّفيعة تنمو وتبلغُ العُلْوَ الذي تشتهيه، أو تتَّجه نحوَ السَّماء ـ ذلك أنَّها بسببِ كرمةِ العنب وسواها من النَّباتات التي تنمو بقربِها، كانت دائماً مشوَّهةً ومدلَّاةً وخَرِبة – فقد حشدتْ في نفسها كلَّ عزمٍ وفتَّحتْ بوَّابةَ الخيال على مصراعيها مكرِّسةً نفسَها كليَّاً للتَّخييل، وغائصةً في تأمُّلٍ طويلٍ، متفكِّرةً فيمن، في عالمِ النَّباتاتِ الرَّحيب هذا، يمكن أن يُحالِفَها وفيمن ليس في حاجةٍ إلى توثيق الصِّلاتِ بها. وفيما هي غارقةٌ في خيالِها الخصب، اجتاحَ اليقطينُ أفكارَها بسرعة البرق، فموَّجتْ أغصانَها بفرحٍ بالغ، وقد بدى لها أنَّها وجدت الرَّفيق الملائمَ لغرضِها - لأنَّ اليقطين أكثر ميلاً لاعتلاقِ الآخرين من حاجتِه إلى أن يُعتلَق- وإذْ خلُصت إلى هذا القرار المعلَّل، نصبتْ أغصانَها في وجهِ السَّماء، مترقِّبةً بفارغِ الصَّبر قدومَ طائرٍ ما ودودٍ ليكونَ رسولَ رغبتِها. حالاً رأتْ قربَها طائر العُقعق،

وقالت له: "ها أيُّها الطَّائر اللطيف! أتوسَّلُ إليك، بحقٍّ ذكرى المأوى الذي وجدتَه صبيحةَ اليومِ بين أغصاني، عندما كان الصَّقرُ الوحشيُّ الشَّرِه يبغي افتراسَك؛ وبحقٍّ تلك السَّكينة التي لطالما وجدتَها عندي كلَّما تاقَ جُنْحاكَ إلى الرَّاحة؛ وبحقٍّ هاتيك الغِبطات التي تنعَّمتَ بها بين أغصاني، حين كنت تلهو مع أقرانِك أو تفعلُ الحبَّ؛ أتوسَّلُ إليك أن تعثرَ على اليقطين وتحصلَ منه على بعضِ البذور، وأخبرْهُ أنِّي سأعتني بكلِّ فرخٍ ينبتُ منها تماماً كما لو أنَّه ينبتُ من جسمي ونسغي؛ وعلى هذا المِنوال فلتستخدمْ كلَّ الكلمات التي قد تردُ في خاطرِك، والتي تحملُ ذاتَ المعاني القادرة على الإقناع؛ مع أنَّني، والحقَّ أقولُ، بما أنَّكَ سيِّدُ اللغة، لستُ بحاجةٍ إلى أن ألقِّنكَ الكلام. وإنْ أنتَ صنعتَ معي هذا المعروف، فسوف أكون سعيدةً بأن أستضيفَ عشَّكَ في المكان الذي تتفرَّعُ عندَه غصوني، ومعكَ أفرادُ عائلتك جميعاً، دون أن تدفعوا لي أيَّ أجرٍ". حينئذٍ، وبعدئذ عقدَ العُقَعق معاهدةً جديدةً وأكيدة مع الصَّفصافة - أوَّلُ بنودِها وقبلَ كلِّ شيءٍ أنَّها لن تأذنَ لأيِّ حيَّةٍ أو نمسٍ أن يتسلَّقَها- رفعَ ذيلَه وخفضَ رأسَه، ورمى بنفسِه عن الغصنِ، مسلِّماً وزنَه لجناحَيه؛ وبينما هذان يضربانِ الهواءَ الخاطفَ، تارةً هنا، وتارةً هناك، مدفوعَين بحبٍّ الاستطلاع، والذَّيلُ يعملُ مثل دفَّةٍ على توجيهه، وصلَ إلى نبتةِ يقطين؛ وبانحناءةٍ فاتنة وبضعِ كلماتٍ مهذَّبة، حصلَ على مُبتغاه من البذور، وحملَها إلى الصَّفصافة التي استقبلته بدورِها بتقاسيم مُغتبطة. وبعد أن كشطَ بقدمه القليل من التُّراب قربَ جذعِ الصَّفصافة، راسماً دائرةً، غرسَ البذورَ بمنقاره، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى أنبتتْ ونمتْ، وطغتْ بنموِّها وفروعِها على أغصان الصَّفصافة كلِّها، وحرمتْها أوراقُها العريضةُ من جمالِ الشَّمس والسَّماء. وكما لو أنَّها لم تقنَع بكلِّ هذا الشَّرِّ، أخذتْ ثمارُ اليقطين مِن ثَمَّ، بوزنِها الثَّقيل، تشدُّ

نهاياتِ الفروع اللطيفة إلى الأسفل نحوَ الأرض، في هيئة التواءاتٍ وتشوُّهاتٍ غريبة. فلمَّا ضاقتْ الصَّفصافةُ ذرعاً، راحت تهتزُّ، سُدىً، لترمي عنها ثمار اليقطين. وبعدَ هذَرٍ استغرقَ بضعةَ أيَّامٍ في مثلِ تلك الخطط الفارغة، ذلك أنَّ تلك الوحدة الرَّاسخة حالت دون نجاحِ أفكارِها، رأت الصَّفصافةُ هبوباً قويَّاً مُقبلاً نحوَها فاستوصتْ به خيراً. آنئذٍ، نفخَ الهبوبُ بشدَّة وفلقَ جذعَها المعمِّرَ والأجوف نصفَين، من الأعلى حتَّى الجذور، فهوت الصَّفصافةُ نصفَين. عبثاً تحسَّرت على نفسِها، مدركةً أنَّها وُلِدتْ لأجلِ أن تُحرَمَ من كلِّ أمرٍ بهيج.

8. ألسنةُ اللهبِ تطاولتْ في أتونِ نافخِ الزُّجاج، عندما رأت شمعةً تقتربُ في شمعدانٍ بهيٍّ ومتلألئ. برغبةٍ متَّقدة ناضلتْ لكي تصلَ إليها؛ وما كان من أَحدها إلا أن تحرَّر من مَجراه الطَّبيعي متلوِّياً نحوَ قرمةِ خشبٍ مُطفأة حيثُ تغذَّى عليها قبلَ أن يخرجَ من الجهةِ المقابلة عبرَ صدعٍ ضيِّقٍ ليبلغَ الشَّمعة التي كانت قريبة. ارتمى عليها، وبغيرةٍ وجشعٍ جامحَين التهمها، حتَّى أوشكت أن تختفي تماماً، وإذ أراد أن يرمِّمَ مددَ حياته، حاول أن يعود إلى الأتونِ من حيث خرجَ. لكن عبثاً، فقد كان مُرغَماً على الموت، وكان الخشبُ قد تلاشى مع الشَّمعة، ولم يبقَ له في النِّهاية سوى التَّحسُّر والنَّدم، متحوِّلاً إلى دخانٍ وسخ، وتاركاً من ورائه جميع أخوتِه [يتوهَّجون] في حياةٍ وجَمالٍ مُشرقَين ومديدَين.

9. الخَمر، النُّسغُ الإلهيُّ للكَرمة، لمَّا وجدَ نفسَه في طاسٍ ذهبيٍّ فخمٍ، على مائدةِ محمَّد، انتفخَ صدرُه زَهواً بهذا التَّشريف؛ وفجأةً اجتاحَه تفكيرٌ مناقِض، وقالَ لنفسه: "ما عساني أكونُ أنا؟ علامَ أبتهجُ أنا؟ أفلا أدركُ أنِّي مُشرِفٌ على نهايتي وأنِّي مُغادرٌ مقامي الذَّهبيَّ في هذا الطَّاس لأدخلَ التَّجاويف المقزِّزة وذات الرَّائحة الكريهة التي

للجسم البشريِّ، ولأتحولَ من بعدُ من شرابٍ روحيٍّ عطرٍ وعذب إلى بَولٍ كريهٍ ودنيء؟ لا، وكأنَّ هذا السُّوء لا يكفي، يتوجَّبُ عليَّ فوق ذلك أن أرقدَ لوقتٍ طويلٍ في تلك الأوكار الشَّائنة، مع بقايا الموادِّ الأخرى النَّتنة والمتفسِّخة الخارجة من معي الإنسان". صرخَ في وجه السَّماء، متوسِّلاً الثَّأرَ عن كلِّ ما نالَه من التَّحقير، وأنَّه لا بدَّ من الآن فصاعداً أن توضَع نهايةٌ لمثل هذا الازدراء؛ ولهذا، وبما أنَّ هذا البلد يُنتِجُ أجودَ وأفضلَ الأعناب في العالَم، فأقلُّه ألا تنتهي تلك الأعنابُ إلى خمر. آنذاك، كان أن أوحى جوبيتر الإله إلى محمَّد أن يشرب الخمر ليصعدَ الخمرُ إذَّاكَ عبرَ الرُّوح إلى عقلِه، فيدنِّسَ فِكرَه ويورثه الجنون، مولِّداً في نفسِه الكثير من الحماقات، حتَّى إذا ما ثاب إلى رشدِه وضع تشريعاً بتحريم الخمرةِ على جميع الآسيويِّين. مُذَّاكَ تُركَتْ الكرمةُ حرَّةً مع ثمارِها[1].

---

(1) من بين حكايا ليوناردو دافنشي التي تتناول الخمر ثمَّة حكاية أخرى لا ترد في بعض الطَّبعات التي تضمُّ كتاباته الأدبيَّة، ومنها طبعة ميلانو 1974 التي اعتمدتُها في هذه الترجمة، فيما ترد في بعضها الآخر، وأثبِّت هنا هذه الحكاية الواردة في طبعة عام 1966 التي أعدَّتها "آنّا ماريَّا بريتسيو" بعنوان "مختارات من كتابات ليوناردو دافنشي"، Anna Maria Brizio، Scritti Scelti di Leonardo Da Vinci، وهي أكثر تبياناً من الحكاية رقم (9) لموقف دافنشي من الخمر الذي ينسجم في غايته مع الموقف الإسلامي رغم اختلافه عنه في الرؤيا. الحكاية هي:

"حالما دخلَ الخمر إلى المعدة بدأ يفورُ ويتهيَّج؛ وعندئذٍ بدأت نفْسُ ذلك الإنسان بالخروج من جسده، وكأنَّها صاعدةٌ نحو السَّماء، ووجدَ العقلُ نفسَه مُغادراً الجسد، فراحَ إذَّاك يحطُّ من قَدْر الإنسان، ويدفعه إلى الهذيان كمثلِ المخبول، ومذَّاكَ وهذا الإنسان يصنع شرّاً لا يمكن إصلاحُه، يقتلُ أقرانَه".

10. **خُرافة.** كانَ أن حُوصِرَ الفأر في مسكنِه الصَّغير مِن قِبلِ ابن عرس، هذا الذي بقي متربِّصاً به يترقَّبُ استسلامَه بتيقُّظٍ لا يعرفُ الكلل، فيما الفأر يراقبُ خطره الوشيك من خلال ثقبٍ صغير. في هذه الأثناء جاءت الهرَّة وانقضَّت على ابن عرس وفي الحالِ افترسَتْه. آنئذ قدَّمَ الفأرُ بعضَ مؤونتِه من البندق قرباناً إلى جوبيتر، شاكراً له بتذلُّلٍ عنايتَه الإلهيَّة؛ وخرجَ من جُحرِه ليتمتَّع بحريِّته التي كاد أن يخسرَها، ثمَّ ما لبث أن خسرَها، و خسرَ معها حياته، بين المخالب والأنياب الوحشيَّة للهرَّةِ المترصِّدة.

11. حكايةُ اللسان المعضوضِ بالأسنان[1].

12. شجرةُ الأرْز، وقد انتفختْ زَهواً بجمالِها، ما كان منها إلا أن انزوتْ بنفسِها عن الأشجارِ المحيطةِ بها، وصنعتْ برجاً منفرداً في الأمام؛ وهي إذ فعلتْ هذا لم تفطن إلى أنَّها أصبحت في مواجهة الرِّيح، ولمَّا لم يعُد ثمَّة ما يصدُّ ضراوةَ هذه، فقد طوَّحتْ بها أرضاً مقتلعةً إيَّاها من الجذور.

13. **خُرافة.** عثرتِ النَّملة على حبَّةِ ذرة بيضاء؛ فلمَّا رأت البذرةُ نفسَها تُساقُ أسيرةً، هتفتْ: "لو أنَّكِ تصنعين لي معروفاً بتركي أنجِزُ رغبتي بالتَّكاثر، لَأمنحنَّكِ مئةً مِن نفسي". وهكذا كان.

14. عثرَ عنكبوتٌ على عنقودٍ من العنب، كان النَّحل وصنوف الذُّباب المختلفة كثيراً ما تتردَّدُ عليه لما فيه من العذوبة والحلاوة؛

---

(1) هكذا ترِد هذه الحكاية، في أربع كلماتٍ فقط، وهي في رأيي مجرَّد إلاحة من دافنشي إلى حكاية من الموروث الشَّعبي الإيطالي مؤدَّاها أنَّ شابًّا في الماضي كان يُكثرُ الكلام إلى حدٍّ أن تبرَّمتْ أسنانُه من لسانِه فقرَّرت أن تعضَّه كلَّما نطق بكلمةٍ فوقَ الكلام اللازم، ومنذ ذلك الحين واللسان يفكِّر مرَّتين قبل أن يتكلَّم.

فبدا للعنكبوت أنَّه وجدَ أخيراً البقعةَ الأكثر ملاءَمةً لنصب أحبولتِه. وبعدما دخلَ بيتَه الجديد، واستقرَّ هناك وسطَ خيوطِه الرَّقيقة، صارَ في كلِّ يومٍ يجدُ لنفسه مخبأً مختلفاً في الفُرجات التي تصنعها الفراغات بين العنبات، لينقضَّ منه، كمثلِ لصٍّ كبير، على تلك المخلوقات البائسة التي لم تكن لتُدرِكَ وجودَه. لكن، وبعد مرورِ أيامٍ قليلة، جاء الكَرَّامُ وقطفَ عنقودَ العنب ليضعه مع العناقيد الأخَر، وليُعصرَ مِن ثمَّ معها دوساً بالأقدام؛ وهكذا كان العنبُ أحبولةً ومِصيَدة للعنكبوتِ المخادعِ وللذُّباباتِ المخدوعة على حدٍّ سواء.

15. لم يكن نباتُ مهد العذراء[1] قانعاً بسياجه، فأخذ يعبرُ بأغصانه الطَّريقَ العامَّ، ويتعلَّقُ بالسِّياجِ المقابِل؛ وهكذا فقد تقطَّعَ إرباً تحت أقدام المارَّة.

16. ذهبَ الحمارُ لينامَ على الجليدِ [المتشكِّلِ] فوق بحيرةٍ عميقة، فذوَّبتْ حرارةُ جسمه ذلك الجليد، وعندما أفاقَ على كارثته كان قد أصبح تحت الماء، وسرعانَ ما مات غرقاً.

17. لمَّا رأتْ بقعةُ ثلجٍ صغيرةٌ نفسَها عالقةً على قنَّة حَجَرٍ منصوبٍ على أعلى ذروةٍ مِن ذرواتِ جبلٍ شاهقٍ، متروكةً هناكَ لتخيُّلاتها، بدأت تتأمَّلُ على هذا المنوال، قائلةً لنفسها: "الآن، ألن يُحكَمَ عليَّ بأنِّي متغطرسةٌ ومُتعالية لأنَّني أسكنتُ نفسي، أنا بقعةُ الثَّلج الأصغر من عملةٍ فضيَّةٍ صغيرة[2]، في مكانٍ شامخٍ كمثلِ هذا،

---

(1) نبات متسلِّق من أسمائه أيضاً: ياسمين البَرِّ، الظَّيَّان، كليماتيس، واسمه اللاتيني: *Clematis Vitalba*.

(2) العملة التي يذكرها دافنشي هنا هي عملة الدرامًا Dramma وهي عملة فضيَّة لدى قدماء الإغريق.

ولأنّني أطيقُ في الوقت نفسِه أن أرى مقداراً كبيراً من الثَّلج حوالَيَّ يتَّخذُ له مكاناً أخفض من مكاني؟ لا ريب أنَّ حجمي الضَّئيل لا يستحقُّ على الإطلاق هذا العُلو؛ ولَكم سيكون سهلاً، بدليلِ ضآلتي هذه، أن أواجهَ نفسَ المصير الذي صنعتَه الشَّمس البارحة بأقراني، هؤلاء الذين في غضون سُويعاتٍ قليلة كانوا مدحورِين قُدَّامَها؛ ذلك أنَّهم أسكنوا أنفسَهم أعلى ممَّا ينبغي لهم. سوف أهربُ من غضبِ الشَّمس، وأخفضُ من قدرِ نفسي، وأجدُ مكاناً يناسبُ شأني الوضيع". هكذا، ارتمتْ نحو الأسفل، وأخذتْ بالانحدار، ملتفَّةً على نفسِها مِن الضِّفاف السَّامية في الأعلى إلى حيث الثُّلوج الأخرى؛ لكنَّها كانت كلَّما سعتْ وراءَ بقعةٍ أخفض، ازدادَ حجمُها، حتَّى إذا ما استقرَّ دورانُها في النِّهاية فوقَ تلٍّ خفيض، وجدتْ أنَّها لا تقلُّ حجماً عن حجمِ التَّلِّ الذي يحملُها: وكانت آخرَ بقعةِ ثلجٍ تُذيبُها الشَّمس في ذلك الصَّيف.

هذا ما يُقال عن أولئك الذين عندما يتَّضعون، يرتفعون.

18. لمَّا لم يُطِق الصَّقر صبراً على تخفِّي البطَّة التي طارت هرباً منه وغاصتْ تحت الماء، أرادَ أن يلحقَ بها قافياً أثرها تحتَ الماء، فلمَّا ابتلَّتْ أجنحتُه وانتقعتْ تماماً، عجزَ عن الخروج من الماء، فيما ارتفعتْ البطَّة في الهواء ساخرةً من الصَّقر وهو يغرق[1].

19. بينما كان العنكبوتُ يأملُ أن تسقطَ الذُّبابةُ في شبكته الخادِعة، إذا به يُقتَلُ بوحشيَّةٍ داخلَ شبكتِه بين قواطعِ الزُّنبور.

---

(1) من المعروف أنَّ أجنحة البط وسواه من الطَّيور المائيَّة تحتوي على غددٍ خاصَّة تقوم بإفراز مادَّة زيتيَّة القوام تحول دون تبلُّل تلك الأجنحة. وهذه الحكاية إنَّما تدلُّ على سعةِ علمِ دافنشي بدقائق علومِ الطَّبيعة.

20. أراد النَّسر أن يهزأ بالبومة، فإذا بأجنحته تعلقُ بالدَّابوق[1]، قبل أن يمضي به الصَّيَّاد ويقتله.

21. تملَّكَ شجرةَ الأرز توقٌ عارمٌ إلى صُنعِ ثمرةٍ فاتنةٍ وكبيرة عندَ قمَّتها، فشرعت بالعمل مكرِّسةً لأجل ذلك كلَّ نسغِها؛ لَكن حالما كبرت تلك الثَّمرة ونضجت، جعلت القمَّةَ العالية والمستقيمة تميلُ نحو الأسفل.

22. تملَّكَ الحسدُ شجرةَ الخوخ إذ رأت الوفرةَ العظيمةَ بالثِّمار التي تحملُها شجرةُ الجوزِ القريبة منها، فقرَّرت أن تفعلَ مثلها، وراحت تُثقِلُ نفسَها بالثِّمار إلى أن اقتلعَها وزنُ تلك الثِّمار من جذورِها وطَوَّحَ بها أرضاً.

23. كانت شجرةُ الجوز على جانب الطَّريق تعرضُ للمارَّةِ فيضَ ثمارِها، وكان كلُّ واحدٍ يرميها بحَجَر.

24. عندما لم تمتلك شجرةُ التِّين ثماراً، لم ينظر إليها أحد؛ فلمَّا أرادتْ أن تؤتي ثماراً كيما يُثني عليها النَّاس، ثُنِيَتْ أغصانُها وتحطَّمت.

25. كانت شجرةُ التِّين منتصبةً بجوارِ شجرةِ الدَّردار، فلمَّا رأت أغصانَها عاريةً من الثِّمار، وأنَّها مع ذلك تجرؤ على صدِّ الشَّمس عن تيناتِها اللائي لم ينضجنَ بعد، قالت لها بتوبيخٍ شديد: "ها أيَّتُها الدَّردارة! ألا تخجلين من الوقوف أمامي؟ حسناً، انتظري إلى أن تبلغَ ذُرِّيَتي أشُدَّها، وسترين أين تكون نهايتُك". لكن عندما بلغتْ ذرِّيَتُها تمامَ النُّضج، مرَّت بها سريَّةٌ من الجُند فقطعتْها، وقطفتْ جميعَ ثمارِها، وتركت أغصانَها مكسَّرةً ومهشَّمة. آنئذٍ، بعدما بُتِرَ وشُوِّهَ كل

---

[1] الدَّابوق أو الدَّبق، مادَّة كالغراء تُجعَل على الفروع لصيد الطُّيور، (م).

فرعٍ من فروعِها، سألتها شجرةُ الدَّردار، قائلةً: "ها أيَّتها التِّينة! أما كان أفضل لكِ أن تظلِّي من دون ذرِّيةٍ، من أن ينالَكِ معهم ما نالَكِ من سوءٍ يثير الشَّفقة؟!"

26. كانت شرارةُ النار الضَّئيلة التي بقيت تتوهَّج في قطعةِ فحمٍ صغيرة وسط الرَّماد الدَّافئ، تتغذَّى بجوعٍ على آخر رمقٍ من النُّسغ المتبقِّي فيها، عندما دخلت مديرةُ المطبخ لتستخدمها في أعمال الطَّهو المعتادة، فما أن وضعتْ أروماتِ الخشب في الموقد، وقرَّبتْ عود الثِّقاب، حتَّى انبعثتْ من قطعةِ الفحم تلك، التي كانت منذ هنيهةٍ على شفا الموت، شعلةُ نارٍ صغيرة، ما لبثت أن انتشرت بين الأخشاب المنضَّدة التي وضعت المرأة فوقها قِدراً، قبل أن تغادر مطمئنَّةً، لا تُراودُها الظُّنون.

مُغتبطةً آنذاك بالأخشاب الجافَّة الموضوعة فوقَها، بدأت النَّار بالارتفاع: مُطارِدةً الهواء عبرَ الفُرجاتِ التي تتخلَّل تلك الأخشاب، لاهيةً ومُعابِثة كما لو أنَّها تحيكُ نفسَها بذلك العبور.

ثمَّ بدأت النَّار تزفِرُ خارجَ الفُرجاتِ الخشبيَّة، التي كانت لها بمثابة نوافذ مسلِّية، يطردُها اللهيبُ الأحمر السَّاطع نحو الخارج؛ لكن ما لبثت هي نفسُها أن راحت تطردُ ظلمةَ المطبخ المُغلَق الدَّامسة؛ وبتنعُّمٍ وحبور مضى وهجُها المُتعاظم يُعابثُ الهواءَ ملتفَّاً عليه، وهو يغنِّي بهسيسٍ حُلوٍ كأنَّه صدى صوتٍ جماعيٍّ عذب.

فلمَّا رأى اللهيب الأحمر السَّاطع ذاك أنَّ النَّار التي طردَها ارتفعت بقوَّةٍ فوق الأخشاب، منتفخةً وبالغةً تلك العظمة، بدأ يَرفع روحَه المُنقادة والخانعة باستعلاءٍ مُغتَرٍّ لا يُطاق، شادّاً إليه بثقةٍ القِدرَ المرفوعَ فوق الأخشاب القليلة المتبقِّية.

وإذ بدأت تنفثُ وتنخرُ، مالئةً بالفرقعات وبالبروق الباهرة فضاءَ الموقد المحيط بها، راحت النِّيران، التي غدت هائلةً الآن، تتَّجه متَّحدةً مع بعضها نحو الفضاء، فيما بقيت النِّيران الأكثر غطرسةً تطوفُ أسفلَ القِدر العُلوي.

27. **خُرافة.** فرحتْ طيورُ السُّمَانَى فرحاً عظيماً إذ رأتْ الرَّجلَ يُمسك بالبومة ويسلبُها حرِّيَّتَها، مقيِّداً قدميها بحبلٍ متين. لكنَّ تلك البومة بعدئذ، وبواسطةِ الدَّابوق، كانت السَّببَ وراء خُسران تلك السُّمانَيَات لا لحرِّيَّتها حسب، بل لحياتِها كذلك.

هذا ما يُقال عن تلك البلدان التي تفرح برؤية عظمائها يُسلَبون حرِّيَّاتهم، دون أن تعي أنَّها بذلك إنَّما تفقدُ كلَّ مغيثٍ لها، وتبقى مُستعبَدةً لنفوذ أعدائها، خاسرةً حرِّيَّتها، وغالباً حياتَها.

28. **خُرافة.** فيما الكلبُ غافٍ على صوف خروف مخصيٍّ، رأى أحدُ براغيثِه، وقد اشتمَّ رائحة الصُّوف الملطَّخ بالدِّهن، أنَّ ذلك المكان لا بدَّ أن يكون أرضَ نعيمِه الأطيب، وأنَّه كذلك أكثر أمناً من أسنان ومخالب الكلب حيث كانَ يرعى ويتغذَّى؛ ودون المضيِّ في التَّفكير، هجرَ الكلبَ ودخلَ في الصُّوف المتلبِّد، وهناك، بدأ يحاول جاهداً العبور نحو جذورِ الشَّعر. غير أنَّه، وبعد التَّصبُّب عرقاً، سلَّم بأنَّها مغامرةٌ طائشة لا جدوى منها، فالشَّعر كان متلاصقاً، ولم يكن ثمَّة مجالٌ يمكن أن تمرَّ منه البراغيث لتذوقَ طعم الجلْد. لذلك، بعد طويلِ جَهدٍ وعناء، بدأت تتآكلُه الرَّغبة في العودةِ إلى كلبِه، الذي كان قد غادر منذ قليل؛ فكانَ إذَّاكَ مُرغماً، بعد تحسُّرٍ طويل، ودمعٍ مرير، على الموت جوعاً.

29. **خُرافة.** ذات يومٍ خرجَ نصلُ الحِلاقة من ذلك المقبض الذي هو غمدٌ له، متَّخذاً لنفسِه مكاناً في الشَّمس، فرأى كيف أنَّ ضوءَها

ينعكس في جسده، فامتلأت نفسُه آنئذٍ زَهواً وفخراً؛ وإذ أدار الأفكار في خَلَده، بدأ يقولُ بينه وبين نفسِه:

"أفأعودُ إلى ذلك الحانوتِ الذي خرجتُ منه منذ قليل؟ بالتَّأكيد لا؛ ليس يُرضي الآلهة أن يبقى جمالٌ ساطعٌ، مثل هذا الجمال، أسيراً للذُّلِّ والهوان! لمن الحماقةِ أن أعود لأحلق لحى القرويِّين المكسوَّةِ بالرُّغوة وأؤدِّي مثل هذا العمل الوضيع! أوَينبغي لهذا الجسد مزاولةُ عملٍ مِن مثلِ هذا؟ بالتَّأكيد لا. سوف أواري نفسي في مكانٍ ما مُنعزِلٍ، وأمضي حياتي هناك قريرَ العين". وبعدما مكث لأشهرٍ مختبئاً على هذا المنوال، عادَ ذات يومٍ إلى الهواء، ولمَّا خرجَ من غمده ونظر إلى نفسه، رأى أنَّه قد أصبح شبيهاً بمنشارٍ صدِئ، فيما لم يعُد سطحُه يعكسُ ألقَ الشَّمسِ المشرقة. هكذا، بندمٍ لا طائل منه، راح يبكي سُدىً هلاكَه المحقَّق، قائلاً لنفسِه:

"أوه! كم كان أفضل لو أنِّي استخدمتُ حافَّتي الفائقة الرِّقَّة عند الحلَّاقين! أين اختفى ذلك السَّطح اللألاء الصَّقيل؟ يقيناً أنَّ ذلك الزِّنجارُ المزعِجُ والقبيح قد تآكلَه!"

نفسُ الشَّيء يحصلُ لتلك العقول التي، بدلاً من الانغماس في العمل، تُسلِمُ ذواتها للكسل. إنَّها مثل هذا النَّصل المذكورِ أعلاه، تفقدُ حدَّها القاطع، وزِنجارُ الجَهلِ يُتلِفُ خِلقتَها.

30. **خُرافة.** كان ثمَّةَ حَجَرٌ رائعُ الحجم، رفعتِ المياهُ الحجابَ عنه مِن عهدٍ قريب، فإذا به ينتصبُ بارزاً فوقَ موضعٍ متين، تماماً حيثُ ينتهي دغلٌ صغيرٌ مُبهِجٌ عند حافَّةِ الطَّريق المفروش بالحصى؛ ههنا كان الحجرُ محفوفاً بخُضرةٍ مرصَّعةٍ بأزاهير متنوِّعة مختلفٌ ألوانُها. وعندما وقع نظرُه على ذلك القَدر الكبير من الحجارةِ المرصوفةِ على الطَّريق في الأسفل، اعترته الرَّغبةُ في السُّقوط

متدحرجاً إلى هناك، قائلاً لنفسه: "ما الذي أفعلُه هنا مع هذه الأعشاب؟ أريدُ أن أحيا برفقةِ هؤلاء، أخوتي". وإذِ استسلمَ للسُّقوط، انتهى به المطافُ الطَّائش وسط رفقتِه المُشتهاة؛ ولم يمض عليه هناك وقتٌ طويلٌ حتَّى وجد نفسَه يرزحُ دون انقطاعٍ تحتَ دواليب العَرَبات، وتحت النِّعال الحديديَّة للأحصنة وللعابرين؛ فهذا يدحرجُه هنا، وذلك يدوسُه هناك؛ وكانَ أحياناً لا يكاد يرفع نفسَه قليلاً حتَّى يُغمَرَ بالوحل أو برَوْثِ حيوانٍ ما؛ وعبثاً كان يتأمَّلُ المكان الذي خرجَ منه، هناك حيث كانتَ السَّكينة والعزلة.

هكذا يحدثُ لأولئك الذين ينعمون بحياةٍ منعزلة وتأمُّليَّة عندما يأتون للعيش في المدينة، بين النَّاس المملوءةِ نفوسُهم بشرٍّ لا محدود.

31. فيما كانت الفراشةُ الملوَّنة تطوفُ متسكِّعةً، منسابةً عبر الفضاء المُعتَّم، وقعت عيناها على وهج مصباح، فاتَّجهت نحوَه على الفور، وراحت تتراقصُ حولَه في دوائر متنوِّعة الأشكال، مسلوبةَ اللبِّ بهذا الجمال البهيِّ؛ ولمَّا لم تكن لتقنع بمجرَّد النَّظر إليه، فقد أرادت أن تصنع معه صَنيعَها مع الأزهار العطِرة؛ وآنذاك، صوَّبتْ جهةَ طيرانِها، وبشغفٍ متوقِّد جازتِ الهواءَ نحو ذلك الوهج، هذا الذي ما لبث أن أتى على أطرافِ أجنحتِها وسيقانِها وعلى بعض زُخرُفات جسمها الأُخَر. وإذْ هوَتْ عند قدمِ المصباح، منبهرةً ممَّا حصل، لم تستطع روحُها التَّصديق بأنَّ شيئاً بهذا الجمال وهذا البهاء يمكن أن يصدرَ عنه مثلُ هذا الشَّرِّ أو الهلاك. لذلك، عندما استعادت بعضَ قوَّتها الضَّائعة، قامت بتحليقةٍ أخرى، واخترقتْ جسدَ الوهج، فهوتْ إذَّاك على الفور محروقةً بالزَّيت الذي يتغذَّى عليه ذلك الوهج، وإذ لم يبق لها من الرَّمق ما يكفي للتَّأمُّل في علَّةِ هلاكِها، قالت له: "أيُّها النُّور اللعين! لقد حسبتُ أنِّي عثرتُ فيكَ على

سعادتي؛ ها أنذا أبكي سُدىً رغبتي المجنونة، وبهلاكي فقط عرفتُ طبيعتَك الشَّرهة والمُهلِكة". فأجابَها الوهجُ: "كذا أفعلُ مع الذين لا يُحسِنون استخدامي".

ذا هو شأن الذين، تلقاءَ اللذَّات الجنسيَّة والدُّنيويَّة، يفعلون كما فعلتِ الفراشة، يهرعون إليها دون التَّفكُّر في طبيعتها؛ ثمَّ، بعد طولِ انغماسٍ فيها، وفقط بعارِهم وهلاكِهم، يعرفونها[1].

32. انصعقَ الحجرُ بقوَّةٍ إذ ضربَه زِنادُ القَدح، فقال له بنبرةٍ صارمة: "أيُّ جرأةٍ تدفعُكَ إلى إنزال هذا الشَّقاء بي؟ أليس يكفيني حزني، حتَّى تأتي أنت وتنهال عليَّ فوق ذلك؟ كفاني أنِّي مجرَّدُ حجرٍ لا يُعجِبُ أحداً". فردَّ عليه زِناد القَدح: "إن أنتَ صبرتَ قليلاً، لتَرَيَنَّ أيَّ ثمرةٍ عجيبةٍ تخرجُ منك". وعند هاته الكلمات، أحسَّ الحجَرُ بالسَّكينة؛ وبعد مُصابرةٍ على الألم، رأى كيف تخرجُ من جسدِه نارٌ عجيبة، يُمكن أن تُصنَعَ بقوَّتِها أشياءُ لا تُحصى.

هذا ما يُقال عن أولئك الذين يخافون في بدايةِ كلِّ دراسةٍ يُقدمون عليها، ثمَّ إذا ما استطاعوا التَّحكُّم بأنفسِهم، والمصابرة على مواصلة تلك الدِّراسات، فإنَّ أشياء عجيبةً يمكن أن تنجمَ عنها، وتتجلَّى للعيان.

33. العنكبوتُ، حسِبَ أنَّه لَقِيَ الرَّاحةَ في خُرمِ القفل، لَقِيَ الموت.

34. **خُرافة.** ارتاحَ الزَّنبقُ على ضفَّةِ **تِسِينُو**[2] والسَّيلُ أخذَ الضِّفَّةَ ومعها الزَّنبق.

---

(1) قارن مع رقم (4) من هذا الباب. القصَّة متشابهة والمغزى مختلف.

(2) نهرٌ في إيطاليا ليس له روافد رئيسيَّة؛ يجري في مقاطعة "أسكولي بيتشينو".

35. **خُرافة.** عندما رأت المحارةُ أنَّ المطاف قد انتهى بها مع الأسماك الأخرى في منزلِ الصَّيَّاد القريب من البحر، أخذت تتضرَّع إلى الفأر أن يحملَها إلى البحر. لكنَّ الفأر اعتزمَ التهامَ المحارة، فلمَّا عضَّها فاتحاً إيَّاها، أطبقت المحارةُ على رأسِه وحشَرَتْهُ بين مصراعَيها. جاءت الهرَّة وقتلته.

36. لمَّا رأى المزارعُ الخيرَ الوفير الذي جادتْ به الكرمة، قدَّم لها الكثير من الدِّعامات كيما يُبقيها عالية؛ ثمَّتَ، بعدما أخذَ ثمارَها، أزالَ الأعمدة وتركَها تسقط، مستوقداً من تلك الدِّعامات ناراً.

37. فيما سرطانُ البحر كامنٌ تحت صخرةٍ، يتصيَّدُ الأسماك التي تنسلُّ إلى هناك، إذا بالصَّخرةِ تنهارُ بغتةً تحت انهيار صخورٍ عظيمة، وبانهيارِها سُحِقَ السَّرطان.

38. الشَّيء نفسُه:

فيما العنكبوتُ كامنٌ وسطَ الأعناب، يتصيَّدُ الذُّبابَ الذي يتغذَّى على تلك الأعناب، حلَّ موسمُ القطاف، وقُصَّ العنكبوت مع الأعناب.

39. الكرمةُ[1] التي تشيخُ على شجرةٍ شائخة تسقطُ بسقوط تلك الشَّجرة: وبذلك، تموتُ معهما رفقتُهما البائسة.

40. حملَ السَّيلُ الكثير من التُّراب والحصى إلى سريرِه، حتَّى وجدَ نفسَه بعد حينٍ مُرغماً على تغيير مجراه.

(1) الكلمة الإيطاليَّة هنا تطلَق على الكرمة وعلى أي نباتٍ متسلِّقٍ آخر.

41. الشَّبكةُ التي اعتادتْ أخذَ السَّمَك، عِلِقتْ وسِيقَتْ بعيداً بالاندفاعةِ القويَّةِ للسَّمك.

42. كرةُ الثَّلج المدَّحرِجة، بقدرِ ما تهبطُ الجبلَ الثَّلجيَّ، بقدرِ ما تُضاعفُ كُبْرَها[1].

43. الصَّفصافةُ التي تتمنَّى لفروعِها الرَّفيعة أن تنمو حتَّى تفوقَ كلَّ نباتٍ آخر، وذلك بتحالفِها مع الكَرمة، سوف تجدُ نفسَها، مع تقليم الكرمةِ في كلِّ عامٍ، تضعفُ باستمرار.

44. إذ أدركَ الماءُ أنَّ عنصرَهُ هو البحرُ المهيب، تملَّكته الرَّغبةُ بالصُّعودِ فوقَ الهواء؛ ومحرَّضاً آنئذٍ بعُنصر النَّار، ومتسامياً في خيط بخارٍ رقيق، بدا حقّاً وكأنَّه صار خفيفاً خفَّةَ الهواء. لكنَّه عندما بلغَ في صعودهِ علواً كبيراً، وصلَ إلى [طبقة] الهواء المخلخلِ والبارد، حيث هجَرَه هناك عنصرُ النَّار، وأخذت الذَّرَّات الدَّقيقة تتَّحد مع بعضها عليه وتَثقُل. عندئذٍ، وقد سقطَ استعلاؤه، ولَّى بدورهِ هارباً واسَّاقَطَ من السَّماء، فتشرَّبَتْه الأرض الجافَّة، حيثُ حُبِسَ فيها زمناً طويلاً، تكفيراً عن ذنبِه.

45. النُّور نارٌ نَهِمةٌ فوقَ شمعة.

تلك التي، إذ تأكلُ، تؤكَل.

46. عندما يشرب السِّكِّيرُ الخمرَ، ينتقمُ ذلك الخمرُ من الشَّارب.

47. بياضُ الورقة يستخفُّ بسوادِ الحِبر، إذ رأى نفسَه ملطَّخاً به.

---

(1) انظرْ أيضاً رقم (17) من هذا الباب.

لمَّا رأت الورقةُ نفسَها مبقَّعةً بالكامل بالسَّواد المُعتم للحبر، راحت تبثُّ الحبرَ ألمَها العميق؛ وكان هو يوضِّح لها أنَّ الكلمات المصفوفة عليها هي سببُ بقائها.

48. قالت النَّار، وهي تسخِّن الماء الذي في القِدر، أنَّ الماء لا يستحقُّ أن يكون فوق النَّار، ملكةِ العناصر، فراحت بقوَّة الغليان تُخرِجُ الماءَ من القِدر، وكان هو، لأجل تقديم فروض الطَّاعة، ينزلُ إلى الأسفل ويُغرِق النَّار.

49. **خُرافة.** الرَّسامُ يُحاجِجُ ويُسابِقُ الطَّبيعة[1].

50. السكِّين، التي هي سلاحٌ صُنعيٌّ، تجرِّدُ الإنسانَ من أظفارِه، التي هي سلاحٌ طبيعيٌّ.

51. تنتفخُ المرآةُ غطرسةً إذ تحتوي الملكةَ التي تتمرأى فيها، فإذا الملكةُ غادرَتْ، عادت المرآةُ إلى ما كانت عليه.

52. قطعةُ الحديد الثَّقيلة تصيرُ غباراً دقيقاً تحتَ المِبرَد، حتَّى أنَّ نسمةً خفيفةً تستطيعُ حملَها.

53. يتذمَّرُ النَّباتُ من الوتد العتيق واليابس المنصوبِ بجِوارِه، ومن القصلاتِ الشَّوكيَّة اليابسة التي تحيطُ به.

الأوَّلُ يُبقيه منتصباً، والأُخَر تحميه مِن المُزاحَمةِ الدَّنيئة.

---

(1) مع أنَّني أرى أنَّ هذه العبارة ينبغي أن تكون منضوية تحت الباب الأوَّل لا الثَّاني، كونَها أقرب إلى شذرة فكريَّة منها إلى حكاية، وكذا الأمر بالنسبة للأرقام 45، 46، 50، 51، 52... وغيرها، إلا أنَّني ارتأيتُ أن أحافظ على التبويب كما جاءَ في الطَّبعة التي اعتمدتُها لهذه التَّرجمة.

54. حتميَّةٌ هي الرفقة بين القلم والمِحبَرة، ونافعةٌ كذلك، ذلك أنَّ أحدهما دون الآخَر لا يساوي الكثير.

* * *

مؤلَّفات رمزيَّة[1]

1. **حبُّ الفضيلة.** الحسُّون[2] طائرٌ يُقالُ عنه أنَّه إذا ما جيء به أمامَ إنسانٍ مريض، وكان هذا المريض على وشك الموت، فإنَّ الطَّائر يُديرُ رأسَه إلى الجهة المعاكسة ولا ينظرُ إليه أبداً؛ أمَّا إذا كان مكتوباً للمريض الخلاصُ من مرضِه، فإنَّ الطَّائر لا يرفع نظرَه عنه أبداً، بل ويكون هو سبب رفعِ كلِّ مرضٍ عنه.

كمثل هذا، حبُّ الفضيلةِ لا ينظرُ أبداً إلى شيءٍ دنيءٍ أو حقير، بل يتشبَّثُ على الدَّوام بكلِّ شيءٍ شريفٍ وطاهر، ويتَّخذ لنفسه مقاماً في القلب النَّبيل، مثلما تفعلُ الطُّيور في الغابات الخضراء فوقَ الأغصان المُزهرة؛ وهذا الحبُّ إنَّما يُفصِح عن نفسه في المحنِ أكثر ممَّا في الرَّخاء؛ تماماً كما النُّور الذي يشعُّ أكثرَ قوَّةً في المكان الأكثر ظُلمةً.

2. **حَسَد.** ممَّا يُقرأ عن الحِدأة[3]، أنَّها عندما ترى فراخَها قد

---

(1) بالإيطاليَّة Bestiario وهي تعني حرفيَّاً: "مؤلَّفات رمزيَّة عن الحيوانات وعاداتِها".

(2) طائر من رتبة العصافير وفصيلة الصُّغنج Fringillidae، يتميَّز بقناع الوجه القرمزي وبألوان متعدِّدة كالأبيض والأسود والأصفر؛ كثيراً ما يُربَّى في البيوت للزِّينة؛ سمَّاه أهل الأندلس أبا الحسن.

(3) طائر جارح من فصيلة العقبان Aquilidae، وهي تكون بكسر الحاء، لأنَّ الحدأة بفتح الحاء هي الفأس التي لها رأسان؛ ويذكر كمال الدِّين الدُّميري في مؤلَّفه (حياة الحيوان الكبرى) فكرةً قد تبدو مناقضةً لفكرة دافنشي، إذ يقول: "يُقالُ أنَّها أحسن الطَّير مجاورةً لما جاورَها من الطَّير فلو ماتت جوعاً لا تعدو على فراخ جارِها".

بلغوا حجماً كبيراً في العشّ، فإنَّها تنقرُ ضلوعَهم حسداً، وتتركهم من دون طعام.

3. **فَرَح.** الفرَحُ يليقُ بالدِّيك، ذلك أنَّه يغتبطُ بكلِّ شيءٍ صغير، ويصيحُ بحركاتٍ منوَّعةٍ ومفعمةٍ بالحياة.

4. **حُزن.** الغرابُ رمزٌ للحزن، فهو عندما يرى أنَّ صغارَه قد وُلِدت بيضاء، يغادرُ العشَّ بحزنٍ عظيم، ويهجر أفراخَه باغتمامٍ وتفجُّع، ولا يُطعمها حتَّى يرى عليها بعضَ الرِّيش الأسود[1].

5. **سلام.** يُقرأ عن القُندُس أنَّه عندما يُطارَد، ثمَّ يُدرك أنَّ ذلك إنَّما هو للمزيَّةِ الشِّفائيَّةِ في خصيتَيه[2]، وأنَّه لا أمل له في النَّجاة، فإنَّه

---

(1) يقول أرسطوطاليس في الغربان أنَّ "الأنثى تبيض أربع بيضات أو خمساً، فإذا خرجت الفراخ من البيض طردتها لأنها تخرج قبيحة المنظر جداً إذ تكون صغار الأجرام، كبيرة الرؤوس والمناقير وجرداء اللون متفاوتة الأعضاء، فالأبوان ينظران الفرخ كذلك فيتركانه، فيجعل الله قوتَه في الذُّباب والبعوض الكائن في عشِّه إلى أن يقوى وينبت ريشه فيعود إليه أبواه"؛ والعرب، كما يقول الدُّميري في (حياة الحيوان الكبرى)، تتشاءم بالغراب ولذا اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب؛ وقد قال عنترة:

ظعنَ الذين فراقُهم أتوقَّع وجرى بينهم الغراب الأبقع

كما قال المقدسيُّ في (كشف الأسرار في حكم الطُّيور والأزهار) في صفة غراب البَين أنَّه "غرابٌ أسودٌ ينوح نوحَ الحزين المصاب وينعق بين الخلَّان والأحباب، وإذا رأى شملاً مجتمعاً أنذر بشتاته، وإن شاهد ربعاً عامراً أبشر بخرابه..."؛ وهذا كلُّه إنَّما يتَّفق مع نظرة دافنشي إلى الغراب.

(2) ثمَّة مادَّة دهنيَّة عطرة لونها يميل إلى البني تُستَخرج من كيس يقع وراء خصيتَي حيوان القندس، تُستعمَل هذه في العطارة، وفي الطِّبِّ الشَّعبي تُعرف هذه المادَّة بدهن منستر أو الجندبادستر، أمَّا الاسم الرَّائج لدى العطَّارين في عصرنا فهو القسطوريوم.

يتوقَّف؛ ولكي يُترَك في سلامٍ من مطارديه، فإنَّه يقطع خصيتَيه بأسنانِه القاطعة ويتركهما لأعدائه[1].

6. **غضَب.** يُحكى عن الدُّبِّ أنَّه عندما يـذهب إلى خلايـا النَّحـل ليأخذ منها العسل، وتبدأ النَّحلات بلدغه، فإنَّه يتـرك العـسل وينـدفع للثأر لنفسِه؛ ولأنَّه يريد الثَّأر من كلِّ النَّحـل الـذي يلدغـه، ينتـهي بـه الأمـر دون أن يثـأر مـن واحـدة؛ وهكـذا ينقلـبُ غـضبُه إلى جنـون، ويطوِّحُ بنفسِه أرضاً، ملوِّحاً بيديه وقدميه، سُدىً، ضدَّ خصمِه[2].

---

(1) يقول جمال الدِّين محمد بن إبراهيم المشهور بالوطواط (1235- 1318م) في كتابه (مباهج الفكر ومناهج العبر) في طبائع هذا الحيوان: " له أربع خـصي، اثنتان باطنتان، واثنتان ظاهرتان، وفيه أسرار الطبيعـة أنـه إذا رأى الـصيادين له، لأجل الجندبادستر وهو الموجود في انثيه البـارزتين، يجـدُّون في طلبـه قطعهما بفيه، ورمى بهما إليهم، إذ لا حاجة لهم إلا بهمـا فـإن لم يبـصرهما الصيادون وداوموا على الجد في طلبه استلقى على ظهره حيث يـريهم الـدم فيعلموا أنه قطعهما، فينصرفون عنه، وهو إذا قطع الظاهرتين تـبرز الباطنتـان وعوض عنـهما غيرهمـا، والجندبادسـتر بالفارسـية كبـد فعـرِّب، وتفـسيره الخصية، وفي داخل الخصية شبه الدم والعسل، زهم الرائحة سريع التفـرك، إذا جف، ذكر جالينوس أن هذا الحيوان ليس فيه غير الجدنبادستر، وقال أنه يوكر على الأرض، ويولد عليها ويرعى فيها ويهرب إلى الماء، ويعتـصم بـه ويمكنه أن يلبث فيه سابحا زمانا ثم يخرج إلى الهواء".

(2) قال العرب في أمثالِهم: "أحمق مِن جهبر" وهي أنثى الدُّب؛ ولكـن عنـد "أبي الفـرج بـن الجـوزي" الـدُّبُّ رمـزٌ للحكمـة لا للحُمـق، إذ يقـول في كتابـه (الأذكياء): "هرب رجلٌ من أسد فوقع في بئر فوقـع الأسـد خلفـه، فـإذا في البئر دبٌّ، فقال له الأسد منذ كم لك ههنا، قال منذ أيام وقد قتلني الجـوع، فقال له الأسد أنا وأنت نأكل هذا الإنسان وقد شـبعنا، فقـال لـه الـدُّبُّ فـإذا عاودنا الجوع ما نصنع وإنما الرأي أن نحلف له ألا نؤذيه ليحتال في خلاصنا وخلاصه فإنه على الحيلة أقدر منا، فحلفا له، فتشبث حتى وجد ثقباً فوصل إليه ثم إلى الفضاء فتخلَّص وخلَّصهما".

7. **عرفانٌ بالجميل.** يُقال أنَّ فضيلة العرفان هي أكثر تجلِّياً عند الطَّائر المعروف بالهُدهد، والذي بعد أن عرفَ قيمةَ الحياةِ والطَّعام الممنوحَين له من أبوَيه، تراه عندما يتقدَّمان في السِّنِّ، يصنعُ لهما عشَّاً، ويحضنهما، ويُطعمهما، وبمنقاره ينزع عنهما الرِّيش الرَّثَّ والقديم، وبعشبةٍ معيَّنةٍ يعيد لهما رونقهما فيستعيدان إذَّاكَ عافيتهما[1].

8. **بُخل.** العُلجوم[2] يتغذَّى من الأرض، ومع ذلك يظلُّ دائماً نحيلاً لأنَّه لا يأكل كفايتَه؛ مخافةَ أن يفقدَ الأرض.

9. **نكرانُ الجميل.** الحمامُ رمزٌ للنُّكران؛ ذلك أنَّه عندما يبلغُ عمراً لا يعودُ فيه بحاجةٍ إلى مَن يُطعمُه، يبدأ بالاقتتال مع أبيه، وهذا الاقتتال لا ينتهي حتَّى يَطرُدَ اليافعُ الأبَ ويأخذَ أنثاه قرينةً له[3].

---

(1) تكنِّي العرب الهُدهُد بكُنىً منها: أبو الأخبار، وأبو ربيع، وأبو روح؛ وهي تنسب إليه أنَّه يرى الماء في باطن الأرض كما يراه الإنسان في باطن الزُّجاجة؛ انظر "حياة الحيوان الكبرى"، المجلد الثاني. وجديرٌ بالذِّكر في هذا المقام أنَّ منقبة إعالة الوالدين في كبرهما معروفةٌ عند طائر الكركي لا الهدهد، حيث يضرب به المثل في برِّه بأبويه؛ لكن حديثاً، أثبت باحثان من قسم البايولوجيا في جامعة نيومكسيكو، هما J. David Ligon و- Sandra H. Ligon، أنَّ الهدهد من أكثر الطُّيور تعاوناً ومحبَّةً للمساعدة بين أفرادِه، فهو لا يتوانى عن الاهتمام بأفراخ من أعشاشٍ أخرى تابعة لأبناء جنسه.

(2) ضفدع الطِّين، وعند الدُّميري هو الضّفدع الذَّكر.

(3) أمَّا ما يأتي به الدُّميري عن سلوك الحمام أنَّه "إذا باضت الأنثى وأبت الدُّخول على بيضها لأمرٍ ما ضربها الذَّكر واضطرَّها للدُّخول، وإذا أراد الذَّكر أن يسفد الأنثى أخرج فراخه من الوكر".

10. **قَسوة.** عظاءةُ الباسيليسك[1] في غايةِ القسوة، فهي عندما تعجز عن قتل الحيوانات بنظرتِها القاتلة، تتحوَّلُ إلى الأعشاب والنَّباتات، وتثبِّتُ نظرتَها عليها، فتجفِّفُ عروقَها وتُذويها.

11. **كَرَم.** يُحكى عن النَّسرِ أنَّه لا يبلغُ أبداً حدّاً غيرَ محتملٍ من الجوع، ولذلك تراه يترك نصيباً من فريسته للطُّيور التي حولَه، والتي لعدمِ قدرتِها على جلبِ الطَّعام لنفسِها، تكون مرغمةً على تملُّقِ النَّسر، ذلك أنَّها بهذا السُّلوك فقط تنالُ طعامَها.

12. **تأديب.** فيما كان الذِّئب يدورُ بمكرٍ حولَ زريبةِ للماشية، وطأت قدمُه صُدفةً في الشَّرَك، فصَدَرَتْ عن ذلك جلبةٌ كبيرة، ولكي يعاقب نفسَه على هذا الخطأ، قضمَ الذِّئبُ تلك القدم.

13. **إغواءاتٌ أو وعود.** السِّيرَانات[2] يغنِّين بعذوبةٍ وهنَّ يهدهدنَ البحَّارَةَ حتَّى يناموا؛ ثمَّتَ، يصعدنَ إلى المراكب، ويقتلنَ البحَّارَةَ النَّائمين.

---

(1) الباسيليسك أو باسيليسكوس Basiliscus هو نوع من الزَّواحف يتبع لفصيلة Corytophanidae، رتبة Squamata، ويُشتهر بالقدرة على المشي على الماء حيث يُسمَّى أيضاً بـ "عظاءة يسوع المسيح" بالإلاحةِ إلى المقطع 14 : 22-34 من إنجيل متَّى؛ أمَّا حكايةُ دافنشي عن هذه العظاءة فهي مُستقاةٌ من تصوُّرٍ قديمٍ كانت الباسيليسك تمثِّل، وفقاً له، رمزاً للقسوة التي تنبعثُ من نظراتِها، حدَّ أنَّها يمكن أن تحرقَ نفسَها إذا ما نظرت إلى صورتِها في مرآة، وعليه فإنَّه لا سلاح ينفعُ ضدَّها سوى المرآة.

(2) السِّيرَانةُ "La Sirena" هي الاسم الأصل للمخلوق الأسطوريِّ المعروف بحوريَّة البحر؛ وقد ذُكرت السِّيرَانات لأوَّل مرَّةٍ من قِبل هوميروس، وهنَّ اثنتان فقط في قصيدته، أمَّا عند من تلاه من المؤلِّفين فقد يكنَّ أربع أو ثلاث؛ وفي الأسطورةَ أنَّ السِّيرانات كنَّ يسحرن البحَّارة بغنائهنَّ فتجنح مراكبهم على الصُّخور وتتحطَّم حيث يلقون حتفَهم، ولم ينجُ من تلك المراكب سوى سفينتين، هما سفينة أوليس، تلك العائدة من حرب طروادة، وسفينة آرغيون، تلك التي كانت، حسب الأسطورة الإغريقية، تحمل على متنها حوالي خمسين بطلاً بقيادة جايسون.

14. **تبصُّر.** النَّملةُ، ببصيرتِها الغريزيَّة، تستعدُّ في الصَّيف لأجل الشِّتاء، فتقتل البذور التي تجنيها لئلَّا تنبتَ من جديد؛ وعليها تتغذَّى عندما يحين الوقت.

15. **حماقة.** لمَّا كان الثَّور الوحشيُّ يمقتُ اللون الأحمر، كان الصَّيَّادون يلفُّون جذعَ شجرةٍ بقماشٍ أحمر اللون، فيندفع الثَّور نحوَ الجذع بهيجانٍ عظيم، فيتسمَّر إذَّاك قرناه، ويقتله الصَّيَّادون في موضعِه.

16. **عَدل.** يمكن أن نشبِّه فضيلةَ العدل بملكة النَّحل، تلك التي تُدير وتنظِّم كلَّ شيءٍ بحكمةٍ ودراية؛ فبعض النَّحل يؤمَرُ بالخروجِ إلى الأزهار، وبعضه يؤمَر بتأديةِ أعمال الخدمة، والبعض يؤمَر بقتالِ الزَّنابير، والبعض الآخر بِجمعِ القذارات، والآخرِ بملازمةِ وحراسةِ الملكة، وعندما تصير عجوزاً ومن غير أجنحة فإنَّ هؤلاء يحملونها. فإذا ما أخطأ أحدٌ بأداء واجبه، فإنَّه يُعاقَب فوراً ودون إرجاء.

17. **حقٌّ.** بالرَّغم من أنَّ طيور الحجل تسرقُ بيوضَ بعضِها البعض، إلا أنَّ الفراخ التي تخرج من ذلك البَيض تعود دائماً إلى أمَّهاتِها الحقيقيَّات[1].

---

(1) توافق هذه الفكرة كلام الدُّميري في (حياة الحيوان الكبرى) حيث يقول: "ومن طبع الحجل أنَّه يأتي أعشاش نظرائه فيأخذ بيضَها ويحضنه فإذا طارت الفراخ لحقت بأمَّهاتها التي باضتها... والأنثى إذا أصيبَ بيضُها قصدت عشَّ غيرها وغلبتها على بيضِها أو تسرقه وتحضنه". وصفة القصر محبَّبةٌ لدى الحجال؛ قال كثير عزَّة:

وأنتِ التي حبَّبتِ كلَّ قصيرةٍ ... إليَّ ولم تعلم بذاك القصائرُ

عنيتُ قصيراتِ الحجالِ ولم أرِد ... قصار الخطا، شرُّ النِّساء البحاتر

والبحاتر هنَّ القصار الغلاظ.

18. **ولاءٌ أو إخلاص.** طيور الكركي[1] عظيمةُ الولاء والإخلاص لملكِها، ففي الليل، فيما هو نائمٌ، يطوفُ بعضُها حولَ المرعى لكي يراقبَ من بعيد؛ ويمكث البعض الآخر على مقربة، وكلٌ حاملٌ حجراً بقدمه، فإذا غلبَ أحداً منها النُّعاس، سقطَ ذلك الحجر وصنع قرقعةً كبيرة توقظُه من جديد؛ كذلك ثمَّة بعضٌ منها ينامُ سويَّةً حول الملك؛ وعلى هذا المنوالِ يكونُ الأمرُ كلَّ ليلةٍ، في تناوبٍ بينها، حيثُ لا يجد الملكُ نفسَه وحيداً.

19. **خِداع.** عندما يرى الثَّعلب زمرةً من الغربان أو العُقْعُق[2] أو سواهما من تلك الطَّائفة من الطُّيور، يرتمي فجأةً على الأرض وفمُه

---

(1) يكنَّى هذا الطَّائر عند العرب بكُنىً منها: أبو عريان وأبو عينا وأبو العيزار وأبو نعيم وأبو الهيصم؛ وقد ذكرنا في حاشية سابقة ما يتَّصف به هذا الطَّائر من سلوك حسن يتمثَّل في إعالة أبويه إذا كبرا. قارن ما يقوله دافنشي في هذا الطَّائر مع ما جاء في (حياة الحيوان الكبرى) للدُّميري بأنَّ الكركي "... مِن الحيوان الذي لا يصلح إلا برئيس، لأنَّ في طبعه الحذر والتَّحارس في النَّوبة، والذي يحرس يهتف بصوتٍ خفي، كأنَّه يُنذر بأنَّه حارس، فإذا قضى نوبته قام الذي كان نائماً يحرس مكانه حتى يقضي كل ما يلزمه من الحراسة... وفي طبعه التَّناصر... وفي طبعه أن أبويه إذا كبرا عالهما، وقد مدح هذا الخلق أبو الفتح كشاجم مخاطباً لولده:

اتَّخذْ فيَّ خلَّةَ الكراكي	أتَّخذَ فيكَ خلَّةَ الوطواطِ
أنا إن لم تبرَّني في عناءٍ	فبِرِّي ترجو جوازَ الصِّراطِ

ومعنى قوله خلَّة الوطواط، أن يبرَّ ولده فلا يتركه بمضيعة، بل يحمله معه حيثما توجَّه..."؛ ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ الدُّميري انتهى من مسوَّدة كتابِه المذكور سنة 1372 للميلاد، أي قبل ولادة دافنشي بثمانين عاماً.

(2) قال الجاحظ في سبب تسميته عُقعقاً لأنَّه يعقُّ فراخَه فيتركهم بلا طعام، وبهذا يظهر أنه نوعٌ من الغربان لأنَّ جميعها يفعل ذلك.

مفتوحٌ ليوحي لها بأنَّه ميِّت؛ وإذ تدنو الطُّيور لتنقرَ لسانَه، يُطبِقُ هو فمَه على رؤوسِها[1].

20. **كذِب.** للخلِد عينان في غايةِ الصِّغَر وهو يمكثُ على الدَّوام تحتَ التُّراب، ويبقى على قيد الحياة طالما لم يبرحِ الظُّلمة، فإذا خرجَ إلى النُّور ماتَ مِن فورِه، لأنَّه يكون قد كُشِف. وهكذا الكَذِب[2].

21. **بسالة.** لا يعرفُ الأسد الخوفَ أبداً، بل يقاتلُ بروحٍ ضاريةٍ واندفاعٍ عنيفٍ ضدَّ زُمَرٍ من الصَّيَّادِّين، ويحرصُ دائماً على إيذاء مَن

---

(1) قالت العرب: أروغ من ثعلب؛ وقالوا: أذلُّ ممَّن بالت عليه الثَّعالب؛ يُضرَب لمن يُستذَل؛ قال حميد بن ثور:

ألم تر ما بيني وبين ابن عامر … من الودِّ قد بالت عليه الثَّعالبُ
وأصبح صافي الودِّ بيني وبينه … كأن لم يكن والدَّهر فيه عجائبُ

ومن روايات العرب عن دهاء الثَّعلب أن "قيل للشعبي يوماً: يُقالُ في المثل أنَّ شريحاً أدهى من الثَّعلب وأحيَل فما هذا، فقال: خرج شريح أيام الطَّاعون إلى النَّجف فكان إذا قام يصلِّي يجيء ثعلبٌ فيقف تجاهه ويحاكيه ويخيل بين يديه ويشغله عن صلاته، فلما طال ذلك عليه نزع قميصه فجعله على قصبة وأخرج كمَّيه وجعل قلنسوته عليها، فأقبل الثَّعلب فوقف بين يديه على عادته فأتى شريح من خلفه وأخذه بغتة، فلذلك يُقال شريح أدهى من الثَّعلب وأحيَل".

(2) قال أرسطو في كتاب النُّعوت "كلُّ حيوانٍ له عينان إلا الخلد وإنَّما خُلق كذلك لأنَّه ترابيٌّ جعل الله له الأرض كالماء للسَّمك وغذاؤه من بطنها وليس له في ظهرها قوَّة ولا نشاط"؛ وقالت العرب في الأمثال: أسمع من خلد وأفسد من خلد؛ وزعمَ الإمام أبو الفرج بن الجوزي أنَّ الخلد هو الجرذ الذي خرَّب سدَّ مأرب.

يؤذيه أوَّلاً[1].

---

(1) انظر قصَّة الحجَّاج بن يوسف مع جحدر والأسد في باب الليث من المجلَّد الثاني من كتاب "حياة الحيوان الكبرى" للدُّميري؛ وأثبِّت هنا القصيدة التي أنشدَها جحدر لمَّا قتل الأسد، كونَها ناقصةً عند الدُّميري:

يا جمل إنك لو رأيت بسالتي	في يوم هيج مردف وعجاج
وتقدمي لليث أرسف نحوه	عنى أكابره عن الإخراج
جهم كأنَّ جبينه لمَّا بدا	طبق الرَّحا متفجِّر الأثباج
يرنو بناظرتين يحسب فيهما	من ظن خالهما شعاع سراج
شَثِن براثنه كأن نيوبه	زرق المعاول أو شباة زِجاج
وكأنما خيطت عليه عباءة	برقاء أو خَلَق من الديباج
قرنان محتضَران قد ربَّتهما أم	المنية غير ذات نتاج
وعلمت أني إن أبيت نزالة	إني من الحجاج لست بناج
فمشيت أرفل في الحديد مكبلاً	بالموت نفسي عند ذاك أناجي
والناس منهم شامت وعصابة	عبراتهم لي بالحلوق شواجي
ففلقت هامته فخرّ كأنه	أطُمٌ تقوض مائل الأبراج
ثم انثنيت وفي قميصي شاهد	مما جرى من شاخب الأوداج
أيقنت أني ذو حفاظ ماجد	من نسل أملاك ذوي أتواج
فلئن قذفت إلى المنية عامداً	إني لخيرك بعد ذاك لراج
علم النساء بأنني لا أنثني	إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

والثبج من الحيوان هو ما بين الكاهل إلى الظَّهر، والشَّثِن: الغليظ، والشباة: الحد، والزِّجاج بالكسر جمع زُج وهو الحديدة في أسفل الرُّمح، ويعني بالقرنين نفسَه والأسد، والأطُم بضمَّتين: الحصن، والأبراج هنا: الأركان، والأملاك الملوك والأتواج التيجان.

22. **خوفٌ أو جُبن.** الأرنبُ في خوفٍ دائم؛ حتّى أنَّ الأوراق التي تتساقط عن الأشجار في الخريف تُبقيه على الدَّوام مذعوراً، وكثيراً ما تدفعه إلى الهرب[1].

23. **مروءة.** الصَّقر لا يفترس أبداً إلا الطُّيور الكبيرة، ويفضِّلُ الموت على التهام الصَّغير منها، أو التهام اللحم النَّتن[2].

24. **زَهْوٌ فارغ.** بهذه الرَّذيلة، يُتَّهَم الطَّاووس أكثر من أيِّ حيوانٍ آخَر، لأنَّه بَينا يتأمَّلُ في جمالِ ذيلِه، هذا الذي ينشرُه على شكلِ مروحة، يزعقُ ليلفُتَ إليه أنظارَ المخلوقات المحيطةِ به.

وهذه آخرُ الرَّذائل التي يمكنُ الانتصار عليها[3].

---

(1) يشير الدُّميري إلى صفة الخوف عند الأرنب بقوله أنَّ الأرنب "تنام مفتوحة العين، فربَّما جاءها القناص فوجدها كذلك فيظنها مستيقظة"؛ أمَّا الحقيقة فهي أنَّ الأرنب ليس لها جفون إنَّما غشاء لحمي رقيق. ونذكر هنا على سبيل الإفادة أنَّ الجاحظ يعتبر أنَّ كلمة أرنب لا تكون إلا للأنثى، أمَّا المبرد في الكامل فيقول أنَّها تقع على الذَّكر والأنثى وإنَّما يميز باسم الإشارة.

(2) ربَّما يقصد من الصَّقور النَّوع الذي اسمه اللاتيني *Falco Cherrug*، فهذا النَّوع يصطاد طيور الفيزان والبط والحجل والحباري التي تُعتبر كبيرة الحجم، أمَّا أنواع الصَّقريَّات الأخرى فيمكن أن تصطاد طيور أصغر حجماً مثل الشَّاهين *Falco peregrinus* الذي يصطاد الطيور التي بحجم الغراب وما دون، والعوسق الأوراسي *Falco tinnunculuc* الذي يصطاد الحشرات والطُّيور الصَّغيرة، وكذلك طير الجَلَم *Falco colunbarius* الذي يصطاد الطيور الصَّغيرة إضافةً إلى الحمام، وجميع هذه الطُّيور من فصيلة الصَّقريَّات Falconidae.

(3) قالت العرب في الأمثال: أزهى من طاووس وأحسن من طاووس، ويقول الدُّميري أنَّ الطَّاووس في طبعه العفَّة وحب الزَّهو بنفسه والخيلاء والإعجاب بريشه وعقده لذنبه كالطَّاق، لا سيَّما إذا كانت الأنثى ناظرة إليه؛ وهو يرى أنَّه، مع حسنه، من الطُّيور التي يُتشاءم بها.

25. **ثُبُوت.** يمكن أن يُتَّخذَ لصفةِ الثُّبـوت رمـزاً طـائرُ الفينيـق الذي، لعلمِه بأنَّه مبعوثٌ لا محالـة بعـزمِ الطَّبيعـة، تجـدُه يمتلـك الثَّبات على تحمُّل النَّار المُحرِقة التي تُبـدِّدُه، قبـلَ أن ينبعـثَ مـن جديد[1].

---

(1) الفينيق طائرٌ خرافيٌّ يقابلـه عنـد العـرب طـائر العنقـاء؛ وفي رمزيَّتـه الأسطوريَّة يمثِّل هذا الطَّائر الـشَّمس الـتي تمـوت في نهايـة كـل يـوم وتعود لتولد في اليوم التالي؛ وتقول أسطورة الفينيـق أو العنقـاء كمـا ذكرها المؤرِّخ هيرودوت: "هناك بعيداً في بلاد الشرق السعيد البعيـد تُفتح بوابة الـسماء الـضخمة وتـسكب الـشمس نورهـا مـن خلالهـا، وتوجد خلف البوَّابة شجرةٌ دائمة الخضرة؛ مكانٌ كله جمال لا تسكنه أمراضٌ ولا شيخوخة، ولا موتٌ، ولا أعمالٌ رديئة، ولا خوفٌ، ولا حزن؛ وفي هذا البستان يسكن طائرٌ واحد فقـط، العنقـاء ذو المنقـار الطويل المستقيم، والرأس التي تزينها ريشتان ممتـدتان إلى الخلـف، وعندما تستيقظ العنقاء تبدأ في ترديد أغنيةٍ بصوتٍ رائع؛ وبعد ألـف عام، أرادت العنقاء أن تولد ثانيةً، فتركت موطنَها وسعت صوب هذا العالم واتجهت إلى فينيقيا، واختارت نخلةً شاهقة العلو لها قمَّةٌ تصل إلى السَّماء، وبنت لها عشَّاً. بعد ذلك تموت في النار، ومـن رمادهـا يخرج مخلوق جديد، دودةٌ لها لونٌ كاللبن تتحوَّل إلى شرنقة، وتخرج من هذه الـشَّرنقة عنقـاء جديـدة تطـير عائـدةً إلى موطنـها الأصـليٍّ، وتحمل كل بقايا جـسدها القـديم إلى مـذبح الـشَّمس في هليوبـوليس بمصر، ويحيي شعبُ مصر هذا الطائر العجيب، قبلَ أن يعود لبلده في الشرق." ورغم ابتداع أسـاطير مختلفـة حولَـه إلا أنَّ جـوهر الحكايـة واحـد: الطَّـائر الـذي يحيـا فـرداً ويجـدِّد ذاتَـه بذاتِـه منبعثـاً مـن وسطِ رمادِه.

26. **تقلُّب.** لعلَّ السُّنونو تلائمُ لصفةِ التَّقلُّب؛ فهي دائماً في حركة، ذلكَ أنَّها لا تطيقُ أدنى مُضايَقة[1].

27. **زُهد.** الجملُ أقوى الحيوانات شهوةً، إذ يمكن أن يلحقَ بالأنثى لألوفِ الأميال؛ لكن اتركْه على الدَّوام مع أمِّه أو أخواتِه، تَرَه لا يمسس واحدةً منهنَّ أبداً؛ ذلك أنَّ في طبعه العفَّة[2].

---

(1) في موسوعة الطَّير والحمام لعبد المعين الملوحي أبياتٌ كثيرة في وصف السُّنونو لعلَّ أجملها قصيدة لأبي هلال العسكري يقول فيها:

وزائرة في كل عام تزورنا — فيخبر عن طيب الزمان مزارُها
تخبّر أنَّ الجوَّ رقَّ قميصُه — وأنَّ الرِّياض قد توشَّى إزارها
وأنَّ وجوه الغُدر راق بياضها — وأنَّ وجوه الأرض راع اخضرارها
تحنُّ إلينا وهي من غير شكلنا — فتدنو، على بعدٍ من الشكل، دارُها
فيعجبنا وسط العراص وقوعُها — ويؤنسنا بين الدِّيار مطارُها
أغارَ على ضوء الصباحِ قميصُها — وفاز بألوان الليالي خمارُها
تصيح كما صرّت نعالُ عرائس — تمشت إليها هذرها ونوارها
تجاورنا حتى تشبّ صغارُها — وتفضي لبانات النفوس كبارُها

وفي المجلد الثاني من حياة الحيوان الكبرى للدُّميري نقرأ هذين البيتين لجمال الدِّين بن رواحة في تشبيه السُّنونو:

وغريبةٌ حنَّت إلى وكرٍ لها — فأتت إليه في الزَّمان المقبلِ
فرشت جناحَ الأبنوس وصفقت — بالعاج ثمَّ تقهقهت بالصَّندلِ

أمَّا الجاحظ فلم يأتِ على ذكر السُّنونو في كتابه "الحيوان".

(2) شبَّهت العرب الخَطيب المتحمِّس بالجمل الهادر، ومعروفٌ أنَّ الجمل عندما يهيج يصبح عصبيَّ المزاج ويظهر الزَّبد من أطراف فمه، وتزداد قوَّته فيحمل ثلاثة أضعاف ما يحمله عادةً، وتخرج من فمه الهدارة وهي كغشاءٍ أحمر اللون يخرج من شدقه على شكل الرئة، والفحل الهائج يلحق بالنَّاقة حتى تستجيب وتركع؛ وجاء في "مباهج الفكر ومناهج العبر" للوطواط عن طبائع الإبل أنَّ في الجمَل من كريم الطِّباع أنَّه لا ينزو على أمهاته ولا أخواته، ومتى حُمل على أن يفعل حقد على من يُلزمه ذلك حتى يقتله.

28. **إفراط**. وحيدُ القرن، لفرطِ شبقِه وعدمِ معرفته كيف يلجمُ نفسَه، ولِما يحملُ في قلبه من عشقٍ كبيرٍ للجنس اللطيف، تَراه ينسى وحشيَّته وشراستَه، وتهدأُ نفسُه حيالَ الفتاة العذراء، ويمضي للنَّوم في حِضنها؛ وبهذه الطَّريقة يتمكَّن منه الصيَّادون[1].

29. **خضوع**. أعجبُ مثالٍ في الخضوع نجده عند الحَمَل الذي يمكن أن يذعنَ لأيِّ حيوانٍ آخَر؛ فعندما يؤتى به طعاماً إلى الأسود الأسيرة، تَراه يخضع لها بلَطف خضوعَه لأمِّه، حتَّى أنَّك كثيراً ما ترى الأسود تتحاشى [رفقاً به] أن تقتُلَه.

30. **استعلاء**. الصَّقرُ، بسبب غطرسته وخُيلائه، يريدُ بسطَ سيادته على جميع الطُّيور الأخرى التي يفترسُها وقَهرَها، وهو يتوقُ إلى الفرادةِ والسُّموِّ؛ وكثيراً ما تَرى الصَّقرَ يُهاجم العقابَ، ملكَ الطُّيور.

31. **صَوم**. عندما يرِدُ حمارُ الوحش النَّبعَ لكي يشرب، ويجدُ الماءَ عكراً، فإنَّه يُحجم عن الشُّرب مهما بلغ منه العطش، وينتظرُ حتَّى يروقَ الماءُ ويصفو.

32. **نَهَم**. النَّسرُ عبدٌ للشَّراهة، فهو قد يقطعُ ألوف الأميال ليقتاتَ على جيفة؛ لذلك تراه يقتفي الجيوش.

33. **طهارة**. القُمريُّ لا يَخونُ شريكَه أبداً، فإذا مات أحدهما، مكثَ الآخرُ في حداد أبديٍّ، فلا يحطُّ من بعدِه على فَرعٍ أخضر ولا يشربُ من ماءٍ رائقٍ[2].

---

(1) في التَّصوُّرات القديمة أنَّ هذا الكائنِ الخرافي يحبُّ أن يريح رأسَه على صدور العذارى، وبهذه الطَّريقة فقط يتمكَّن الصيَّادون منه؛ وفي التَّصوُّر المسيحي أنَّه لا يمكن ترويضُه إلا على يد فتاة عذراء، وهو بذلك إنَّما يرمز إلى النَّقاء.

(2) القمريُّ أو القماريُّ أو طائر الكريم، هو طائر من فصيلة الحمام، كنيته أبو ذكرى وأبو طلحة. قال القزويني: "إذا ماتت ذكور القماري لم تتزاوج إناثها بعدها وتنوح عليها إلى أن تموت".

34. **فجور.** الخفَّاشُ، بسببِ شبقِه الجامحِ، لا يُراعي العُرفَ الكونيَّ في التَّزاوج، بل يكون الذُّكور مع الذُّكور، والإناث مع الإناث، في الجِماع.

35. **اعتدال.** القاقم معتدلٌ في طعامِه، فلا يأكل أبداً أكثر من مرَّةٍ في اليوم؛ وهو يؤثِر الاستسلام لمطارديه على اللياذِ بوِجارٍ قذِرٍ؛ مخافةَ أن يلطِّخَ نقاءه[1].

35. bis. **الاعتدال يكبحُ جميع الرَّذائل.** القاقم يؤثِرُ الموتَ على التَّبقُّع.

36. **العُقاب.** العُقاب، عندما يتَّقدَّم به السِّنُّ، يحلِّقُ عالياً جدّاً إلى أن يحترقَ جناحاه، وإذ تأذَن له الطَّبيعةُ بتجديد شبابِه، يهوي في المياه الضَّحلة[2]. وإن عجزتْ صغارُه عن التَّحديق في الشَّمس، فإنَّه لا يُطعمُها من أيِّ طيرٍ لا يرغب بالموت[3]. الحيوانات التي تهابُه لا تقتربُ من عشِّه، مع أنَّه لا يؤذيها. هو دائماً يترك وراءَه جزءاً من فريستِه.

37. **لُوميريا: الصِّيت.** يوجدُ هذا [الطَّائر] في آسيا العُظمى، وهو يُشعُّ بنورٍ باهرٍ حدَّ أنَّه يمتصُّ ظلَّه، وإذا ماتَ فإنَّه لا يفقدُ هذا البريق، ولا يتساقط ريشُه أبداً؛ لكن إذا ما استُلبتْ ريشةٌ منه فإنَّها تكفُّ عن السُّطوع[4].

---

(1) القاقم أو الهِرمِلين، حيوانٌ من فصيلة ابنِ عرس Mustelidae، يتميَّز بلون فرائه الشَّتوي النَّاصع البياض والباهظ الثَّمن. أتى الدُّميري على ذكرِه بأنَّه دويبة تشبه السِّنجاب؛ أمَّا ملاحظة دافنشي حول سلوك هذا الحيوان ونسب صفة الاعتدال إليه ففيها مغالطةٌ لأنَّ القاقم، كمثل ابن عرس وسائر أنواع فصيلتِه، حيوانٌ متعطِّشٌ للدِّماء، يقتلُ أكثر ممَّا يأكل.

(2) المعنى غامض.

(3) المعنى غامض.

(4) يشبِّه دافنشي هذا الطَّائر الخرافي، اللوميريا، بالصِّيت الطَّيِّب الذي يبقى ساطعاً حتَّى بعد موتِ صاحبِه، ولا أحد يستطيع اغتصابَه.

38. **البجع.** هذا الطَّائرُ يحملُ حبَّاً كبيراً لصغارِه؛ فإذا وجدَهم في العشِّ جثثاً هامدةً من لدغِ أفعى، طعنَ نفسَه [بمنقارِه] جهةَ القلب، وراحَ، بدمائه الغزيرة، يُمطِرُهم حتَّى يعودوا إلى الحياة[1].

39. **السَّمندل.** ليس لهذا [الكائن] جهازُ هضمٍ، وهو لا يستطيبُ من الطَّعام غيرَ النَّار، وبالنَّار يجدِّدُ جلدَه الحرشفيَّ على الدَّوام.

السَّمندلُ في النَّار يجدِّدُ جلدَه الحرشفيَّ: تطهُّراً[2].

40. **الحرباء.** تعيشُ هذه على الهواء ولذلك فهي فريسةٌ لجميع

---

(1) لقصَّة دافنشي هذه، في رأيي، منحىً ديني فهي تبدو مبنيَّةً على أسطورةٍ مسيحيَّةٍ قديمة تشبِّه البجعة بالمسيح، وفحواها أنَّ البجعة تتغذَّى على أشياء كثيرة من بينها الأفاعي فيغدو دمها ترياقاً مذهلاً ضدَّ السُّم، وعندما ترى صغارَها مهدَّدين بالموت بسبب لدغة أفعى، فإنَّها تقف فوق صغارها وتنقرُ على جنبها حتَّى ينزف الدَّم من الجرح فتسقط قطراتٌ منه في أفواه الصِّغار الذين حالما يتلقون الدَّم الحاوي على التِّرياق يحيون وينجون. وهكذا كان عندما لدغت الأفعى الأولى الإنسان في الفردوس بسمٍّ من نوعٍ مختلف هبط بسببه إلى الأرض وفقدَ الخلود ليعرفَ بدلاً منه الموت، فكان لا بدَّ له مِن ثمَّ من ترياقٍ يشفيه، فجاء المسيح ليقدِّم له هذا التِّرياق مِن على الصَّليب.

(2) هذا الاعتقاد الخاطئ كان سائداً جداً في الماضي، فالدُّميري، شأنه شأن دافنشي، يقول: "ومن عجيب أمر السَّمندل استلذاذه بالنَّار ومكثه فيها، وإذا اتسخ جلده لا يغسل إلا بالنَّار"، وقال القزويني: "السَّمندل نوعٌ من الفأر يدخل النَّار"؛ كما استخدمه القدِّيس أوغسطين مثالاً ليبيِّن من خلاله أنَّ لحم الخطأة يستطيعُ احتمالَ النَّار الأبديَّة. أمَّا الحقيقة فهي أنَّ السَّمندل حيوانٌ من رتبة البرمائيَّات المذنَّبة، له قدرة عجيبة على تعويض أعضائه المبتورة بما فيها الكبد والعين والأسنان، ومن أنواعه النَّادرة السَّمندل النَّاري ذو اللون الأحمر النَّاري المنقَّط بالأسود، وربَّما بسبب هذا اللون نشأ ذلك الاعتقاد.

الطُّيور[1]؛ ولكي تتفلَّت منها فإنَّها تطيرُ عالياً فوقَ الغيوم إلى حيثُ يتخلخلُ الهواء فلا يعود قادراً على حمل الطَّير الذي يتبعُها.

ذلك الارتفاع لا يبلغُه إلا مَن خصَّته به السَّماء؛ وهناك تحلِّق الحرباء[2].

41. **سَمَكُ أَلِبوسيفالوس.** الألِبوسيفالوس لا يعيش خارجَ الماء.

42. **النَّعام.** هذا الطَّائر قادرٌ أن يحوِّل الحديد إلى غذاء، وأن ينقفَ بلمحةٍ بيوضَه؛ سلاحُ القادةِ غذاءٌ لهم[3].

43. **الإوزّ.** الإوزُّ أبيض لا تَسِمُ بياضَه شائبة، وهو يغنِّي بعذوبةِ ساعةَ موتِه، وبذلك الغناء يختتمُ حياتَه[4].

---

(1) كان سائداً في الماضي الاعتقاد بأنَّ الحرباء تتغذَّى على الهواء ولذلك فهي لا تأكل.

(2) كان للحرباء رمزيَّةٌ خاصَّة في أوَّل نشوء المسيحيَّة حيث كانت تُعتبَر رمزاً للشَّيطان، وذلك لأنَّ إبليس كالحرباء قادرٌ على تغيير الهيئة التي يظهر بها للإنسان لكي يضلِّله؛ فطيرانُ الحرباء هنا ليس إلا مجازاً يُراد به التَّحوُّل الذي يمكِّنُ من التَّفلُّت، وكأنَّ إبليس عند دافنشي هو ابنُ السَّماء المخصوص بموهبة التَّحليق.

(3) معروفٌ أنَّ النَّعامة طائرٌ ملقاط، حيث يلتقط ويبتلع الكثير من الأشياء الغريبة وخاصَّةً اللامعة مثل المعادن والعملات المعدنيَّة والمسامير والزُّجاج، وفي بعض الحالات يقدِّم الآباء المساعدة للفراخ بنقف قشرة البيض من الخارج لمساعدتها على الفقس. وقد قال الدُّميري عن النَّعامة أنَّها "تبتلع العظم الصَّلب والحجر والمدر والحديد فتذيبه وتميِّعه كالماء"، والمَدَر في اللغة قطع الطِّين اليابس.

(4) وصف أبو نوَّاس غناءَ الإوزِّ حيث قال:

كأنَّما يصفرن من ملاعق ... صرصرة الأقلامِ في المهارق

انظر كتاب (مباهج الفكر ومناهج العبر) للوطواط، فصلُ القول في طبائع الإوز.

44. **اللقلق.** هذا الطَّائر، بِشُربِه المياه المالحة يطهِّر نفسَه من الهوام[1]؛ وإذا ما لمسَ الذَّكرُ شيئاً من عدم الإخلاص عندَ شريكته، فإنَّه يهجرُها؛ وعندما يتقدَّم به السِّنُّ تحتضنُه ذرِّيَّتُه، وتواظبُ على إطعامِه حتَّى يموت.

45. **الجُدجُد.** يُخرِسُ الوقواقَ بغنائه. يموتُ بالزَّيت وينتعشُ بالخلِّ. يغنِّي في ذروةِ الحرِّ.

46. **الخفَّاش.** هذا المخلوق، حيثُما يكون الضَّوءُ أقوى، يكون أشدَّ عماءً؛ وكلَّما طال نظرُه إلى الشَّمس، ازدادَ بصرُه انخطافاً.

كذلك الرَّذيلةُ لا تستطيعُ الإقامةَ حيث تكونُ الفضيلة.

47. **الحَجَل.** هذا الطَّائر يتحوَّل من أنثى إلى ذكر وينسى جنسَه السَّابق؛ وبدافعِ الحسَد يسرقُ بيضَ نظرائه وينقفُه، غيرَ أنَّ الصِّغارَ متى خرجت لحقت بأمَّهاتِها.

48. **الخُطَّاف.** هذا الطَّائر يضيءُ، بنبتةِ عروق الصَّباغين، بصرَ فراخِه العمياء[2].

---

(1) قال القزويني في (الأشكال) نقلاً عن ابن سينا أنَّه ممَّا يتوصَّل به إلى طرد الهوام اتِّخاذُ اللقلق، فإنَّ الهوام تهرب من مكانٍ هو فيه لفزعها منه وإذا ظهرت قتلَها.

(2) يُسمَّى هذا النَّبات أيضاً بقلة الخطاطيف، ويعود ذلك إلى الاعتقاد القديم القائل بأنَّ طيور الخطاطيف تضع عصارة هذا النبات على عيون صغارها لتقوِّي بصرها، ولذلك استخدمه الإنسان منذ آلاف السِّنين لعلاج البصر؛ ويقول عنه ابن سينا أنَّ "عصارته نافعة جداً في تحديد البصر وجلاء ما قدام الحدقة من الماء والبياض"؛ لكن في القرن التاسع عشر اختبر البريطاني نيكولاس كليير هذا الأمر بوضع العصارة السائلة للنبات على عيون طيور الخطاطيف الصَّغيرة ليرى إن كان ذلك يحسِّن بصرَها، فلم يخلُص إلى نتيجةٍ مُرضية حول ذلك الادِّعاء.

49. المَحار: عن الخيانة. هذا المخلوق، متى اكتملَ القمر، انفتحَ عن آخِرِه؛ وما إن يراه السَّرطانُ حتَّى يرمي في جوفه حصاةً أو شيئاً من حشيش البحر فلا يعود المحارُ قادراً على الانغلاق من جديد، ويغدو طعاماً لذلك السَّرطان.

هذا ما يحصلُ لمن يفتحُ فمَه ليبوحَ بسرِّه؛ يغدو فريسةَ المُستمعِ الخؤون.

50. الباسيليسك: قَسوة. تفوقُ الباسيليسك ضراوةً جميعَ الأفاعي؛ غير أنَّ ابن عرس يُهاجمُها بنبات الحرمل، ويقتلُها.

نبتةُ الحرمل قوَّةٌ مُضمَرة[1].

---

(1) أشار الباحث التَّاريخي وعالم الآثار الفرنسي لويس شاربونو- لاساي (1871-1946م) في مؤلَّفه "Le Bestiaire du Christ" إلى أنَّ القدماء انتبهوا إلى فضل ابن عرس في تخليصهم من الجرذان والأفاعي وفئران الحقول، لذلك حيكت حولَه الحكايا والأساطير، فالقاصُّ الروماني فيدروس (15 ق.م- 50م) يؤكِّد هذا الأمر في حكاياته، وكذلك أرسطو الذي يقول: "إنَّ ابن عرس لا يهاجم الأفاعي إلا بعد تناوله نبتة الحرمل كإجراءٍ وقائي، ذلك أنَّ رائحتها لا تطيقُها الأفاعي"، ويضيف لاساي أنَّ بلينيوس يشير في موضعين من مؤلَّفه الضَّخم "التاريخ الطَّبيعي" إلى أنَّ الباسيليسك التي تُعتبَر أكثر الزَّواحف ترويعاً على الإطلاق تجد في ابن عرس خصماً لها لا يُقهَر، وأنَّ مرارة هذا الحيوان دواءٌ ناجعٌ لجميع اللدغات السَّامَّة؛ وبحسب لاساي فإنَّ جميع رمزيِّي المسيحيَّة القدماء قد تطرَّقوا إلى الصِّراع بين الباسيليسك وابن عرس، حيث ينتصرُ الحيوان الصَّغير في هذا الصِّراع على أعظم الوحوش ويقتله مقدِّماً حياته أضحيةً في سبيل ذلك، ويستشهد لاساي بالفيلسوف الإيطالي "برونتُّو لاتيني" (1220-1294م) الذي يقول: "مهما عظُمتْ قوَّةُ الباسيليسك، فابن عرسٍ قادرٌ على قتلها"، وفي ذلك كما يقول لاساي رمزٌ إلى المخلِّص الذي بموته على الصَّليب إنَّما يغرزُ سهماً قاتلاً في صدر الشَّيطان. وقد بقي هذا الاعتقاد سائداً حتَّى في زمن الطَّبيب الفرنسي "أمبرواز باريه" (1510-1590م) الذي يقول معقِّباً على بلينيوس: "يملك ابن عرس قوَّةً على الباسيليسك بقدر ما تملك هذه من القوَّة على البشر". أمَّا عن دور نبات الحرمل في هذا الصِّراع فتجدر الإشارة إلى أنَّ هذا النَّبات لطالما اعتُبِرَ في الطبِّ الشَّعبي ترياقاً ضدَّ لدغ الأفاعي وجميع السُّموم.

51. **الآسبيس.** تحملُ هذه الأفعى في أنيابِها الموتَ الفوريَّ؛ ولكي لا تُصغي إلى السَّاحر فإنَّها تطوِّقُ أذنَيها بذيلِها[1].

52. **عظاءةُ التِّنِّين.** يورِّطُ هذا المخلوقُ نفسَه بينَ أقدامِ الفيلِ الذي لا يلبث أن يقعَ عليه، فيموت إذَّاكَ الاثنان. الفيلُ، بموتِه، يصنعُ انتقامَه[2].

---

(1) أطلقتْ تسمية آسبيس فيما بعد على أفعى الصِّل. أمَّا قديماً فكان يُعتَقَد أنَّ الآسبيس، والتي من أسمائها أيضاً هيموروِيس وهيناليس، تتجنَّب إغواء الموسيقى بضغط إحدى أذنيها على الأرض وسَطمِ الأذن الأخرى بذيلِها، وهي بذلك إنَّما ترمز إلى الشَّخص الماديِّ والمترف الذي يبقي إحدى أذنيه على الرَّغبات الأرضيَّة، بينما الأذن الأخرى موصدةٌ بالخطايا. ويُعتبر القدِّيس أوغسطين (354-430 م) أوَّل من عبَّر عن هذه الفكرة من منظورٍ ديني، حيث قال: "حتَّى لو كان حقيقةً ما يُقال عمَّا تفعله الآسبيس عندما تُتلى عليها التَّعاويذ، بأنَّها تلجأ إلى ضغطِ إحدى أذنيها على الأرض وتستعمل ذيلَها لتسدَّ الأذن الأخرى لكي لا تُسحَبَ من جحرِها، فالمعوِّذ قادرٌ رغم ذلك على سحبِها خارجاً". ونشير هنا إلى أنَّ بعض الروايات تصوِّر الآسبيس على أنَّها تحرس شجرةً تُدرُّ بلسماً شافياً، ولكي يحصل الرِّجال على هذا البلسم ينبغي عليهم أوَّلاً أن يعزفوا أو يغنُّوا للآسبيس لتنام؛ فيما تقول رواياتٌ أخرى أنَّ في رأسِ الآسبيس حجراً نفيساً ينبغي على السَّحَرة إذا ما أرادوا الحصول عليه أن يتلفَّظوا بكلمات محدَّدة في أذن الآسبيس.

(2) يبدو أنَّ هذه العظاءة مخلوقٌ خرافيٌّ لأنَّ دافنشي يجعل لها أجنحةً في فقرةٍ لاحقة؛ انظرْ المقطع الأخير من الفقرة (62) من هذا الباب، والأهمُّ من هذا أنَّ دافنشي يقتبس فكرة هذه الفقرة من مؤلَّف "التاريخ الطَّبيعي" للكاتب اللاتيني بلينيوس (23-79م) الذي يقول في الفصل 34 حولَ القتال بين الأفيال والتَّنانين: "إنَّ دم الفيَلَة باردٌ للغاية، ولذلك عندما يشتدُّ الحرُّ تهاجمُها التَّنانين. تبقى التَّنانينُ غائصةً في الأنهار، من أجلِ أن تغدرَ بالفيلةِ وهي تشرب، حيث تتلوَّى مُحكمةَ القبض على خراطيمها، وتحاولُ قضمَ آذانِها. التَّنانين هائلةُ الحجم. فهي تمتصُّ دم خصومِها بالكامل، وهكذا تصبحُ الفيلةُ جوفاء، وتسقط أرضاً مثل جلودٍ مجفَّفة. والتَّنانين بدورِها، وقد ثملت بالدِّماء، تُسحَقُ وتموتُ معها".

53. **الأفعى القرناء.** تفتح هذه الأفعى فمَها أثناء الجِماعِ، لتُطبِقَ في النِّهاية أنيابَها على شريكِها وتقتلَه؛ ثمَّ يكبر صغارُها داخلَ جسدِها إلى أن يمزِّقوا بطنَ أمِّهم ويقتلوها.

54. **العقرب.** لُعابُ الصَّائم، إذا ما تُفِلَ به على عقربٍ قتلَه.

ومثل ذلك فإنَّ الانتهاء عن الشَّره يرفعُ ويشفي جميع الأمراض التي منشؤها البِطنة، وهو يفتحُ مسالكَ العفَّة[1].

55. **التِّمساح: مُراءاة.** هذا الحيوان ينقضُّ على الإنسان ويقتله في الحال؛ ثمَّ بعدَ موتِه ينتحبُ عليه بصوتٍ متفجِّعٍ ودمعٍ غزير؛ وإذ يفرغُ من عويلِه، يلتقِمُه بوحشيَّة.

وذا هو شأنُ المُرائي الذي يُغرِقُ وجهَه بالدُّموع لأتفه الأشياء فيما قلبُه مُفعَمٌ بالقسوة كقلبِ نمرٍ، وتَرى وجهَه كذلك مُترَعاً بالشَّفقة فيما هو مبتهجٌ في أعماقِه لمصائب الآخرين[2].

56. **ضفدعُ الطِّين.** هذا المخلوق يتحاشى ضوءَ الشَّمس، وإذا ما أرغِمَ بالقوَّة على المكث فيه فإنَّه ينفخُ نفسَه قدرَ المُستطاع لكي يُخفي رأسَه في الأسفل ويتَّقي تلك الأشعة.

هكذا يفعل من هو خصمٌ للفضيلة النقيَّة والمضيئة، هذا الذي لا يُمكنُ أن يواجهَها إلا كُرهاً وبروحٍ منتفخة.

---

(1) هل كان دافنشي مطَّلعاً على كتاب (القانون في الطب) لابن سينا (980 ـ 1037م) حيث يذكر هذا في الجزء الثالث منه، في "فصلٍ في طردِ العقارب وقتلها"، أنَّ العقارب يقتلها تفل الصَّائم الحار المزاج عليها" (؟).

(2) يقول الدُّميري أنَّ التِّمساح اسمٌ مشتركٌ بين الحيوان المعروف والرَّجل الكذَّاب.

57. **اليرقة: عن الفضيلة عموماً.** اليرقةُ التي بدأبِ مثابرٍ تحوكُ حول نفسِها مسكناً جديداً ينمُّ عن صنعة بديعةٍ ورفيعة، تَراها تخرجُ من ذلك المسكن بعد حينٍ وقد تزيَّنتْ بأجنحةٍ مزخرفةٍ وفاتنة، ترتفعُ بها نحوَ السَّماء.

58. **العنكبوت.** العنكبوتُ يولِّدُ من ذاته الشَّبَكةَ الرَّقيقةَ والبديعة التي تعودُ عليه من ثمَّ بالفريسةِ المُلتقَطَة[1].

59. **الأسَد.** هذا الحيوان، بزئيرِه الرَّاعد، يُنهِضُ صغارَه في اليوم الثَّالث من ولادتِهم، موقِظاً فيهم كلَّ حواسِّهم النَّائمة، فتلوذُ إذَّاكَ جميعُ ضواري الغابة بالفرار[2].

يمكن تشبيه ذلك بأبناءِ الفضيلة الذين يوقظُهم صوتُ الثناء وترفعُهم تأمُّلاتُهم النَّبيلة، والتي بها يتسامون أكثر فأكثر؛ بينما يفرُّ كلُّ ما هو دنيءٌ وحقيرٌ من رهبةِ ذلك الصَّوت، تحاشياً لكلِّ ما هو سامٍ وعفيف.

---

(1) في الورقة الأصليَّة ثمَّةَ حاشيتان أسفل هذه الفقرة. الأولى: "لا شيء يثير الخوف كما الصِّيت القذِر"؛ وهي تكرارٌ للجملة الأولى من الفقرة (51) التي وردت في الباب الأوَّل.
الثَّانية: "ما أشقى الهروب مع سمعة بالكادِ تُبطِنُها..." وهي مكتوبة بقلم طباشير أحمر ومن الواضح أنَّها عبارةٌ ناقصة.

(2) جاء في (مباهج الفكر ومناهج العبر) للوطواط عن الأسد أنَّ أصحاب الكلام في طبائع الحيوان يقولون: "إن اللبوة لا تضع إلا جرواً واحداً وتضعه بضعةَ لحمٍ ليس فيها حسٌّ ولا حركة، فتحرسه من غير حضان ثلاثة أيام ثم يأتي أبوه ذلك فينفخ في تلك البضعة المرة بعد المرة حتى تتحرك، وتتنفس فتنفرج الأعضاء، وتتشكل الصُّورة ثم تأتي أمه فترضعه، ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام من تخلقه...".

من جهةٍ أخرى، يواري الأسدُ آثارَ أقدامِه، فلا يستطيع أعداؤه معرفةَ الطَّريقَ التي سلكَها[1]. وهكذا يفعلُ القائد إذ يتكتَّمُ على أسرار عقلِه، فلا يستطيع العدوُّ كشفَ مآربِه.

60. **الرُّتَيلى**. لدغةُ الرُّتيلى تثبِّتُ الإنسان على تصوُّرٍ عقليٍّ واحد، أي على ما كان يفكِّرُ به عندما لُدِغ[2].

61. **الصَّدى والهامة**[3]. يعاقبُ هذان الطَّائران مَن يهزأ بهما بنَقرِ عينَيه؛ فهذا ما أمرتْهما به الطَّبيعة، لكي يأكلا.

62. **الفيل**. يمتلك الفيل الضَّخم بطبيعتِه ما يندرُ وجودُه عند البشر، ألا وهو الاستقامة، الرُّشد، اعتدالُ الطِّباع، ومراعاةُ الشَّعائر؛[4] فعندما ينبعثُ القمرُ من جديد تنزلُ الفيلةُ إلى الأنهُر،

---

(1) قال الجاحظ في معرضِ حديثه عن الأسد: "وإذا شمَّ رائحة الصَّيادِّين عفا أثرَه بذنبِه..."، وقال أبو الطَّيِّب المتنبِّي يصف لين مشيته: "يطأ الثَّرى مترفِّقاً من تيهه فكأنَّه آسٍ يجسُّ عليلا"
والآسي: الطَّبيب.

(2) قال خلف الأحمر يدعو على رجلٍ بالرُّتيلى:

ابعث له يا ربُّ ذات أرجلِ	في فمها أحجن مثل المنجلِ
دهماءَ مثل العنكبوت المُحولِ	تأخذه من تحتِه ومن عَلِ

انظر كتاب (نور القبس) للمرزباني.

(3) نوعان من البوم.

(4) قال المسعودي (896- 957م) في (أخبار الزَّمان) أنَّ الفيل "أسرع الحيوان الوحشيِّ أنساً بالنَّاس، وسرعة الأنس دليلٌ على حسن الطِّباع واعتدال الأخلاط ودماثة الأخلاق"، وقد وصف عمرو بن بحر الجاحظ الفيل في كتاب الحيوان فأغرق في وصفه وأكثر في مدحِه؛ وقد ثبت علميَّاً أنَّ للفيلة شعائرها، فعند الموت يُظهر أفراد العائلة علامات الحزن، حيث تغطِّي الجثة بالتُّراب والحشائش، وقد ترجع لزيارة الرفات لأشهر وحتى لسنوات، وتلامسه بخراطيمها، وتخطُّ مسالك لزيارته.

وهناك تغتسلُ بجلالٍ ومهابة، مطهِّرةً أنفسَها من كلِّ رجزٍ، ثمَّ تعودُ إلى الأدغال وقد قدَّمت طقسَ التَّرحيب للكوكبِ السَّيَّار. وعندما تمرض، أو تفترُ همتُّها، فإنَّها ترمي الأعشاب نحوَ السَّماء، كما لو أنَّها تقدِّمُ قرباناً. وهيِ، كذلك، تواري أنيابَها العاجيَّةَ الثَّرى عندما تسقطُ هذه بسبب الهرَم. أمَّا النَّابان، فواحدٌ تستخدمُه لاقتلاع الجذور التي تقتاتُها، والآخرُ تحتفظُ برأسه حادّاً لأجل القتال؛ وإذا ما تغلَّب عليها الصَّيَّادون ونال منها التَّعب، فإنَّها تقتلع أنيابها المدفونة وتفتدي بها أنفسَها. إنَّها رؤوفةٌ، وتتنبَّأ بالمَهلَكة، فإن رأى أحدُها إنساناً وحيداً وتائهاً، فإنَّه يردُّه بلطفٍ إلى الدَّرب التي ضلَّ عنها؛ وإن هو رأى أثرَ قدمِ الإنسان قبل أن يرى الإنسان نفسَه، فإنَّ الهلعَ يتملَّكُه أن يؤخذَ ذلك الإنسان غدراً، ولذلك تجده يقفُ عند ذلك الأثر وينفخُ ليدلَّ أقرانَه عليه، فيشكِّلُ هؤلاء زمرةً تتحرَّك بحذرٍ. لا تسيرُ الفيلةُ إلا في جماعاتٍ، حيث يمضي الفردُ الأكبر سنّاً في المقدمة، بينما يحرص الذي يليه في المرتبة العمريَّة على البقاء في المؤخرة، فيُغلقان بهذا حلقةَ الجماعة. والفيلةُ، لحيائها البالغ، لا تتزاوجُ إلا في الليل، وخفيةً، ولا تعودُ بعد الجِماع إلى قطيعها إذا هي لم تغتسل في النَّهر أوّلاً. وعندها لا يتصارعُ الذُّكور على الإناث كما عند سائر الحيوان، بل هي في غايةِ الرِّقَّة، وطبيعتُها هذه لا تسمح لقويِّها بأن يؤذي ضعيفَها[1]؛

---

(1) يتناقض هذا مع قول المسعودي بأنَّ فيه، أي في الفيل، من الأخلاق أنه يقاتل بعضه بعضاً قتالاً شديداً، والمقهور يخضع للقاهر ويخاف من سطوتِه؛ أمَّا الحقيقة العلميَّة فهي أقرب إلى ما يقوله دافنشي حيث ثبت أنَّ الفيلة قليلاً ما تتعارك، ذلك أنَّ صغارها تعرف بالفطرة أنَّ عليها طاعة الكبار، وهي تُربَّى في أسرة تتزعَّمها إناث حنونة وراعية تشمل الأم والأخوات والعمات والخالات وبنات العمات والخالات والجدَّات والصَّديقات المقرَّبات، كما تبيَّن أنَّ دماغ الفيل يزخر بعصابين متخصِّصة تُعرَف بالخلايا المغزليَّة التي تُعتبَر مسؤولةً عن الوعي الذَّاتي والتَّعاطف والوعي الاجتماعي لدى البشر.

وإذا اعترضَ طريقَها قطيعٌ من الماشية، فإنَّها تزيحُه جانباً بحركةٍ لطيفةٍ من خرطومِها لكي لا تطأه بأقدامِها، وهي لا تبادر أبداً بأذية أحد ما لَم تُحمَل كُرهاً على ذلك(1).

وحين يقعُ أحدها في حُفرةٍ، يهرع الآخرون لملء الحفرةِ بالأغصان والحجارةِ والتُّراب، فيرفعون بذلك القعرَ ليسهُلَ على الفيل العالقِ الخروج. والفيلةُ ترتعدُ فزعاً من زعيق الخنازير وتفرُّ عند سماعهِ

---

(1) قال الدُّميري في باب الفيل من حياة الحيوان الكبرى، ج2: "في الحلية في ترجمة أبي عبد الله القلانسي أنه ركب البحر في بعض سياحاته فعصفت عليهم الريح فتضرَّع أهل السفينة إلى الله تعالى ونذروا النذور إن نجاهم الله تعالى، وألحوا على أبي عبد الله في النذر فأجرى الله على لسانه أن قال: إن خلَّصني الله تعالى ممَّا أنا فيه لا آكل لحم الفيل، فانكسرت السفينة وأنجاه الله وجماعة من أهلها إلى السَّاحل فأقاموا بها أياماً من غير زاد، فبينما هم كذلك إذا هم بفيلٍ صغيرٍ فذبحوه وأكلوا لحمه سوى أبي عبد الله فلم يأكل منه وفاء بالعهد الذي كان منه، فلما نام القوم جاءتهم أمُّ ذلك الفيل تتبع أثره وتشمُّ الرائحة فمن وجدت منه رائحةَ لحمِه داسته بيديها ورجليها إلى أن تقتله، قال: فقتلت الجميع ثم جاءت إليَّ فلم تجد منِّي رائحة اللحم فأشارت إليَّ أن أركبها، فركبتها فسارت بي سيراً شديداً الليل كله، ثم أصبحت في أرض ذات حرث و زرع، فأشارت إليَّ أن أنزل، فنزلت عن ظهرها فحملني أولئك القوم إلى ملكهم فسألني ترجمانه فأخبرته بالقصة، فقال لي: إن الفيلة سارت بك في هذه الليلة مسيرة ثمانية أيام، قال: فلبثت عندهم إلى أن حملت ورجعت إلى أهلي." وفي هذا ما يتَّفق مع ما ذهب إليه دافنشي من أنَّ الفيل لا يؤذي إلا من يتعرَّض له بالأذى.

خبطَ عشواء[1]، موقعةً بأقدامها الخسائر في صفوف بني جنسها أكثر ممَّا في صفوف أعدائها. وهي تجدُ غبطتَها في الأنهار، وتتسكَّعُ دائماً في أنحائها، رغم أنَّها لا تحسن، لوزنِها العظيم، السِّباحة. تلتهمُ الحجارة، وجذوع الأشجار طعامُها المفضَّل. تبغضُ الفئران. الذُّباب يبتهج برائحتِها، ويستقرُّ على ظهورِها، فتهرشُ هي جلدَها وتكشطه حتَّى تسوِّي ثنياتِه وتقضي بذلك على تلك الهوام. وعندما تعبرُ الأنهرَ، ترسلُ صغارَها صوبَ المسيل المنخفِض، بينما تقفُ هي على الصَّعدة لتكسرَ تيارَ الماء المتَّحِد، فلا يكون قادراً على جرفِ الصِّغار بعيداً.

ترمي عظاءةُ التِّنِّين بنفسِها تحتَ جسمِ الفيل، وبذيلِها تقيِّدُ أقدامَه؛ بأجنحتها وبَراثنِها تتشبَّث بأضلاعه، وتمزِّقُ حنجرتَه بأسنانِها، فيسقطُ الفيلُ عليها وينسحقُ إذَّاكَ جسمُها: هكذا، بموتِه، ينتقمُ الفيلُ من خصمِه.

63. **عظاءة التِّنِّين.** هذه المخلوقات لا تسيرُ إلا في جماعاتٍ، وهي تنجدلُ في بعضِها البعض كما الجذور، وبرؤوسٍ مرفوعةٍ تجوزُ البحيرات، سابحةً صوبَ مَراعٍ أصلَح من مراعيها السَّابقة، وإن هي لم تتَّحد على هذا المنوالِ غرقتْ، فلذلك تجدُها تتَّحد.

64. **الثُّعبان.** الثّعبان، هذا الحيوان الكبير، حين يلمحُ طائراً في الهواء، فإنَّه يسحبُ نفَسَه بقوَّةٍ عظيمةٍ حدَّ أنَّه يسحبُ معه الطُّيورَ إلى

---

(1) ذكر المسعودي في (مروج الذَّهب) أنَّ الخنازير ربَّما تهرب منها الفيلة؛ وقد نقلَ عنه الوطواط في (مباهج الفكر ومناهج العبر) قوله: "وفي طبع الفيل، أنه إذا سمع صوت الخنزير ارتاع ونفر، واعتراه الفزع والجزع".

داخلِ فمِه. ماركوس ريغولوس[1]، مُستشارُ جيشِ روما، هوجِمَ مع جيشِه مِن قبلِ حيوانٍ مُماثلٍ كادَ أن يسحقَه. وبعد أن قُضي على هذا الحيوان بآلةِ منجنيق وُجِدَ أنَّ له من الطُّول 125 قدماً، أي ما يُعادل 64 ذراعاً ونصفَ الذِّراع؛ وكان رأسه أكثر علوّاً من جميع أشجار الغابة.

65. **أفعى البوا الهاصرة.** أفعى ضخمة تلفُّ نفسَها حولَ سيقان البقرة فلا تستطيع هذه حراكاً، ثمَّ ترتضعُها حتَّى توشك أن تجفِّفَها[2]. في زمن الامبراطور كلاوديوس[3]، وفوق جبلِ ڤاتيكان، قُتِلتْ واحدةٌ من جنسِها، ووُجِدَ في جوفِها صبيٌّ تامُّ الجسد، كانت قد ابتلعتْه.

---

(1) ماركوس أتيليوس ريغولوس (قبل 307 ق.م على الأرجح ـ 250 ق.م)، قائد روماني أصبح بطلاً قوميَّاً، وكان الرُّومان يردِّدون قصَّة حياتِه ياعتبارها مثالاً للوطنيَّة المخلِصة. عندما كان قنصلاً للجيش، في عام 256 ق.م، قاد الغزو الروماني المظفر في إفريقيا ضد قرطاجة التي استأجرت قائدًا سابقًا من أسبرطة، هو القائد كزانثيبوس، هزم الرومانيين وأسَرَ ريغولوس. أرسلتْ قرطاجة ريغولوس إلى روما نحو عام 249 ق.م ومعه شروط السِّلم، على أن يُعاد إليها إذا رفض الرُّومان التَّسليم، وحث ريغولوس مجلس الشيوخ الروماني على أن يرفض هذه الشروط رغم علمِه أنَّ ذلك يعني موته عندما يعود إلى قرطاجة. وقال الرومان بعد ذلك إنه قتل من جرَّاء التعذيب في قرطاجة، لكن هذه الرواية اختلقتها عائلته.

(2) كتبَ بلينيوس في الفصل 37 من "التَّاريخ الطَّبيعي": "البوا أفعى إيطاليَّة تتغذَّى على حليب الأبقار. من هذه الصِّفة الخاصَّة جاء اسمُها".

(3) كلاوديوس الأوَّل (10-54م)، رابع امبراطور روماني، حكم من سنة 41 إلى سنة 54، وكان أصغر أولاد دورسوس؛ تولَّى عرش روما بعد مقتل الامبراطور كاليجولا. كان يحبُّ الأدب وعكف على دراستِه. أوعز بقتل امرأته الثَّالثة مسالينا، واستطاعت امرأته الرَّابعة أجريبينا أن تعزل ابنه بريتانيكوس وتنصِّب ابنها نيرون وريثاً للعرش، ويُقال إنَّها قتلت كلاوديوس بالسُّم.

66. **الماكلي: يُصطادُ وهو نائم.** يعيشُ هذا المخلوق في جزيرة سكاندينافيا. له هيئةُ حصانٍ كبير، لولا أنَّه يختلف عنه بالطُّول الهائل لرقبتِه وأذنَيه. يرعى العشبَ متراجعاً إلى الوراء، لأنَّ له شفةً عُليا في غاية الطُّول من شأنها أن تحجبَ عنه العشب لو كان يرعى متقدِّماً إلى الأمام. سيقانُه تتَّحدُ في فِلقةٍ واحدة؛ ولذلك فهو يستندُ إلى شجرةٍ حين يداهمهُ النُّعاس، وعندما يكتشفُ الصَّيَّادون المكان الذي اعتادَ النَّوم فيه، فإنَّهم ينشرون جذع الشَّجرة إلا قليلاً منه، ثمَّ يأتي الحيوان ويستند إلى الشَّجرةِ ليغفو، فيسقطُ إذَّاكَ وهو نائمٌ. هكذا يُمسِك الصَّيَّادون به، وكلُّ طريقةٍ أخرى للإمساكِ به إنَّما هي محضُ عبثٍ، ذلك أنَّ سرعتَه في العَدْوِ لا تُضاهَى[1].

67. **ثورُ البايسون الذي يدمِّرُ أثناءَ هروبِه.** يوجد هذا الحيوان في بايونيا[2]، وله عنقٌ مكسوٌّ بشعرٍ طويلٍ [مِن أعلى] كما عند

---

(1) في الخامس والعشرين من شهر نوفمبر/تشرين الثاني من عام 1999 أعلن البروفسور ألسَّاندرو ڤتسوزي Alessandro Vezzosi مدير متحف ليوناردو دافنشي في فلورنسا، متحدِّثاً من ستوكهولم، أنَّه قد توصَّل إلى حلِّ لغز الماكلي Macli، ذلك الوحش الأسطوري الذي وصفه ليوناردو دافنشي والذي لم تُحدَّد ماهيتُه بدقَّة إلى حينه؛ فهذا الحيوان الغامض الوارد ذكرُه في مخطوطة دافنشي المسمَّاة بـ "المخطوطة H" المذيَّلة بتاريخ 1494 والمحفوظة في مكتبة المعهد الفرنسي بباريس ليس سوى الوعل، ويرى ڤتسوزي أنَّ دافنشي استعار هذه التَّسمية، الماكلي، من إحدى حكايات الكاتب اللاتيني بْلينيوس Plinio المذكورة في مؤلَّفه "التاريخ الطَّبيعي" الذي تُرجِم من اللاتينيَّة إلى الفيورنتينيَّة (لغة أهل فلورنسا آنذاك) من قِبَل كريستوفورو لاندينو، ونُشِرَ في مدينة البندقيَّة سنة 1476 مع إهداءٍ للملك فرديناندو ملِك نابُولي.

(2) المنطقة التي تشكِّل اليوم الجزء الأكبر من جمهوريَّة مقدونيا.

الحصان، أمَّا في بقيَّةِ أجزاء جسمِه فهو شبيهٌ بالثَّور، عدا أنَّ قرنيه مكوَّران نحوَ الدَّاخِل، ما يجعلُه غير قادرٍ على النِّطاح، ولهذا لا مناص له إلا في الهروب، حيث يقذفُ رَوْثَه على مسافة تمتدُّ 400 ذراع أثناء اندفاعِه، ورَوثُه هذا يحرقُ، مثل النَّار، كلَّ شيءٍ يقع عليه[1].

68. **الأسُود، الفهود، النُّمور الرَّقطاء، النُّمور المخطَّطة.** تُبقي هذه الوحوشُ مخالبَها في أغمادِها، ولا تسلُّها إلا عندما تكون في إثرِ طريدةٍ أو عدو.

69. **اللَبوة.** عندما تحمي اللبوة صغارَها من أيدي الصَّيَّادِين، ولكي لا يعتريها الخوفُ من حرابِهم، فإنَّها تُبقي عينَيها على الأرض، وتقاتل حتَّى النِّهاية لئلَّا يُساق صغارُها أسرى إذا ما اختارت الهروب.

70. **الأسَد.** هذا الحيوان الرَّهيب لا يخشى شيئاً بقدر ما يخشى جلبةَ العربات الفارغة ومثلها صياحَ الدُّيوك؛ وهو يرتعبُ كثيراً عند رؤيةِ هذا الطَّير، وينظرُ إلى العُرفِ الذي على رأسِه بملامح فزِعة،

---

(1) من الجليِّ هنا أيضاً أنَّ دافنشي اقتبس هذه الفقرة بالكامل من مؤلَّف (التَّاريخ الطَّبيعي) لبلينيوس، حيث يقول هذا عن ثور البايسون، الفصل أربعون: "في منطقةٍ من شمال مقدونيا يعيش البايسون، وهو حيوانٌ له لبدةُ حصان، وقرناه معقوفان بطريقةٍ لا تسمح له بالقتال. وليدافعَ عن نفسِه فإنَّه يُفرِغُ مقداراً من الرَّوث يغطِّي مساحةً تعادل ثلاث يوغِرات، وملمسُ هذا الرَّوث يحرقُ مثل النَّار"؛ واليوغِر Iugero وحدة قديمة للمساحة الزراعيَّة استخدمها الرُّومان وتعادل حوالي ربع هكتار.

غير أنَّه يزدادُ جُبناً وتنهار قواه عندما يغطِّي وجهُه[1].

71. **النَّمر الأفريقي الأرقط.** لهذا الحيوان شكلُ اللَبوة، إلا أنَّ ساقيه أكثر طولاً وجسمه أنحفُ وأطول؛ وهو أبيض بالكامل ومنقَّطٌ ببقعٍ سوداء اللون كأنَّها حليٌّ على شكل ورود؛ وجميع الحيوانات تبتهجُ بالنَّظر إلى تلك الورود، وتحبُّ أن تجتمع من حوله لولا أن يردَّها عن ذلك وجهُه المُرعب؛ وحيث أنَّه يعرف هذا، فإنَّه يواري وجهَه عنها، فتأمَن الحيوانات المحيطةُ به جانبَه وتقترب إلى أفضلِ بقعةٍ يمكن لها منها أن تمتِّعَ أنظارها بمثل ذلك الجمال الرَّائع، وعندها ينقضُّ هو فجأةً على الحيوان الأقرب إليه ويفترسُه في الحال.

---

(1) تحدَّث آخرون حول هذه الفكرة قبل دافنشي ومن بينهم إليانوس وسولينوس ولوكرتيوس وكذلك بلينيوس الذي أتى على ذكر هذا الاعتقاد مرَّتين، حيث أكَّدَ في المرَّة الأولى أنَّ الأسد يخافُ العربات الفارغة إضافةً إلى خوفِه من عُرفِ الدِّيك وصياحه، وفي المرَّة الثَّانية أنَّه يخاف عرفَ الدِّيك وذيلَه المنجليَّ الشَّكل. يقول في النَّصِّ الأوَّل: "هذا الحيوان المتوحِّش (الأسد) ينتابه رعبٌ عظيمٌ من دوران العجلات عندما تُجَرُّ على مقربة، ومن العربات الفارغةِ أيضاً، ومن أعراف الدِّيكةِ وصياحِها، لكنَّ أشدَّ خوفِه إنَّما هو من النَّار". وفي النَّصِّ الثَّاني يقول: "... والدِّيك الذي يمشي برأسٍ مرفوعٍ وعرفٍ منتصب هو الوحيد من بين الطُّيور الذي ينظرُ دوماً إلى السَّماء، رافعاً نحو الأعلى ذيلَه المقوَّس كمثل منجَل: والذي يثير به الرُّعبَ في قلوب الأسود التي تفوق جميعَ الوحوش ضراوةً". ولا يقدِّم بارثولوميوس أنجليكوس (ولد قبل 1203- توفِّي سنة 1272م) تفسيراً مقنعاً لهذا حيث يقول في المجلَّد الثاني عشر من موسوعته "خصائص الأشياء" معقِّباً على ذلك: "لا أعتقد أنَّ هذه الكراهية (كراهية الأسد للدِّيك)، إذا افترضنا أنَّها موجودة حقّاً، يمكن أن تُعزى إلى أنَّ كلا المخلوقَين يرمزان إلى الشَّمس، كما يظنُّ الفيلسوف البيزنطيُّ بروكلوس، وإنَّما مردُّها إلى أنَّ في الدِّيك شيئاً غامضاً يدفع الأسد إلى الفرار منه".

72. **الجِمال.** للفَلْجِ منها سنامان[1]، وللعربيِّ سنامٌ واحد؛ وهي سريعةُ العَدْو في المعارك، ولا بهيمة أصلح منها لِحمل الأثقال. الجَمَل شديدُ المراعاة للمقاييسِ والأوزان، فهو لا يتحرَّك إذا حُمِّلَ وزناً يفوق ما اعتاد عليه، ويفعلُ مثل هذا إذا ما سيق مسافةً أبعد ممَّا يطيق: يتوقَّف فجأةً، ويكون التُّجَّار مرغَمين على النُّزول هناك[2].

73. **النَّمِرُ المخطَّط.** يوجدُ هذا النَّمِر في **هيركانيا**[3]؛ وهو يشبه النَّمر الأرقط من جهةِ البقع المتنوِّعة الأشكال على فرائِه، وسرعتُه في العَدْو مخيفة. عندما يعثر الصَّيَّاد على صغارِه، يستولي عليهم في الحال واضعاً بعض المرايا حيث وجدَهم؛ ويهرب من فورِه على صهوة جوادٍ سريع. فإذا عادت الأمُّ وجدت تلك المرايا مثبَّتةً في الأرض، ورأت فيها صورتَها فتحسب إذَّاك أنَّها ترى صغارَها، وإذ تحكُّهم ببراثنها تدركُ حينئذٍ أنَّها خُدِعتْ؛ فتمضي في الحالِ في إثر ذلك الصَّيَّاد مقتفيةً إليه رائحةَ صغارها، وما إن يرى الصَّيَّاد النَّمِرة حتَّى يتخلَّى عن أحد الصِّغار، فتأخذه هي وتحمله إلى العرين، لتعودَ

(1) من أسماء الجمل ذي السِّنامين كما جاء في لسان العرب لابن منظور: الفَلْج أو الفالِج أو اليَغلُول أو القِرْعَوْس أو الدُهَانِج أو الدُنَاهِج أو الدُهَامِج أو القِرْمِل أو العُصْفُورِيّ. يعيش في صحارى غوبي وتاكلاماكان في مغنوليا وإقليم شينجيانغ.

(2) يُناقض هذا القولُ لدافنشي ما جاءَ في "مباهج الفكر ومناهج العبر" بأنَّه حُكي عن بعض المعظِّمين من شأن الإبل: "ما اقتنعت العرب مالاً خيراً من الإبل، إن حَملتْ أثقَلتْ، وإن سارتْ أبعَدتْ...".

(3) أطلق الإغريق تسمية هيركانيا قديماً على الأرض التي تقع اليوم شمال إيران وتضمُّ مدينة جرجان إلى الجنوب من بحر قزوين مع جزء من تركمانستان.

على الفور وتدركَ الصَّيَّاد الذي يفعل الشَّيء نفسَه مـن جديـد، هكـذا إلى أن يبلغَ مركبَه[1].

74. **الكاتوبليباس.** يوجدُ هذا المخلوق في إثيوبيـا قـرب نبـعِ نهـرِ النِّيجـر. حجمُه ليس كبيراً جداًّ، وهو خاملُ الأطراف جميعاً، ورأسُه كبيرةٌ للغاية حدَّ أنَّـه بالكاد يستطيع حملَها، ولذلك فهي تتدلَّى دائماً نحوَ الأرض؛ ولـولا هـذا لكـان هذا الحيوان كمثل طاعونٍ للإنسان، ذلك أنَّ كلَّ من تقع عليه عيناه يهلَك[2].

75. **الباسيليسك.** تعيشُ في إقليم **قورينائيا**[3]، ولا يتجاوز طولُها إثنَي عشرَ إصبعاً، ولها علـى رأسِـها بقعـةٌ بيـضاء تـشبه التَّـاج. تُفـزِعُ الباسيليسك جميعَ الأفاعي بصفيرِها؛ وهي شـبيهةٌ بـالأفعى غـير أنَّهـا لا تتحرَّك مثلها بالتَّلوِّي، بـل تنتـصبُ مـن منتـصفِ جـسمِها قبـل أن تتقدَّم. يُحكَى أنَّ أحـدهم قتـل واحـدةً منـها بِحربـةٍ مـن علـى صـهوةِ حصانِه، وأنَّ سمَّها الذي انسابَ على الحربة لم يقتلِ الرَّجلَ فحسب،

---

(1) يكرِّر دافنشي في هذه الفقرة نفس العبارات تقريباً الـتي قالَهـا بلينيـوس حـول النَّمر في الفصل الـسَّادس والـستِّين، المجلَّـد الثـامن، مـن مؤلَّفـه "التـاريخ الطَّبيعي".

(2) لا شكَّ هنا أيضاً في أنَّ دافنشي يأخذ هذه الملاحظات حول الكاتوبليباس عن بلينيوس وهو أوَّل من وصف هذا الكائن الخرافي بأنَّه "حيوانٌ بطيء الحركة، يعيش في أفريقيا، عند تخوم إثيوبيا، ونظراتُه تقتلُ أيَّ كائنٍ في الحال، لكـنِ من الصَّعب التَّحديق إلى عينيه لأنَّ رأسه عظيمة الثِّقَل، وهو يُبقيها دائماً متدلِّيةً نحو الأسفل"؛ أمَّا ثاني من وصف الكاتوبليباس فهو كلاوديوس إليـانوس في مؤلَّفه (حول طبائع الحيوان)، الذي جاء بوصفٍ أكثر تفصيلاً، لكنَّـه يقـول، بخلاف بلينيوس، إنَّ هذا الحيوان لا يقتل بنظراتِه المحدِّقـة، وإنَّمـا بأنفاسـه السَّامَّة، لأنَّ النَّباتات التي يتغذَّى عليها هي نباتاتٌ سامَّة. ولعلَّ دافنـشي كـان أكثر ميلاً إلى وصف بلينيوس فأسقطَ تماماً وصفَ إليانوس.

(3) قورينائيا هي التَّسمية التي أطلقها البيزنطيُّون على الجزء الـشَّرقي مـن ليبيـا الـذي أسمـاه العرب فيما بعد بإقليم "برقة" نسبةً لعاصمة الإقليم "باركي" آنذاك، Barce باللاتينيَّة.

بل الحصان أيضاً. إنَّها تُتلفُ الحبوبَ، لا ما تلمسه منها فقط، لكن ما تنفخ عليه كذلك. تجفِّفُ العشبَ، وتفلقُ الحجر[1].

76. **ابن عرس أو الدَّلَق.** عندما يعثرُ هذا المخلوق على جُحر الباسيليسك، يقتلُها برائحة بوله المرشوش؛ وهذه الرَّائحة، من ناحيةٍ أخرى، غالباً ما تقتلُ الدَّلَقَ نفسَه[2].

77. **الكِيراستا.** لها أربعةُ قرونٍ صغيرةٍ متحرِّكة؛ وهكذا، عندما تريد أن تأكل تواري تحت الأوراق جسمَها كلَّه عدا هذه القُرَينات التي تبدو للطُّيور، فيما هي تتحرَّك، كأنَّها ديدانٌ تلهو، فتنقضُّ نحوَها في الحال لتلتقطها، وبغتةً تطوِّقها الكِيراستا ملتفَّةً عليها وتفترسُها[3].

---

(1) سبقَ أن تحدَّثنا عن رمزيَّة الباسيليسك في حاشيتين من هذا الباب.

(2) بالرُّجوع إلى الفقرة 50 من هذا الباب وإلى ما أشرنا إليه في حاشيتها، ومقارنة ما جاء هناك مع هذه الفقرة، يبدو لنا أنَّ دافنشي يقصد بهذه الرائحة تحديداً الرائحة المتشكِّلة بعد تناول هذا الحيوانِ لنبات الحرمل.

(3) يتحدَّث دافنشي هنا عن مخلوقٍ خرافيٍّ مذكورٍ في الأساطير الإغريقيَّة، وهو عبارة عن حيَّة فائقة المرونة لها أربعة قرونٍ صغيرة متحرِّكة، أو قد يكون لها، عِوضَ ذلك، قرنان كبيران يشبهان قرون الكِباش، وهي تصطاد فرائسها، وفقاً للأسطورة، بنفس الحيلة التي وصفها دافنشي؛ وقد تحدَّث "إيزيدورو السِّيفياني" (560 - 636م) الذي كان رئيساً لأساقفة سيفيا وواحداً من كبار العلماء آنذاك، تحدَّث في مؤلَّفه "موسوعة الأصول" Etymologiae، في المجلَّد الثاني عشر منه، عن هذا المخلوق حيث قال: "الكِيراستا هي حيَّةٌ قرناء، تشبه القرون التي على رأسها قرونَ الكِباش؛ ومن هنا جاء اسمها، حيث يطلق الإغريق على القرون كلمةَ *Kerata*. لها أربعة قرون، تعرضُها كطُعمٍ لتقتلَ على الفور الحيوانات التي تنجذب إليه. تغطِّي نفسَها بالرِّمال، تاركةً تلك الأجزاء مكشوفةً لتصطاد بها الطُّيور والحيوانات التي سوف تقع في شرك ذلك الإغواء. إنَّها فائقة المرونة، ويبدو أن ليس لها عمودٌ فقري". لكن يُعتقَد أنَّ هذه الأسطورة مُستقاة أصلاً من عادات الحيَّة القرناء المعروفة التي تعيش في الصحارى.

78. **الأمفيسباينا.** لها رأسان، رأسٌ في الموضعِ الصَّحيح، ورأسٌ مكانَ الذَّيل، كما لو أنَّه لا يكفيها قذفُ السُّمِّ من موضعٍ واحد[1].

79. **الجاكولوس**[2]. يمكثُ هذا المخلوق فوق النَّباتات مترصِّداً،

---

(1) الأمفيسباينا مخلوقٌ أسطوري بِشكل عظاءة أو أفعى ذات رأسين، وقد خُلِقَتْ حسب الأسطورة الإغريقيَّة من الدَّم الذي سال من رأس الميدوزا التي حملها طائرٌ عبر الصَّحراء الليبيَّة قابضاً على الرَّأس بمخالبه فانتشر الدَّم الذي بتمازجه مع بعض الثعابين الأخرى تكوَّنت الأمفيسباينا. يصفُ دافنشي هنا هذا المخلوق وصفاً مطابقاً لوصف بلينيوس، مكرِّراً نفس كلماتِه تقريباً، حيث يقول بلينيوس في المجلَّد الثامن، الفصل 35، من "التاريخ الطَّبيعي": "للأمفيسباينا رأسان، رأسٌ منهما يقع في نهايةِ الذَّيل، كما لو أنَّه لم يكفيها سكبُ السُّمِّ من فمٍ واحد"؛ ويصفها إيزيدورو السِّيفياني في المجلَّد الثاني عشر من موسوعة الأصول بالقول: "للأمفيسباينا رأسان، رأسٌ في الموضع الصَّحيح، ورأسٌ مكانَ الذَّيل. تستطيع التحرُّك في اتِّجاه أيٍّ من الرأسين وفقَ حركةٍ دورانيَّة. عيناها تشعَّان كمثل مصابيح؛ وهي الوحيدة من بين الثعابين التي تخرجُ في البَرد"؛ لكنَّ الشاعر الإغريقي نيكاندير الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد يخالفُ وصف الكثيرين لعيون الأمفيسباينا بأنَّها متوقِّدة ومشعَّة على الدَّوام إذ يقول: "عيناها دوماً فاترتان وكليلتان". كما تحدَّث خورخي لويس بورخيس (1899-1986م) عن هذا المخلوق في قصَّته القصيرة "ثمَّة أشياءٌ أكثر" المنشورة في (كتاب الرِّمال) الذي يعتبره بورخيس أهم وأفضل أعماله على الإطلاق.

(2) جاكولوس أو ياكولوس Iaculus، أو الأفعى السَّهميَّة، أو رامية السِّهام، حيث تعني Iaculo باللاتينيَّة "رامي السَّهم أو الرُّمح".

ثمَّ يندفعُ ويخترقُ [أجسامَ] الحيوانات ويقتلها[1].

80. **الآسبيس.** لدغةُ هذا الحيوان لا دواء لها سوى أن تُبتَرَ الأعضاءُ الملدوغةُ في الحال[2]. يولَع هذا الحيوان الخبيث بشريكه، فلا يتحرَّك الاثنان من مكانٍ إلى آخَر إلا سويَّةً؛ وإن أصاب سوءُ الحظِّ أحدهما فمات، لحقَ الآخَر بالقاتل بسرعةٍ لا تصدَّق، وكان في غاية التَّصميم والإلحاحِ على الانتقام حيث يتغلَّب على أيِّ عائقٍ قد يعترضُه، ويمرُّ بكلِّ حشدٍ لا يطلبُ منه أحداً إلا غريمَه؛ ولسوفَ يعبر أيَّ مسافةٍ في إثرِه، ومن المُحال الخلاص منه إلا بعبورِ المياه وبالهروب بسرعة عظيمة. له عينان غائرتان داخل رأسه وأذنان كبيرتان، وهو يتحرَّك مستهدياً بالسَّمع أكثر من الرؤية[3].

---

(1) ذكر الشَّاعر الرُّوماني ماركوس آنيوس لوكانوس (39- 65 م) هذا المخلوق في ملحمته اللاتينية الشهيرة باسم "فَرساليا"؛ وقال عنه بلينيوس في المجلَّد الثامن، الفصل 35، من "التاريخ الطَّبيعي" بأنَّه يقذف بنفسه من على أغصان الأشجار ويطير عبر الهواء كمثل قذيفةٍ أطلِقتْ من منجنيق؛ وكذلك الأمر بالنسبة لإيزيدورو الذي يقول في المجلد الثاني عشر من "موسوعة الأصول": "الجاكولوس ثعابين طائرة. تقفز عن الأشجار مندفعةً نحوَ الحيوانات المارَّة، ومن هنا جاء اسمُها رامية السِّهام *Iaculi*".

(2) أشار بلينيوس إلى هذا قبل دافنشي حيث قال في المجلَّد الثامن، الفصل 35، من "التاريخ الطَّبيعي": "عندما تنتفخ عنق الآسبيس، فلا علاج آنئذٍ للدغتِها سوى أن يُبتَرَ العضو الملدوغ على الفور".

(3) هذا الوصف لعلاقة أفعى الآسبيس بشريكها وسعيها للثأر له، وكذلك الحديث عن حاسَّتي السَّمع والرؤية عندها، يأتي مطابقاً لما قاله بلينيوس في حديثه عن الأفاعي عامَّةً، وذلك في المجلَّد الثامن، الفصل 35، من "التاريخ الطَّبيعي".

81. **الإيكْنيومون**[1]. هذا الحيوان هو خصمُ الآسبيس القاتل. يعيش في مصر؛ وعندما يرى أفعى صلٍ على مقربةٍ مِن موقعه، فإنَّه يهرع على الفور إلى قاعِ النِّيل، أو بالأحرى إلى طينِ ذلك النَّهرِ، حيث يتمرَّغ به مغطياً بالوحل جميع أنحاء جسمه، ثمَّ يخرجٍ ليجفف نفسَه في الشَّمس، ومرَّةً تلو مرَّة يعودُ ليتلطَّخ بالطِّين وليجفف نفسه من بَعدُ، هكذا إلى أن يصنع لنفسه ثلاث أو أربع طبقاتٍ كمثلِ صفائحِ الزَّرَد، ثمَّ يهاجم الآسبيس ويُحسنُ نزالَها، قبلَ أن يُطبِقَ على حلقِها متحيِّناً الوقتَ المناسب لذلك، ويُغرِقَها[2].

82. **التِّمساح**. يوجدُ في النِّيل؛ له أربع أقدام، ويعيش في الماء وعلى اليابسة. ما من حيوانٍ أرضيٍّ إلا هذا لا يمتلك لساناً، وهو ينهشُ بتحريكِ فكه العُلويِّ فقط. ينمو حتَّى يبلغَ طولُه الأربعين قدماً، مسلَّحٌ بمخالب، ومدرَّعٌ بجلدٍ كفيلٍ بردِّ أيِّ ضربة. في النَّهار يمكث على اليابسة، وليلاً يكون في الماء. بعد أن يتغذَّى على الأسماك يخرجُ لينامَ على ضفَّة النِّيل بفمٍ مفتوح، فيهرع طائرٌ صغيرٌ للغاية، يُسمَّى السَّقساق، نحوَ فمِه في الحال، ويتقافزُ بين أسنانه، ملتقطاً عنها بقايا الطَّعام، وإذ يُغويه بهذه المتعة المثيرة فإنَّه يحضُّه على فتح فمه على مصراعيه، وعلى هذا المنوال يغفو. حين يرى الإيكنيومون ذلكَ، يندفع بغتةً والجاً الفمَ المشرَّع، فيخرِّمُ معدةَ التِّمساح وأمعاءه،

---

(1) صوَّرَ هذا الحيوان، الـ Ichneumon، في أدب القرون الوسطى على أنَّه عدوُّ التنِّين، فيما صوَّره بعضُ الكتَّاب عدواً للتَّماسيح ولأفاعي الصِّلِّ "الآسبيس"، ويُرجَّح أن يكون هذا الحيوان هو النِّمس المصري الذي يهاجم الأفاعي، وقد يكون القضاعة.

(2) أيضاً هنا، يكرِّر دافنشي، حرفيَّاً تقريباً، ما قاله بلينيوس في المجلَّد الثامن من "التاريخ الطَّبيعي".

وفي النِّهاية يقتلُه[1].

83. **الدُّلفين.** وهبتِ الطَّبيعةُ الحيوانات معرفةً مِن مثل هـذه الـتي وهبتها للدُّلفين، أنَّها إلى جانـب إدراكِهـا لمـا تمتلـك مـن حـسنات، تدركُ في نفسِ الوقتِ مساوئَ أعدائها؛ فالدُّلفين يعـي كـم هـي قويَّـةٌ الزَّعانف القاطعة التي على ظهرِه، وكـم هـي في المقابـل طريَّـةٌ بطـنُ التِّمساح، ولذلك في قتالِهما يطعنُ الدُّلفينُ التِّمساح مِن أسـفل ويبقـرُ بطنَه، وعلى هذه الشَّاكلة يقتلُه[2].

التِّمساحُ مُخيفٌ لِمَن يَجتنبُه، وخُوَّفٌ أمام مَن يُطارِدُه.

84. **فرسُ النَّهر.** عنـدما يحـسُّ هـذا الحيـوان بتفـاقُمٍ وزنِـه، يمضي بحثاً عن شُوَيكات، أو عن بقايا خيزرانٍ مـشقَّق، ثم يـدعَك

---

(1) الوصف نفسُه تقريبـاً نجـدُه عنـد هـيرودوت في المجلَّـد الثـاني مـن مؤلَّـف "التاريخ"، ونجده من بعدِه عنـد بلينيـوس في المجلـد الثـامن مـن "التـاريخ الطبيعي"، ثمَّ عند إيزيدورو السِّيفياني في المجلَّد الثاني عـشر مـن "موسـوعة الأصول"، ما يرسِّخ اعتقادنا بـأنَّ دافنـشي لم يكـن في حقيقـة الأمـر يكتـب ملاحظاته الخاصَّـة عـن سـلوك الحيوانـات وعاداتهـا بقـدر مـا كـان يـدوِّن ملاحظاتٍ استقاها من قراءاته.

(2) قـارن هـذه الفقـرة مـع مـا جـاء في المجلَّـد الثـامن مـن "التـاريخ الطبيعـي" لبلينيوس، الفصل 38، إذ يقول: "تدخلُ الدَّلافين فمَ النِّيل، لكن سرعانَ مـا تدحرها التَّماسيح التي تدَّعي أنَّ النهرَ ملكٌ لها. التَّماسيح تفوق الدَّلافين قـوَّةً بكثير، ولهذا ينبغي على الدَّلافين أن تلجأ إلى استراتيجيَّةٍ أخرى. لكي تتغلَّب على التَّماسيح، تسبحُ الدَّلافين مِـن تحتِهـا ثمَّ تبقـرُ بطونَهـا الطَّريَّة بالزِّعنفـة القاطعة الموجودة على ظهورِها"؛ وكذلك مع ما جاء في المجلَّد الثاني عـشر مـن "موسـوعة الأصـول" لإيزيـدورو: "لِـدلافين نهـر النِّيـل ظهـرٌ منـشاريُّ التَّكوين؛ به تقتلُ التَّماسيح بشَقِّ المواضع الطَّريَّة من جلودِها".

جسمَه عليها بقوَّة إلى أن ينفتحَ وريدٌ من أوردتـه، وبعدَ أن يفقدَ قدراً كافياً من الدِّماء يسدُّ الجرحَ بالطِّين ويوقفُ النَّزيف[1]. له تكوينٌ يشبه تكوين الحصان؛ الحافرُ مشدوخٌ؛ ذيلٌ ملويٌّ وأسنانٌ كأسنان خنزيرٍ وحشيٍّ ذَكَر؛ والعنقُ مكسوٌّ بلَبدة؛ الجلدُ لا يمكن اختراقُه إن لم يكن مُبتلّاً. يتغذّى على المحاصيل في الحقول، حيث يدخل إليها وهو يمشي إلى الخلف، فيبدو للنَّاظر كما لو أنَّه يغادرُها.

85. **أبو مِنجَل.** هذا الطَّائر يشبه الكركي، غير أنَّه عندما يحسُّ بالمرض يملأُ حويصلتَه بالماء، ويجعلُ من منقارِه مِحقناً شرجيّاً يعالجُ به نفسَه[2].

86. **الأيل.** إذا شعرَ هذا المخلوق بأنَّه لُدِغَ من العنكبوت المكنَّى بأبي السِّيقان الطَّويلة، فإنَّه يأكل السَّلطعونات ويحرِّر نفسَه من ذلك

---

(1) تحدَّث بلينيوس قبلَه عن الفكرة نفسِها.

(2) لعلَّ هيرودوت هو أوَّل من وصف هذا الطَّائر حيث ميَّز من جنسِه نوعَين وشبَّه قدمَيه بقدَمَي طائر الكركي؛ ثمَّ ذكرَه بلينيوس في ثلاثة مواضع من موسوعة "التاريخ الطَّبيعي": في الفصل 41 من المجلَّد الثامن، وفي الفصلين 40، 45 من المجلَّد العاشر، ويهمُّنا منها الوصف المذكور في المجلَّد الثامن حيث كتبَ بلينيوس: "أبو منجل طائرٌ مِن مصر. يستخدم منقارَه المعقوف ليُسْهِلَ نفسَه إذا ما استعصى عليه إخراج بقايا الطَّعام الثقيلة من أحشائه"؛ كما كتب إيزيدورو في المجلَّد الثاني عشر من "موسوعة الأصول: "أبو منجل طائرٌ يعيش على ضفاف النِّيل. يأكل بيضَ الأفاعي، ويُسْهِلُ نفسَه بحقنِ الماء في شرجِه بواسطة منقارِه"؛ ولا بدَّ أنَّ دافنشي كان مطَّلعاً على مؤلَّفات هؤلاء الثلاثة، هيرودوت، وبلينيوس، وإيزيدورو.

السمُّ[1].

87. **السُّحلية.** هذه الوزَغة، عندما تخوضُ قتالاً مع الثَّعابين، تأكلُ عشبةَ التِّفَاف[2] فتنجو[3].

---

(1) ساد قبل المسيحيَّة الاعتقاد بأنَّ الأيل يطرد الأفاعي من جحورها بالأنفاس التي يزفرها من منخرَيه، وقد أشار إلى هذا الشاعر والفيلسوف الرُّوماني لوكرِتيوس (99 - 55 ق.م) في المجلَّد السَّادس من موسوعته "حول طبيعة الأشياء"، لكنَّه اعتبر الفكرة خياليَّة ولا أساس لها من الصحَّة؛ وقد بقي هذا الاعتقاد سائداً قروناً عديدة بعد المسيحيَّة حيث نجدُ الفكرةَ نفسَها عند بلينيوس وإيزيدورو، بخلاف أنَّ الأيل في المسيحيَّة قد تحوَّل إلى رمزٍ للمسيح الذي يسحق الشَّيطان ويهزمُه، وكما تساعد الأيائل بعضها بعضاً على عبور النَّهر، ينبغي على المسيحيِّ أن يساعد الضعفاء والمتعَبين على عبور الحياة المادِّيَّة إلى الحياة الرُّوحانيَّة؛ ومثلما تتجدَّد الأيائل وتطرح قرونَها بعد أن تشربَ من النَّبع، كذلك يتجدَّد أولئك الذين يشربون من نبع الرُّوح ويطرحون عنهم خطاياهم؛ وفي حين يؤكِّد أغلب الكتَّاب الذين جاؤوا قبل دافنشي على تلك القوَّة الخياليَّة لأنفاس الأيل، وعلى أنَّه قادرٌ على قهرِ سموم الأفاعي بشربِ مقدارٍ كبيرٍ من الماء، يشيرُ البعض، ومن بينهم بلينيوس، إلى أنَّ الأيل يشفي نفسَه من سمِّ العناكب بأكل السَّلطعونات، حيث يقول في المجلد الثامن من "التاريخ الطبيعي"، الفصل 41: "إذا ما لُدغَ الأيلُ من عنكبوتٍ سامٍّ، فإنَّه يلجأ إلى أكل السَّلطعونات لكي يشفي نفسَه".

(2) التِّفَاف أو الجعضيض أو الحوى (باللاتينيَّة .Sonchus sp) عشبة معمِّرة من ثنائيَّات الفلقة تنتمي إلى الفصيلة النَّجميَّة.

(3) في هذه الفقرة إلاحةٌ إلى المعنى الرَّمزيِّ للسُّحلية، حيث اعتبرها الإغريق رمزاً للتجدُّد والانبعاث ونقيضاً للموت، من منطلق أنَّها تعود إلى الحياة بعد كل سباتٍ شتويٍّ، وكثيراً ما نجدها في تصاوير آلهة الحبِّ والخصب المجنَّحة، مثل إيروس، وكذلك في تصاوير أنصاف الآلهة، ويرى بعض الدَّارسين أنَّ السَّحالي كانت ترافق الآلهة وأنصافها في الرُّسوم والتَّماثيل كحرَّاسٍ لها ضدَّ الأفاعي الخبيثة من مثل تلك التي هاجمت هرقل الرَّضيع في مهدِه وقتلت الطِّفل أوفيلتِس وهو على الأرضِ، فالسَّحالي، كما يقول بلينيوس قادرةٌ على إبراء نفسِها بعشبةٍ معيَّنة "في كلِّ مرَّة تخوض قتالاً مع الثعابين وتُجرَح" (التاريخ الطبيعي، المجلَّدَ الثامن، الفصل 97).

88. **الخُطَّاف**. يمنح هذا الطَّائر البصرَ لصغارِه، بعصارةِ عروقِ الصبَّاغين[1].

89. **ابن عرس**. هذا المخلوق، عندما يريد تعقُّبَ الفئران، يتناول أوَّلاً نبتة الحرمل[2].

90. **الخنزير البرِّي**. يطبِّبُ هذا الحيوان أسقامَه بتناول اللبلاب[3].

91. **الأفعى**. عندما يريد هذا المخلوق أن يجدِّدَ نفسَه، فإنَّه يطرحُ عنه جلدَه القديم ابتداءً بالرَّأس، مُبدِلاً إيَّاه في نهارٍ وليلة[4].

92. **النَّمِر الأرقط**. حتَّى بعد خروجِ أحشائه مِن جوفِه، يواصلُ

---

(1) الفكرة نفسها نجدها عند بلينيوس (التاريخ الطبيعي، المجلَّد الثامن، الفصل 41). انظر كذلك الفقرة 48 وحاشيتها من هذا الباب.

(2) انظر الفقرتين 50، 76 وحاشيتَيهما من هذا الباب.

(3) ذكر بلينيوس هذا في المجلَّد الثامن، الفصل 41، من "التاريخ الطَّبيعي"، لكنَّه أضافَ السَّلطعونات إلى اللبلاب كدواءٍ يتناوله الخنزير البرِّي عندما يشعر بالمرض؛ أمَّا بارثولوميوس أنجليكوس فيعتقد أنَّ هذا الحيوان يتناول الزَّعتر البرِّي عندما تضعف أسنانُه، حيث يقول في الكتاب الثَّامن عشر من موسوعته "خصائص الأشياء": "وإذا شعر بأنَّ أنيابه ضعفتْ وفقدت حدَّتَها، فإنَّه يبحث عن عشبةٍ تسمَّى الزَّعتر البرِّي، فيقرضُها ويمضغُها، وبذلك ينظِّف جذور أسنانه ويسكِّنُ أوجاعَها".

(4) ربَّما أراد دافنشي تكرار هذه الفكرة التي قالها بلينيوس من قبلِه ليقول أنَّ على الإنسان، إذا ما رغب بتغيير نفسه، أن يبدأ بعقلِه؛ ونثبِّت هنا ما جاءَ في المجلَّد الثامن، الفصل 41، من "التاريخ الطبيعي" لبلينيوس، حيث قال: "تستطيع الأفعى طرحَ جلدِها الشَّتويِّ الزَّائد مستخدمةً لذلك عصارةَ نبات الشَّومر؛ تبدأ العمليَّةُ من ناحيةِ الرَّأس وتستغرق أربعاً وعشرين ساعة لتكتملِ، حيث تطوي الأفعى جلدَها نحو الوراء فما كان منه بطانةً يصبحُ ظهارةً".

هذا الحيوان قتالَه مع الكلابِ والصَّيَّادين[1].

93. **الحرباء.** ينتحلُ هذا المخلوقُ دائماً لونَ الشَّيء الذي يستقرُّ عليه، ولذلك كثيراً ما تلتهمُ الفِيلةُ الحرابيَّ مع الأغصان والأوراق التي تتغذَّى عليها[2].

94. **الغُراب.** عندما يقتلُ هذا الطَّائر حرباء، فإنَّه يتناول الغارَ لتطهيرِ أمعائه[3].

95. **عنِ التَّبصُّر.** الدِّيك لا يصيح قبل أن يخفق بجناحَيه ثلاثاً. البَبَّغاء في تنقّلها من غصنٍ إلى غصن لا تضعُ قدمَيها حيث لم تضع منقارَها أوَّلاً[4].

96. **الإغوانا الخضراء.** هذا المخلوق مخلصٌ للإنسان، فعندما

---

(1) العبارة مأخوذة من بلينيوس الذي يقول في ختام كلامه عن كيفيَّة صيد الرِّجال البرابرة للنُّمور الرَّقطاء، وذلك في المجلَّد الثامن، الفصل 52، من "التاريخ الطَّبيعي"- يقول: "ولأنَّها تتمتَّع بقوَّةٍ من هذا القبيل، فإنَّ النُّمور الرَّقطاء تواصل القتال حتَّى بعد تقطيع أمعائها".

(2) هذه الفكرة الطَّريفة نجد لها صدىً قديماً عند بلينيوس، ولكن في سياقٍ مختلف، حيث يقول، في المجلَّد الثامن، الفصل 41، من "التاريخ الطَّبيعي": "عندما يحدث أن يلتهم فيلٌ حرباء، والتي يكون لها نفس لونِ النَّبات، فإنَّه يُبطل مفعولَ السُّمِّ بواسطة الزَّيتون البرِّي".

(3) هذه الفقرة مأخوذة حرفيَّاً من بلينيوس، المجلَّد الثامن، الفصل 41 من "التاريخ الطَّبيعي".

(4) قال بلينيوس في المجلَّد العاشرِ، الفصل 24 من "التاريخ الطَّبيعي" أنَّ الدِّيك يعلن عن الوقت على رأس كلِّ ثلاث ساعات بتنبيهٍ قصير، وفي السَّاعة الرَّابعة من الليل يوقظنا بصياحه المتواصل؛ أمَّا عن البَبغاء فقال في المجلَّد نفسه، الفصل 58، أنَّ قدميها ضعيفتان، ولذلك فهي تعتمد على منقارِها عندما تحطُّ بعد الطَّيران، وبهذه الطَّريقة تسندُ نفسَها.

يراه نائماً، يحرسه من كلِّ حيَّةٍ قد تقترب منه ويقاتلُها، وإذا أيقن أنَّه غير قادرٍ على قهرِها، يهرع معتلياً وجهَ الإنسان ويوقظُه، لئلا تُجفِلَ تلك الحيَّةُ الإنسانَ المستغرق في نومِه.

* * *

نُبوءات

1. لَتَرَوُنَّ جنسَ الأسُودِ يشقُّ الأرضَ ببراثنه المخلبيَّةِ الأظفار، ويدفنُ نفسَه في أغوار الشُّقُوق المفتوحة، مع الحيواناتِ الأخرى الخاضعة له.

2. لَسَوفَ تخرجُ مِن باطن الأرض حيواناتٌ مُسربلةٌ بالظُّلُمات، تنقضُّ كما الصَّواعق على نسلِ الإنسان، وبنهشِ أنيابِها الوحشيِّ تصنعُ خليطَ دمٍ، مِن دماء الفريسةِ إيَّاها.

3. كذلك: سوفَ يمتلئُ الفضاء بسلالةٍ متوحِّشةٍ مجنَّحة، تُغيرُ على البشر والحيوانات، وتتغذَّى عليهم بصرخاتٍ مهولة: مالئةً بطونَها بالدَّم القرمزيِّ.

4. لَتَرَوُنَّ الدَّمَ يخرجُ من اللحم البشريِّ الممزَّق، ويسيلُ مسطِّراً سطحَ الجسد.

5. لَسَوفَ يُلمُّ بالبشرِ وباءٌ مِن مثل هذا، حيثُ يمزِّق كلُّ امرئٍ جسدَه بأظفارِه.

ويكونُ اسمُه الجَرَب.

6. لَتَرَوُنَّ الزَّرعَ من غير أوراق، والأنهارَ خامدةً في مجاريها.

7. مياهُ البحارِ سوف ترتقي قممَ الجبال الشَّاهقة، صاعدةً نحوَ السَّماء، ثمَّ تنزلُ ثانيةً في منازلِ البشر.

أعني عبرَ الغيوم.

8. لَتَرَوُنَّ أعظمَ أشجار الغابة محمولةً بغضبِ الرِّياح من أقصى الشَّرق إلى أقصى الغرب.

أعني عبرَ البحار.

9. سوفَ يرمي الإنسانُ بمؤونتِه بعيداً.

أي عندَ البَذْر.

10. يأتي زمانٌ على البشر لا يفقه واحدٌ قولَ الآخَر.

أعني حين يجتمعُ ألمانيٌّ بتُركيٍّ.

11. لَتَرَوُنَّ الآباء يهبونَ بَنَاتهم لشهوةِ الرِّجال ويكافؤون هؤلاء بهنَّ، نازعين من صدورِهم كلَّ مشاعر الحرص السَّالفة.

حين تتزوَّج الفتيات.

12. لَسَوفَ يخرجُ البشر من أجداثِهِم وقد تحوَّلوا إلى كائناتٍ طائرة، فيهاجمون البشرَ الآخَرين منتزعين الطَّعام مِن بين أيديهم ومِن فوقِ موائدهم.

الذُّباب.

13. كثيرٌ هم أولئك الذين، إذ يسوطون جسدَ أمِّهم، سوفَ يسلخونَ جلدَها عن ظَهرِها.

رجالٌ يحرثون الأرض.

14. طوبى للَّذين يعيرون أذُناً لكلمات الموتى، فإنَّهم يفرحون.

الذين يقرؤون المؤلَّفات الجيِّدة، ويتفكَّرون فيها.

15. لَسَوفَ تحملُ الأرياشُ البشرَ، تماماً كما تحملُ الطُّيورَ، عالياً نحوَ السَّماء.

أعني عبرَ الرَّسائل المكتوبة بذلك الرِّيش.

16. الأعمال المصنوعةُ بيدِ الإنسان سوف تصنعُ موتَه.

السُّيوف والرِّماح.

17. سوفَ يتبعُ البشرُ الشَّيءَ الذي يخافونه أكثر مِن سواه.

أي، سوف يَشْقَون إذا هم لم يعرفوا الشَّقاء.

18. هاتِه الأشياء المنفصلة، سوف تتَّحدُ لتصير في ذاتِها قوَّةً من قبيل تلك التي تردُّ إلى الإنسان ذاكرتَه المفقودة.

أقصدُ ورقَ البَرديِّ المصنوعَ مِن أليافٍ منفصلة، والذي يحفظُ ذكرى الأشياء وأعمالَ البشر.

19. لَتَرَوُنَّ عظامَ الموتى توجِّه قَدَرَ محرِّكِها، بأسرع من لمحِ البصر.

زَهرُ النَّرد.

20. الثِّيرانُ بقرونها سوفَ تحمي النَّارَ من الموت.

المِشكاة[1].

21. لَتلِدنَّ الغاباتُ أبناءً يجلبون عليها الهلاك.

مقابض الفؤوس.

22. سوفَ يضربُ البشرُ بخشونةٍ أكبر الشَّيءَ الذي يشكِّلُ علَّةَ حياتِهم.

يضربون الحِنطة[2].

(1) قديماً كانت المِشكاوات تُصنَع من قرون الماشية في إيطاليا، والمِشكاةُ ما يوضَعُ فيه أو يُحمَلُ عليه القنديل أو المصباح.

(2) يقصد خَبطاتِ المذراة عند تذريةِ القمح وسائر الأكداس.

23. لَسَوفَ تـوقظُ جلـودُ الحيوانـات الإنـسانَ مِـن صـمتِه، مـع الصِّياح والشَّتائم العظيمة.

كُراتُ اللعب[1].

24. غالباً ما يكونُ الشَّيءُ المنفصلُ في ذاتِه الباعـثَ علـى وحـدةٍ عظيمة.

هذا شأنُ مُـشطِ النَّـول المـصنوعِ مِـن عـصيٍّ خيـزرانٍ منفـصلة، والذي يوحِّد خيوط النَّسيج ببعضِها.

25. الرِّيحُ، إذ تَمُرُّ عبرَ جلودِ الحيوانات، سوفَ تجعـلُ الإنـسان يرقُص.

أقصدُ مزمارَ القِرْبة الذي يحثُّ على الرَّقص[2].

26. **عن أشجار الجَوز التي تُضرَب.** تلك التي فاقت بحُسن تكوينها قريناتها، سوفَ تنهالُ عليها الضَّرباتُ أكثر، وسـوفَ تؤخَـذُ منـها ذرِّيَّتُهـا وتُجلَّدُ، أو بالأحرى تُسلَخ، وأمَّا عظامُها فتُحطَّمُ أو تُسحَق.

27. **عـن العمـلِ المنحـوت.** واحـسرتاه! مـاذا أرى؟ المخلِّـصُ يُصلَبُ من جديد.

28. **عن فمِ الإنسان، الذي هو قبرٌ.** جلبةٌ عظيمةٌ سوف تخرجُ من قبورِ أولئك الذين قضوا بِموتٍ بشعٍ وعنيف.

---

(1) قديماً كانت كراتُ القدم تُصنَع من جلد الحيوان وتُحشى بشَعرِه.

(2) مزمار القِرْبَة من آلات النَّفخ الموسيقيَّة، يتكوَّن من كيس جلدي (قِربة) مركَّبٌ عليه أنبوب مزمار واحدٌ أو أكثر، وغالباً ما يُستخدَم للرَّقصات الشَّعبيَّة، وهو موجودٌ منذ آلاف السِّنين حيث لا يُعرَف منشؤه بالضَّبط، ولا يـزال يُـستعمَل إلى يومِنا هذا.

29. عن جلود الحيوانات التي تحفظُ رِقَّةَ المشاعر المبثوثـةِ في النُّـصوص المكتوبـة. بقـدرِ مـا يُحـادِثُ المـرءُ الجلـودَ المكـسوَّةَ بالعواطف، ينالُ الحكمة[1].

30. عن الرُّهبان الذين يحملون خبزَ التَّقدمة في أجسادِهم. لَتَرَوُنَّ يومئذٍ عينَ اليقينِ كؤوسَ الخبـزِ القربـانيِّ المقـدَّس، الـتي فيهـا يقـيمُ جسدُ الرَّب، تسيرُ هي نفسُها في دروبٍ مختلفةٍ من الأرض.

31. والذين يأكلون العشبَ، يجعلون الليلَ نهاراً.

الشَّحم[2].

32. وجُلُّ مخلوقاتِ الأرض والماء لَتَرَوُنَّها صاعدةً وسطَ النُّجوم.

الكواكب[3].

33. وتَرَوْنَ الموتى يحملون الأحياء في مسالكِ الأرض.

العرباتُ والسُّفُن.

34. والقوتَ يؤخَذُ من أفواهٍ كِثار.

فُوَهِ الأفران.

35. وأولئك الـذين وصـل طعـامُهم إلى أفـواههم يُحرَمـون منـه بأيدي الآخرين.

الفرن.

---

(1) الإشارة هنا إلى الرُّقع الجلديَّة التي كانت تستخدَم للكتابة.

(2) انظر الحاشية في الصفحة 25.

(3) يقصد دائرة البروج التي يوجد على جانبيها حزامٌ عُرِفَ منذ القدم بدائرة الحيوانات ويَحتوي على البروج الاثني عشر المعروفة في علم التَّنجيم.

36. **عن تماثيل المصلوب المُباعة.** أرى المسيحَ من جديدٍ يُباعُ ويُصلَب، وأولياءَه يذوقون عذابَ الشَّهادة.

37. **عن الأطباء الذين يعيشون على المرض.** يأتي زمانٌ على النَّاس ينحطُّون فيه أبشعَ انحطاط، فيصفحون عمَّن يظفرُ بمنفعةٍ من آلامهم، أو مِن خسارتهم لثروتهم الحقَّة، أي الصَّحَّة.

38. **عن عقيدة الرُّهبان الذين يحيَون بفضلِ قدِّيسيهم المتوفَّين مِن عهدٍ بعيد.** أولئك الموتى، سوفَ يصبحون بعد ألف سنةٍ مصدرَ الرِّزق لكثيرٍ من الأحياء.

39. **عن تحويل الحجارةِ إلى جيرٍ تُحصَّن به السُّجون.** كثيرٌ من الأشياء التي سبقَ ودُمِّرتْ بالنَّار، سوفَ تجرِّدُ رجالاً كثيرين من الحريَّة.

40. **عن الأطفال الرُّضَّع.** جلُّ أتباعِ القدِّيسين الثلاثة: فرانسيس، دومينيك، وبِنِديتُّو، سوف يأكلون ما سبقَ وأكلَه آخرون في أزمنةٍ أخَر، بَينا ينتظرون بضعة أشهرٍ ليصبحوا قادرين على الكلام.

41. **عن الرَّخويَّات وحلازين البحر التي تتقيَّؤها الأمواج، ثمَّ تتفسَّخ داخل أصدافِها.** ما أكثر أولئك الذين من بعد موتِهم سوف يتعفَّنون داخلَ بيوتِهم، مالئين الهواء من حولِهم برائحةٍ مُنتِنة.

42. كلُّ الأشياء التي تختبئ في الشِّتاء تحت الثُّلوج، سوف يُرفَع عنها الحجابُ صيفاً وتُعرَّى.

هذا ما يُقال عن الكذب الذي عبثاً يخبِّئ نفسَه.

43. **عن العقاعق والزّرازير.** أولئك الذين يثقون بـالعيش قربَـه، ويؤلِّفون من حوله آنئذٍ زُمرةً عظيمـة، سـوف يموتـون ميتـةً وحـشيَّة؛ ويُرى الآباءُ والأمَّهـاتُ مـع سـلالاتهم تفترسُـهم وتقـتِّلُهم مخلوقـاتٌ متوحِّشة[1].

44. **عن القرويِّين الذين يعملون متَّشحين بالقمـصان.** سـتجيء ظلالاتٌ من الشَّرق، تطمسُ بظُلمةٍ دامسة السَّماءَ التي تغطِّي إيطاليا.

45. **عـن الحلاقـين.** جميـع البـشر سـوف يجـدون ملاذهـم في إفريقيا[2].

46. **رجماً بالغيب.** ضع الشُّهورَ بالتَّرتيـب ومعهـا الـشَّعائر الـتي تُصاحبُها، وكذا افعلْ في الليل والنَّهار.

47. **عن نشَّاري الخـشب.** لَيكـونَنَّ في الأرض رجـالٌ كـثيرون، يتحرَّك واحدُهم عكسَ الآخر، قابضين بأيديهم على الحديـد القـاطع. غيرَ أنَّ هؤلاء لا يجلب بعـضُهم لـبعضٍ أيَّ سـوءٍ أبعـدَ مِـن الإعيـاء، فكلَّما دفعَ رجلٌ نحو الأمام، سحبَ آخر نحو الوراء. لكنْ ويلٌ للـذي يحشرُ نفسَه بينهما، ذلك أنَّه ينتهي إرْباً إرْبا.

---

(1) كتبَ دافنشي هذه الفقرة المجازيَّة علـى هـامش إحـدى الرُّسـوم التَّخطيطيَّـة، ولعلَّ نصَّها يعبِّر عمَّا أرادَ دافنشي إنجازَه في الرَّسم، فهاء الغائـب في (قربـه) تعودُ إلى "لودفيك الموراي" امبراطور باري وميلانو من بعدها، أمَّـا العقـاعق والزَّرازير فتمثِّل بِطانته وحاشيته حيث يرمـز العقعـق إلى المخـادعين منـهم، ويرمز الزُّرزور إلى شعراء بلاطِه.

(2) لم يصل أحدٌ من الشرَّاح إلى فكِّ لغز العلاقـة بـين الحلاقـين وبـين نظـرة دافنشي إلى أفريقيا علـى أنَّهـا أرض الخيـالات اللامتناهيـة حيـث يحقِّـق الإنسان أحلامه.

48. **عن مغازل الحرير.** لَتَسْمَعُنَّ عويلاً موحِشاً، وعزيفاً مُزمهراً مُكرِباً، تصنعهُ الأصواتُ الجشَّاء المخنوقة لأولئك الذين سيُعرَّون غصباً، ويُتركون في مواضعهم عُراةً بلا حراك: ويكون ذلك بسبب المحرِّك الذي يديرُ كلَّ شيء.

49. **عن وضعِ الخبز في فم الفرن وسحبِه منه من جديد.** في كلِّ مدينةٍ، في كلِّ أرضٍ، في كلِّ قلعةٍ، قصرٍ، ومنزل، لَتَرَوُنَّ النَّاسَ يُخرِجون الطَّعامَ، جوعاً، مِن أفواهِ آخرين يعجزون تمامَ العجزِ عن صدِّهم.

50. **عن الأرض المحروثة.** لَتَرَوُنَّ الأرضَ عاليَها سافلَها يُجابه كلُّ وجهٍ نصفَ الكرةِ المعاكس، كاشفاً مكامنَ المخلوقات الأشدِّ هولاً.

51. **عن نثرِ البذار.** ومن كانَ يومئذٍ من النَّاس حيّاً، رمى خارجَ منزله ما ادَّخرَ مِن قبلُ من مؤونةٍ، فريسةً ممنوحةً للطَّير ووحوش الأرض بغير حسابٍ، ولا يلتفتُ إلى ما رمى أبداً.

52. **عن الأمطار التي تعكِّرُ الأنهارَ، بينما تجرفُ التُّرابَ بعيداً.** شيءٌ ما سيأتي من السَّماء، ينقلُ جزءاً عظيماً من إفريقيا المنبسطة تحت تلك السَّماء نحوَ أوروبا، وكمثله من أوروبا نحوَ إفريقيا، وكلُّ ذلك الذي ينفصل من أصقاع الأرض سوف يخالطُ بعضُه بعضاً في ثورانٍ عظيم.

53. **عن خشبِ الوقيد.** أشجارُ الغابات العظيمةِ وجَنَباتُها، سوف تنقلبُ رماداً.

54. **عن جيَّارات الطُّوب والجير**[1]. في النِّهاية سوف يحمرُّ التُّراب في محرقةٍ توقَدُ لأيَّامٍ طوال، وتصيرُ الحجارةُ إذَّاكَ رماداً.

---

(1) الجيَّارة عبارة عن أتون لحرق حجر الكلس وشَيِّ الطُّوب أو الآجر.

55. **عن الحيتان المسلوقة.** لَسَوف تموتُ مخلوقاتُ الماءِ في الماء المغليّ.

56. **عن الزَّيتون الذي يتساقط من شجرِ الزَّيتون ليرسلَ زيتاً يُستضاءُ به.** وأشياءٌ سوف تسقطُ بعزمٍ كبيرٍ من جهةِ السَّماء، تمنحُنا غذاءً ونوراً.

57. **عن الصَّدى والهامة[1] وما سوف يفعلان بالطُّيور العالقةِ بالدَّبَق.** كائناتٌ لا تُحصى سوفَ تموتُ بتهشيمِ رؤوسِها فُتاتاً منثوراً، وعيونٌ كثيرةٌ سوفَ تقفزُ من محاجرها، بسبب مخلوقاتٍ مخيفةٍ تخرجُ من الظُّلُمات.

58. **عن الكتَّان الذي منه صحائفُ الكتابة.** سوف يغدو مبجَّلاً ومشرَّفاً، وتكون وصاياه بمحبَّةٍ وتوقيرٍ مسموعةً، ذلك الذي كان في البدءِ مبتوراً، ممزَّقاً، ومعذَّباً، تحت خبطاتٍ كثيرةٍ مختلفة.

59. **عن الكتب التي تعلِّم الوصايا.** أجسادٌ بدون أرواح، سوف تمنحُنا بحكمتِها من الوصايا ما يجعلنا نموتُ في سلام.

60. **عن ساقطي أنفسِهم.** سوف يختبئ الرِّجال تحت لحاءِ الأشجار المسلوخة جاعلين من أنفسِهم شهداء إذ يسوطون أضلعَهم ذاتَها، فيما هم يستصرخون.

61. **عن الشَّهوة.** وسوف تعصفُ وتهيجُ المكنوناتُ الأشدُّ طُهراً، التماساً، وحيازةً، وصُنعاً لأدوارِها الأشدُّ فُحشاً، حيث ينقلبُ من بَعدُ تَلَفاً وندماً في دخيلةِ المرء ما كان مِن قبلُ انبهاراً جَمَّاً بالنَّفس.

---

(1) نوعان من البوم، مرَّ ذكرهما سابقاً.

62. **عن الجشع.** ويكثرُ في الأرض أولئك الذين، بإلحاحٍ وتوسُّلٍ قويَّين، يلتمسون تلك الأشياء التي لو عرفوا يوماً مقدار خبثِها، لاجتنبوها خوفاً على الدَّوام.

63. **عن أولئك الذين كلَّما ازدادوا عمراً ازدادوا جشَعاً، ولَكانوا أصبحوا طلقاءَ اليدَين لو قُصِّرَ في أعمارِهم.** لنجدنَّ أولئك الذين هم في عيوننا أوفرُ النَّاسِ علماً وحكمةً، إذا هم شعروا بأدنى الحاجةِ إلى شيءٍ، سعوا وراءَه وتكتَّموا عليه بِشرهٍ شديد.

64. **عن الأخدود.** إذ تحتشدُ الأفكار والانفعالات، يزداد اختلالُ العقلِ. حشودٌ كبيرةٌ سوف تنكبُّ على إزالةِ ذلك الشَّيء الذي بقدرِ ما سينقص سوفَ يكبرُ ويعظُم.

65. **عن الثِّقل المطبَّق على وسادةِ الرِّيش.** ولَتَرَوُنَّ أجساماً كثيرةً تتضخَّمُ بوضوحٍ إذ ترتفعُ الرُّؤوس، وبوضعِ الرُّؤوسِ المرفوعةِ من جديد، تتقلَّصُ حجومُها في الحال.

66. **عن التقاط القَمل.** ويكونُ هناك صائدو طرائد كثيرون، إنْ تقلَّ طرائدهم يلتقطون منها أكثر؛ وبعكسِ ذلك، إنْ تكثُر يلتقطون أقل.

67. **عن سحبِ الماء بِدلوَين وحبلٍ واحد.** وكثيرون سوف يظلُّون منهمكين، ذلكَ أنَّهم كلَّما سحبوا من ذلك الشَّيء أكثر، هربَ منه مِن الجانب المعاكسِ أكثر.

68. **عن اللحمِ المقدَّد الذي تُحشَى به المُصران.** مخلوقاتٌ لا تُحصى سوف تجعلُ من مصارينِها بيوتاً لها وتسكنُ فيها[1].

---

(1) المُصران جمع مَصير، بمعنى الأمعاء، وجمعُ الجمع مَصارين، والمَصير يُجمَع كذلك على أمصِرة، والإشارة عند دافنشي هنا إنَّما هي إلى لحم السُّجق أو النَّقانق.

69. **عن ألسنةِ الخنازير والعجول داخلَ المُصران.** أوه! يا له أمراً مقزِّزاً، أنْ يُرَى لسانُ حيوانٍ مُولَجاً في دُبرِ آخَر.

70. **عن الغرابيل المصنوعة من جلود الحيوانات.** لَسوفَ نرى طعامَ الحيوانات يمرُّ عبرَ جميعِ أنحاءِ جلودِها خلا الأفواه، ثمَّ ينفذُ من الجهةِ المعاكسة ليسقطَ نحوَ الأرض.

71. **عن مِشكاواتِ المصابيح.** القرونُ الوحشيَّةُ للثِّيران المهيبة سوف تحمي أنوارَ الليل مِن غضب الرِّياح الهادرة[1].

72. **عن سُرُرِ الرِّيش الوثيرة.** مخلوقاتٌ مجنَّحة سوف تحملُ البشرَ بريشِ أجسادِها.

73. **عنِ السَّائرين على الأشجار: مُتعلي القباقيب.** سيكون في الأرضِ وحلٌ كثير، فيمشي البشر على أشجارِ بلادِهم.

74. **عن النِّعال المصنوعة من جلود الثِّيران.** وتَرَون البشرَ في أنحاءِ الأرض يسيرون على جلودِ حيواناتٍ كبيرة.

75. **عن المِلاحة.** سوفَ تنبعثُ رياحٌ عظيمة، تصيرُ بإذنِها أشياءُ الشَّرق أشياءَ الغرب؛ وكلُّ شيءٍ في الوسَط سيتبعُ الرِّياحَ إلى أصقاع بعيدةٍ بعيدة إذ يدخلُ في مجراها المدوِّم.

76. **عن تعبُّدِ رسومِ القدِّيسين.** سوف يتحدَّثُ البشرُ إلى بشرٍ لا يُصغون؛ عيونُهم مفتوحةٌ لكن لا يرون؛ إلى هؤلاء يتحدَّثون ولا يُجابون؛ يسألون الغفرانَ والمِنَّة رجالاً لهم آذانٌ ولا يسمعون؛ شموعاً للعُمْي يوقدون.

---

(1) انظر الفقرة رقم 20 وحاشيتَها من هذا الباب.

77. **عن الأحلام.** سوف يمشي النَّاسُ دون أن يتحرَّكوا؛ سوف يتحدَّثون إلى مَن ليس حاضراً؛ ويسمعون حديثَ مَن لا يتكلَّم.

78. **عن الظِّلِّ الذي يُصاحب المخلوق.** لَتَرَوُنَّ صورَ البشرِ والحيوانات وأشكالَها تَتْبَعُ أولئك البشر وتلك الحيوانات أينما هربوا: ومثلما يتحرَّك أحدُ القرينَين، بالضَّبط يتحرَّكُ الآخر؛ لكنَّ الأروع من هذا وذاك هو تنوُّع الحجوم التي تنتحلُها تلك الأشكالُ والصُّور.

79. **عن ظلالنا المنحوتة بالشَّمس، وانعكاسِ صورِنا في الماءِ في ذاتِ الوقت.** كم مرَّةً سترون الإنسانَ نفسَه يصيرُ ثلاثة، والثَّلاثة يتحرَّكون على منوالٍ واحد: وفي كثيرٍ من الأحوال، أكثرهم واقعيَّةً هو مَن يهجرُ الآخَرَين.

80. **عن خزائن الخشب التي تصون كنوزاً جَمَّة.** في صميمِ شجرِ الجَوز وداخلَ أشجارٍ ونباتات أخَر سوفَ تعثرون على كنوزٍ عظيمة، تُبقون عليها مخبوءةً ومحروسةً هناك.

81. **عن إطفاء المصابيح ساعةَ الخلودِ إلى النَّوم.** كثيرون إذ ينفثون أنفاسَهم بسرعةٍ كبيرة، سوف يفقدون البصرَ في الحال، ثمَّ لا يلبثون أن يفقدوا جميعَ مداركهم.

82. **عن أجراسِ البِغال المعلَّقة إزاءَ آذانِها.** لَتَسمعُنَّ في سائرِ أصقاع أوروبا ألحاناً منوَّعةً تصنعُها آلاتٌ مختلفٌ أحجامُها، وبشقِّ الأنفسِ يسمعُها ذلك الأقربُ إليها.

83. **عن الحمائر**[1]. أشدُّ الكَدحِ سوفَ يُجزَى بالجوعِ والعطش، بالضَّنك والضَّرب، بالسَّوط واللعنات، وبِجَورٍ عظيم.

---

(1) جمع حمار، ومن جموعه أيضاً أحمرة وحمير وحُمْر وحُمُر.

84. **عن الجنودِ على صهواتِ الجياد.** لَتَرَوُنَّ رجالاً لا يُحصَون تحملُهم حيواناتٌ كبيرةٌ، سريعةُ الخَطوِ، نحوَ حتوفِهم عند موتٍ جدٌّ مستعجِلٍ.

في الهواءِ وعلى الأرض، لَتَرَوُنَّ حيواناتٍ مختلفٌ ألوانُها تحملُ الرِّجالَ باندفاعٍ عظيمٍ نحوَ حتوفِهم.

85. **عن المناخس النَّجميَّة**[1]. ولَتَرَوُنَّ الرِّجالَ، بمعونةِ النُّجوم، يصيرون خفافَ الحركة كأيٍّ حيوانٍ سريع.

86. **عن العصا، التي هي خشبٌ ميتٌ.** حركاتُ الأموات ستجعلُ جُلَّ الأحياء، بألمٍ ودموعٍ وصراخٍ، يهربون.

87. **عن قدحِ الصَّوَّان.** بالحجرِ وبالحديد، سوف تغدو مرئيَّةً الأشياءُ التي لم تكن لِتُرَى مِن قبل.

88. **عن الثِّيران التي تُجعلُ مأكلاً.** لَسَوفَ يأكلُ المالكُ لحمَ مملوكِه الذي يكدحُ لأجلِه.

89. **عن سَوطِ الفِراشِ بغيةَ تجديده.** سوفَ يفقدُ البشرُ كلَّ عرفانٍ بالجميل، وينقلبون على الذي أعطاهم المأوى من غيرِ مُقابل؛ سوف ينهالون عليه بالعصيِّ حتَّى تَخرُجَ جلُّ أحشائه من مواضعها، وتنقلبَ منتفشةً في أنحاء جسدِه[2].

90. **عن الأشياء التي تؤكَل، بعد أن تُقتَل.** الذي هو مأكلٌ لهم سوفَ يقتلونه بأيديهم، مُنزلين به أشنعَ المِيتات.

---

(1) المهاميز النَّجميَّة الشَّكل التي تكون في مؤخِّرة أحذية الفرسان ينخسون بها بطون أحصنتهم، لكي تنطلق.

(2) يتحدَّث عن حرفة التَّنجيد.

91. **عن انعكاسِ صورةِ أسوار المدن في مياهِ خنادقِها.** سَتَرَوْن أسوار المدنِ العظيمةِ الأكثر عُلواً مقلوبةً رأساً على عقب في خنادقها.

92. **عن المياه التي تسيلُ عكِرةً، ممزوجةً بالتُّراب والغبار؛ وعن الضَّباب الممزوج بالهواء؛ والنَّارِ الممزوجةِ بِحَرِّها، وكلٌّ بِكُل.** لَتَرَوُنَّ جميع العناصر ممزوجةً معاً في دُوَّامةٍ عظيمةٍ، تارةً تمضي صوبَ مركزِ العالَم، وتارةً صوبَ السَّماء؛ طوراً تندفع بعنفٍ من الجنوبِ صوبَ الشَّمال المتجمِّد، وطوراً من الشَّرقِ صوبَ الغرب، وهكذا يكونُ مِن أحدِ نِصفَي الكرةِ إلى نصفِها الآخر.

93. **مِن الممكن قسمةُ الأرضِ نصفين في أيٍّ نقطةٍ منها.** كلُّ إنسانٍ سوفَ ينتقلُ فجأةً من أحدِ نِصفَي الكرةِ إلى الآخَر.

94. **يُمكن فصلُ الشَّرق عن الغرب في أيٍّ نقطةٍ.** جميعُ المخلوقاتِ سوف تنتقلُ من الشَّرق إلى الغرب؛ وكذا من الشَّمال إلى الجنوب، وبالعكس.

95. **عن حركةِ الماء التي تحملُ أخشابَ البناء المَيتة.** أجسادٌ لا روح فيها سوف تتحرَّك من تلقاء نفسِها، وتشيلُ معها أجيالاً لا تنقطع من الأموات، سالبةً الأحياء ثرواتِهم.

96. **عن البَيض الذي لن يصيرَ فِراخاً إذ يؤكَل.** أوه! ما أكثر الذين سيُحرَمون الولادة!

97. **عن الأسماك التي تؤكَل بَطْرَخاً**[1]. سُلالاتٌ لا حصرَ لها سوفَ تضيعُ بموتِ الحبَالى.

---

(1) البَطْرَخ، جمعه بطارِخ، هو الكافيار ويُحصل عليه من إناث السَّمك الحُبْلَيات بعدَ صيدِها وشقٍّ بطونِها.

98. **عن الحيوانات التي تُخصَى.** طائفةٌ كبيرةٌ من الجنس المذكَّر سوفَ تُحرَمُ النَّسلَ، إذ تُقطَعُ خُصاها.

99. **عن الحيوانات التي يُصنَعُ من لبنها الجُبن.** سوفَ تُنزَعُ الحلماتُ من أفواهِ الصِّغار[1].

100. **عن السُّجق المصنوع من لحم أنثى الخنزير.** جُلُّ الإناث اللاتينيَّات سوف تُنزعُ أثداؤهنَّ، ومعها حيواتُهنَّ: ولَسَوفَ يُقتَلنَ مع صغارهنَّ الذين لم يخرجوا من أرحامهنَّ[2].

101. **عن النَّحيب ليلةَ الجمعةِ العظيمة.** في جميعِ أنحاءِ الغرب سوف تنتحبُ الأمم الكبرى على موتِ رجلٍ واحدٍ من الشَّرق.

102. **عن مقابض المُدْياتِ المصنوعةِ مِن قرون الكِباش.** لَتَرَوُنَّ الحديدَ القاطعَ في قرونِ البهائم، وبهِ ينتزعُ أبناء الجنسِ الواحدِ حيواتِ بعضهم.

103. **عن الليل، عندما لا تَبينُ الألوان.** تأتي ساعةٌ لن يَميزَ فيها الإنسانُ لوناً مِن آخَر، بَل تصيرُ جميع الألوان في عينيه من طائفةِ الأسْوَد.

104. **عن السُّيوف والرِّماح التي لا تضرُّ أحداً من تلقاء نفسِها.** ذلك الذي هو، في حدِّ ذاته، رقيقٌ ونقيٌّ من كلِّ جُرم، سوف يغدو ضارياً ومُرعباً إذ يحظى بصُحبةٍ أثيمة، وبوحشيَّةٍ مُفرطة سوف ينزعُ

---

(1) التَّرجمة الحرفيَّة لهذه العبارة: "سوفَ يُقطَعُ الحليبُ عن أفواه الصِّغار".

(2) الجملة الأخيرة: "يُقتَلنَ مع صغارهنَّ الذين لم يخرجوا بعدُ من أحشائهنَّ" أضافها دافنشي إلى هذه الفقرة في وقتٍ لاحق كفكرة متأخِّرة، وهي تردُ في عددٍ قليلٍ من المراجع.

الحياةَ من صدورٍ لا تُحصى، ولَيُقَتِّلَنَّ مزيداً من الرِّجال إذا لم تصدَّه دونَهم أجسامٌ بلا أرواح تخرجُ من بطونِ الكهوف، ألا وهي:

دروعُ الحديد[1].

105. **عن المصائد والفِخاخ.** أمواتٌ[2] لا حصرَ لهم سوف يتحرَّكون بِهياج، ليقبضوا على الأحياء ويقيِّدوهم، وسوف يَحفظونهم عندَهم حتَّى مجيء أعدائِهم الذين يَنشُدون موتَهم وهلاكَهم.

106. **عن المعادن.** لَيَخرُجَنَّ من بطون الكهوف المُظلمة والدَّامسة ما يجلبُ على الجنسِ البشريِّ بأجمعه الحزنَ والهلعَ والهلاك؛ فكلُّ مَن يَتشيَّعُ له يومئذٍ، بعدَ أحزانٍ كبيرةٍ ينالُ به السُّرور؛ وكلُّ مَن يرفضُ نُصرتَه يَهلكُ قُدَّامَ الفجائع والخطوب. لَسوفَ يُفضي ذلك الشَّيء إلى اقتراف خياناتٍ لا تنتهي، ولَسوفَ يُضاعفُ أعدادَ الآثمين ويحرِّضهم على القتل غِيلةً، وبسببِه سوف يرتابُ كلُّ امرءٍ في نصيرِه. سوف يسلبُ المدائنَ الحرَّةَ رخاءَها؛ سوف يقتلعُ حيواتٍ لا تُحصى؛ وسوف يجعلُ النَّاسَ يعذِّبُ بعضُهم بعضاً بمهاراتٍ وخُدَعٍ وأضاليل كثيرة. أوه، أيُّها الكائن الوحشيُّ! لَخَيرٌ للنَّاسِ أن تعودَ إلى قعرِ جحيمك! أنتَ يا مَن بعونكَ تصيرُ الغاباتُ الرَّحيبةُ قفراً، ومخلوقاتٌ لا متناهية تصيرُ بعونِكَ جثثاً مُلقاة.

107. **عن النَّار.** لَتَرَوُنَّ شيئاً يولَدُ من بادئاتٍ صغيرة، ثمَّ لا يلبث أن يصير مارداً مهيباً؛ شيئاً لن يُقيم اعتباراً لِحُرمَة التَّكوين في أيِّ مخلوقٍ، بل على العكس، سوف يحوِّلُ بِجبروتِه طبيعةَ كلِّ شيءٍ إلى طبيعةٍ أُخرى.

---

(1) يقصد ببطون الكهوف أكوارَ الحدادة.

(2) يقصد بالأموات المصائد والفِخاخ باعتبارِها جماداتٍ لا روح فيها.

108. **عن المراكِب التي تغرق.** لَتَرَوُنَّ أجساداً عظيمةً لا حياةَ فيها تَحملُ، بسرعةٍ جامحة، زُمراً من البشر إلى لقاءِ حتفِهم.

109. **عن كتابةِ الرَّسائل من بلدٍ إلى آخَر.** سوفَ يحدِّثُ البشرُ بعضَهم من أقصى الأرضِ إلى أقصاها، ولَسَوفَ يُجابون.

110. **عن أنصافِ الكرة اللامتناهية، والتي كلُّ نصفٍ منها مفصولٌ عن نصفه بعددٍ لا متناهٍ من الخطوط، حيثُ لكلِّ إنسانٍ خطٌّ واحدٌ منها بينَ قدَمَيه.** النَّاسُ الواقفون بين نصفَي الكرة المتعاكسَين سوف يحدِّثُ بعضُهم بعضاً، ويلمسُ ويعانقُ بعضُهم بعضاً، ويفهمُ كلٌّ لغةَ الآخَر.

111. **عن القسِّيسين الذين يتلون القدّاس.** لَيكونَنَّ في الأرض رجالٌ كثيرون، إذا هم شرعوا بأداءِ عملِهم لبِسوا أنفَسَ ما عندَهم؛ ويكونُ لِباسُهم مصنوعاً على طرازِ المَرايِل.

112. **عن كَهَنةِ الاعتراف من الرُّهبان.** ولَيَكونَنَّ في الأرض نساءٌ شَقيّات، يمضين إلى الرِّجال بمحضِ إرادتهنَّ، لِيجهرنَ لهم بِشهواتهنَّ، وبجميع أعمالهنَّ السِّرِّيَّةِ المُخزية.

113. **عن الكنائس ومنازل الرُّهبان.** كثيرون سوفَ يتركون شؤونَ الحياةِ وأشغالَها وبؤسَها، زاهدين كذلك بالمَتاع والحاجات، ويمضون للعيش في أحضانِ التَّرَف داخلَ صروحٍ فخمةٍ باهرة، مصرِّحين بأنَّ ذلك هو السَّبيلُ الأمثل لإرضاء الرَّبِّ.

114. **عن بَيع الفردوس.** رجالٌ لا يُحصى عديدُهم سوف يبيعون جَهاراً وباطمئنانٍ أشياءَ لا تقدَّرُ بثمن، دون رُخصةٍ ممَّن يملكُها، أشياءَ ما كانت يوماً ملكاً لهم ولا خاضعةً لسلطانِهم؛ ولن تحولَ العدالةُ البشريَّةُ دون ذلك.

115. **عن الموتى الذين يُحمَلون لكي يُدفنوا.** يا لَحُمقِ البشر، يا لَجنونِ الأحياء! شعوبٌ من المغفَّلين سوف ترفعُ أنواراً لا تُعدُّ ولا تُحصى لكي تضيءَ طريقَ أولئك الذين فقدوا نعمةَ الرُّؤية إلى الأبد.

116. **عن مهورِ الفتيات.** وحيثُ، في الأصلِ، مُحالٌ أن يُحمى اليفاعُ الأنثويُّ من عنف الشَّهوة الذُّكوريَّة، لا باحتراسِ الأبوَين، ولا بقوَّةِ الأسوار، فسوفَ يَأتي زمانٌ يدفعُ فيه أهلُ الفتياتِ وآباؤهنَّ، مُرغَمين، أثماناً كبيرة لمن يرغبُ في النَّوم مع بناتهم مِنَ الرِّجال، مهما يكنِ هؤلاء أثرياء، نبلاء، وفائقي الوسامة. حقّاً، لَيَبدو لي كما لو أنَّ الطَّبيعةَ تشتهي اجتثاثَ الجنس البشريِّ على أنَّه عديمُ النَّفعِ للعالَم، ومُتلِفٌ لِجميعِ الأشياء المبتكَرة.

117. **عن وحشيَّةِ الإنسان.** لَتَرَوُنَّ على وجه الأرضِ حيواناتٍ تكونُ على الدَّوامِ في قتالٍ مع بعضها، وكلُّ طرفٍ منها يُمنى بخسارات كبيرةٍ ومَنِيَّاتٍ ثقيلةٍ متواصلة. هؤلاء، لن يكون ثمَّةَ نهايةٌ لشرورِهم؛ بأطرافِهم القويَّة سوفَ تُسَوَّى بالأرضِ أشجارٌ لا تُحصى من غاباتِ الكون الشَّاسعة؛ وعندما يُتخَمون بالطَّعام سوف يَنشدون إشباع رغباتِهم الأُخَر بِمنحِ الموتِ والحزن والشَّقاء والخوف والزَّوال لكلِّ ذي روح؛ ولِغطرستهم التي لا حدَّ لها سوف يرغبون بالصُّعود نحو السَّماء، غيرَ أنَّ ثقلَ أطرافِهم المفرِط سوف يُبقيهم في الأسفل. لن يبقى شيءٌ فوق الأرض، ولا تحتَ الأرضِ، أو تحتَ المياه، إلا وسوفَ يُضطهَد، يُنتَهَكُ نظامُه ويُخَرَّب، وما هو مُلكٌ لهذا البلد يُقصَى إلى ذلك البلد؛ وتكونُ أجسامُهم مقابرَ ومعابرَ لجميعِ قتلاهم[1].

---

(1) راجع الفقرتين رقم 80، 111 من الباب الأوَّل لمعرفة ما يقصده بقولِه: "وتكون أجسامُهم مقابرَ ومعابرَ لجميعِ قتلاهم".

آهِ أيَّتها الأرض! ما لَكِ لا تنشقِّين وتبتلعينـهم في فُـوَهِ الهاويـاتِ والصُّدوعِ العظيمة، فلا تُطلِعين بعدَ اليوم في وجهِ السَّماءِ وحشاً رهيبـاً وبغيضاً مِن مثلِ هذا.

118. **عن الإبحار.** لَسَوفَ نرى أشجارَ الغاباتِ العظيمةِ لِطوروس وسيناء والأبينيني[1] وأطلس مُساقةً بعزمِ الهواء مِن الـشَّرق إلى الغـرب ومِن الشَّمال إلى الجنوب، حاملةً معها عبرَ الهواء حـشوداً هائلـةً مـن البشر.

أوه، كَم مِنَ النُّذور! أوه، كَم مِنَ الحتوف! أوه، كَـم مِـنَ الفِراقاتِ بين الأهل والأخلَّاء! أوه، ما أكثـر أولئـك الـذين لـن يروا مرَّةً أخرى بلدانَهم ولا مساقطَ رؤوسِـهم؛ مـا أكثـر الـذين سـيموتون مـن غـيرِ دفـنٍ، وعِظـامُهم مبعثـرةٌ في شـتَّى أرجـاءِ العالَم!

119. **عن النُّزوحِ في عيد جميـعِ القدِّيـسين**[2]. كـثيرون سـوف يهجرون منازِلَهم، حاملين معهم كـلَّ متـاعِهم، ويـذهبون للعـيش في بلادٍ أخرى.

---

(1) هـي سلـسلة جبـال تمتـدُّ مـن شمـال إيطاليـا إلى جنوبهـا علـى طـول السَّاحل الشَّرقي.

(2) يعود تاريخ أوَّل احتفال بهـذا العيـد إلى عـام 835م عنـدما جعلـت الكنيـسة الكاثوليكية يوم الأول من شهر تـشرين الثـاني/ نـوفمبر عيـداً كنـسيَّاً لتكـريم جميع القدِّيسين المعروفين وغير المعروفين لئلَّا يُنسى أحدٌ منهم بحسب البابا أوربانوس الرابع؛ وتحتفل الكنائس الشَّرقيَّة بهـذا العيـد في اليـوم الأوَّل مـن زمن العنصرة.

120. **عن يومِ جميعِ الموتى**[1]. وما أكثر الذين سيذرفون الدَّمع في نهارٍ واحدٍ على أسلافِهم الموتى، حاملين إليهم الشُّموعَ والسُّرُج.

121. **عن الرُّهبان الذين مقابل إنفاقِ الكلمات فحسب، يتلقَّون الهدايا النَّفيسة ويمنحون الفردوس.** نقودٌ لا مرئيَّةٌ سوف تعودُ بالظَّفَرِ على كثيرين ممَّن سوف يُنفقونها[2].

122. **عن أقواس النُّشَّاب المصنوعةِ من قرونِ الثِّيران.** كم من الرِّجال سوف يموتون ميتةً مؤلِمة بقرونِ البقريَّات.

123. **عن المسيحيِّين.** ما أكثر الذين يعتصمون بعقيدةِ الابنِ، ويرفعون المعابدَ فقط باسمِ الأم.

124. **عن الطَّعامِ الذي كان حيّاً.** قَدْرٌ كبيرٌ من الأجسادِ التي كانت مِن قبلُ حيَّةً سوف يَنفُذُ إلى أجسامِ حيواناتٍ أخرى: بتعبيرٍ آخَر، البيوتُ المهجورةُ سوف تدخلُ فِلذةً فلذة في البيوت المسكونة، حاملةً إليها النَّفعَ، مع ما يُضمره من الخبائث.

لأجل هذا يُمكن القولُ أنَّ حياةَ الإنسان مَصوغةٌ من أشياءَ مأكولة، وهذه الأشياء تحملُ في ذاتِها ذلك الجزءَ المَيْتَ من الإنسان.

125. **عمَّن ينامون في العرازيل.** سوف ينامُ النَّاسُ ويأكلون ويسكنون وسطَ الأشجار، سواءٌ في الحراجِ أو في الأرياف.

---

(1) وهو يقع في اليوم التَّالي لعيد جميع القدِّيسين، حيث بدأ الاحتفال به عام 998م، ويُعتبَر عيداً رسمياً في تقويم الكنيسة الكاثوليكيَّة وتُقام فيه ثلاثة قداديس، أحدها لأجل الكاهن المحتفِل، وواحدٌ لأجل المتوفَّى، وواحدٌ لأجل البابا.

(2) يقصد بالنقود اللامرئيَّة كلمات الرُّهبان.

126. **عن الأحلام.** لَسَوفَ تلوحُ للبشرِ انهدامات ٌعجيبةٌ في قبَّةِ السَّماء، فَيَرَون اللهبَ صاعداً وهاطلاً من صدوعٍ سماويَّةٍ وهو يرتعد. سوف يسمعون الحيوانات من كلِّ جنسٍ ونوعٍ تنطقُ بلغةِ الإنسان. سوف يبلغون في طرفةِ جفنٍ شتَّى أصقاع الأرضِ، من دونِ الإتيان بحركة؛ وفي قلبِ الظُّلمات سوف يَرَون إشراقاتٍ بهيَّةً عُظمى. أوه، أَيَّتها الأعجوبةُ المسمَّاة بالجنسِ البشري! أيُّ فَورةِ خَبَلٍ أصابتكِ؟ تكلِّمين البهائم من كلِّ صنفٍ فتردُّ عليكِ الكَلِمَ بلسانِ البشر. آه أنت! سوفَ ترينَ أنَّكِ تسقطين من علوَّاتٍ عظيمةٍ دون أن يمسسكِ ضُرٌّ، ولَسَوفَ تجرفكِ السُّيول وتُخلِّطُكِ بفيضِها الدَّفَّاق.

127. **عن النَّمل.** لَتكونَنَّ في الأرض أممٌ لا حصرَ لها، تواري نفسَها وذرِّيَتَها ومؤونتَها داخلَ شقوقٍ مُظلمة؛ وهناكَ، في تلك الظُّلمات، سوفَ تغتذي وتغذِّي عائلاتِها لشهورٍ عديدةٍ دونَ أيِّ ضوءٍ، صُنعيَّاً كانَ أو طبيعيَّاً.

128. **عن النَّحل.** وتكونُ، كذلك، أممٌ أخرى عظيمةٌ تُجَرَّدُ مِن مؤنِها وطعامِها؛ وبوحشيَّةٍ، وبلا منطقٍ، تُغمَرُ بالماءِ وتُغَرَّق على يدِ الإنسان. آهِ أيُّها العدلُ الألوهيُّ! ما لكَ لا تستيقظ وتنظر إلى مخلوقاتك كيفَ تُهان؟

129. **عن الخِراف، الأبقار، المعاز، ومثيلاتها.** أعدادٌ لا نهائيَّةٌ من المخلوقات سوفَ تؤخَذ منها ذريَّاتُها قهراً، فتُشَقُّ بطونُها وتُسلَخُ جلودُها، وبِبربريَّةٍ تفوقُ الوصفَ، تُقطَّعُ إلى أرباع.

130. **عن ثمارِ الجوز، الزَّيتون، البلُّوط، الكستناء، ومثيلاتِها.** ذُرِّياتٌ لا تُحصى سوفَ تُنتَزَعُ بالضَّربِ الوحشيِّ مِن أذرعِ أمَّهاتِها، فيُقذَفُ بها أرضاً وتُسحَق.

131. **عن الأطفال الذين يُلَفُّون بالأقمطة.** آهِ يا مدائنَ البحر! أرى أبناءَكِ، ذُكراناً وإناثاً، مقيَّدةً بإحكامٍ أذرعهم وأرجلهم، بأيدي قومٍ لا يفقهون لغتهم؛ ولن يكون بمقدورِ الموثَقين البوحُ بآلامِهم وبحزنهم على حريَّتهم المفقودة إلا بالعويل الدَّامع وبالزَّفراتِ والأنين المُسارِّ بينهم وبين أنفسِهم، ذلك أنَّ مُوثِقيهم لن يفقهوا كلامَهم، ولا هؤلاء سيفقهون كلامَ أولئك.

132. **عن السَّنانير التي تقتاتُ بالفئران.** فيكِ، يا مدائنَ إفريقيا، سوفَ نرى مواليدَكِ ممزَّقي الأجسادِ في عقرِ دُورِهم، مِن قِبَلِ مخلوقاتِ أرضكِ الأكثر وحشيَّةً وفتكاً بين المخلوقات.

133. **عن الحُمُرِ المضروبةِ بالعصا.** آهِ أيَّتها الطَّبيعةُ المؤسِّسة! لماذا جُعلت مُحابيةً لكائنٍ دون آخَر؛ تكونين لبعضِ أبنائك أكثرَ حنوّاً من أمٍّ رؤومٍ، ولبعضهم أكثر قسوةً من زوجةِ أبٍ لا ترحم؟ إنِّي أرى أبناءً لكِ يوهَبون لخدمةِ آخرين دون أيَّةِ منفعةٍ في المقابل؛ وبدلَ أن يؤجَروا خيراً على الخير الذي يؤدُّونه، يُعاقبون بأقسى العذابات، وينفقون حياتَهم في خدمةِ أولئك الذين يسيئون معاملتهم.

134. **تقسيم النُّبوءات.** أوَّلاً، عمَّا يتعلَّق بالمخلوقات المعقولة؛ ثانياً، عمَّا يتعلق بالمخلوقات اللامعقولة؛ ثالثاً، عن النَّباتات؛ رابعاً، عن الطُّقوس والشَّعائر؛ خامساً، عن العادات؛ سادساً، عن حالاتٍ أو قراراتٍ أو مشكلات؛ سابعاً، عن حالاتٍ تُخالفُ الطَّبيعة في الظَّاهر [لكنَّها تُبطِنُ الحقيقة]، كالحديث عن "تلك الأشياء التي كلَّما نقُصتْ كبُرَتْ وعظُمَت"؛ ينبغي التَّكتُّم على الأفكار العظيمة الشَّأن حتَّى نهاية الفقرة، والبوحُ بالأفكار

الصَّغيرة الشَّأن في البداية؛ ولتُعرَضْ الشُّرور أوَّلاً ومن بعدِها القِصاص. ثامناً، عن مسائل فلسفيَّة[1].

135. **عن الفروض، المآتِم والمواكِب، الشُّموع والأجراس، والتَّابعين.** تشريفاتٌ عظيمةٌ سوفَ تُقدَّمُ للبشر، مصحوبةً بطقوسِ أبَّهاتٍ فخمة، دون أن يدركوا هم أنفسهم ذلك[2].

136. **أمرٌ شائع.** لَتَرَوُنَّ الخاضعَ الذَّليلَ يتزلَّفُ إليه الآخرون، ودائماً يكون متزلِّفوه همُ المخادعين سارقي وقاتلي هذا البائسِ المتزلَّفِ إليه.

137. **قوَّةُ قرصِ الشَّمس.** سوفَ يطلعُ عليكم شيءٌ، مَن يحسبْ منكم أنَّه قادرٌ على حجبِه، يكُنْ محجوباً به.

138. **عن النَّقد والذَّهَب.** لسوفَ يخرجُ مِن التَّجاويف الكهفيَّة[3] ما يجعلُ جميعَ الأممِ تكدُّ وتتعرَّق تحتَ سياط العذابِ والجُهدِ والقلق، من أجلِ أن تشدَّ به أزرها.

---

(1) أرادَ دافنشي بهذه الفقرة دليلَ تبويبِ لنبوءاتِ هذا الفصل، ولكنَّ أكثر النَّاشرين لم يلتزموا بها، في حين نجد في الترجمة الانكليزية لجان بول ريختر إلتزاماً حرفيَّاً بذلك، حيث يضع هذه الفقرة في بداية فصل "النُّبوءات" ويُلحقُ بها بقيَّة الفقرات وفقاً لرؤية دافنشي، وربَّما لم يكن ذلك جهداً شخصيَّاً منه وإنَّما اعتماداً على طبعةٍ قديمةٍ لأعمال دافنشي الأدبيَّة، وقد رأينا نحن أن نُبقي على الترتيب تماماً مثلما جاء في طبعة ميلانو، ريتسولي، 1974.

(2) يشير جان بول ريختر إلى أنَّ هذه الفقرة مكتوبة بخط أكبر وبطريقة مختلفة نوعاً ما عن الفقرات الأخرى المكتوبة على نفس الصَّحيفة، وأنَّ لحبرها درجة لونيَّة مختلفة أيضاً، وهذا ما تبيِّنه النسخة الأصليَّة الموجودة في ميلانو.

(3) يقصد المناجم.

139. **عن هَول الفقر.** سوف يثيرُ ذلك الخبيثُ الرَّهيبُ الهلعَ في قلوب النَّاس، فيندفعُ هؤلاء معاً بأقصى سرعةٍ، كمثلِ المجانين، حاسبين أنَّهم بمنجاةٍ من بأسِه المُطلَق.

140. **عن النَّصيحة.** أمَّا مَن يكون في غايةِ الضَّرورة لِمن هو في أمسِّ الحاجةِ إليه، فسوفَ يُجزى بالجُحود والنُّكران، وبالامتهان.

141. **عن التَّنبُّؤ.** ولَسَوفَ يُخصَى جميعُ المنجِّمين.

أقصدُ الدُّيوك[1].

142. سوف أنطقُ بكلمةٍ واحدةٍ، أو باثنتين، أو بعشر كلماتٍ أو أكثر، كما يحلو لي، وأريد حينئذٍ أنْ ينطقَ ما يربو عن الألفِ شخصٍ بنفسِ تلك الكلمات وفي نفسِ الوقتِ، أي عليهم قولُ ما أقولُه بالتَّزامن التَّامِّ معي، ودون أن يَروني أو يسمعوا ما قد أقول.

هذا فعلُ الوقتِ عندما تُحصيه، فحين تنطقُ بالسَّاعة، يكون جميع أولئك الذين أحصَوا الوقتَ مثلك قد نطقوا بنفسِ الرَّقم الذي نطقتَ به وفي نفسِ الوقت.

143. **عن الثَّعابين محمولةً من اللقالق.** لَتَرَوُنَّ ثعابينَ عظيمةَ الطُّول، عندَ عُلوَّاتٍ كبيرةٍ، تقاتلُ الطَّيرَ في السَّماء.

144. **عن القذائف التي تخرجُ من الخنادقِ والحُفَر.** سوفَ يخرجُ من تحتِ الأرضِ ما يصعقُ بِدُويِّه المروِّع جميعَ مَن حولَه، وبأنفاسِه يُهلِكُ البشر، ويقوِّضُ القِلاعَ والمُدُن.

---

(1) كان فلَّاحو إيطاليا القدماء يتنبَّؤون بالطَّقس بمراقبة سلوك ديوكهم المخصيَّة، حيث اعتقدوا مثلاً أنَّه إذا صاح الدِّيك فوق تلَّة قش فإنَّ الطَّقس سوف يتبدَّل إلى الأسوأ.

145. لَسَوفَ يُبادُ غَرَقاً مَن يمنحُ النُّورَ لشعائرِ القدَّاسِ الإلهيِّ.

النَّحلُ الذي يَبني بيوتاً تُصنَعُ منها الشُّموع.

146. ولَسَوفَ يخرجُ الأمواتُ مِن باطنِ الأرض، وبِحركاتِهم الجامحة سوفَ يُرسِلون أعداداً لا تُحصى من البشر إلى خارجِ الدُّنيا.

الحديدُ المُستخرَجُ مِن باطن الأرض جمادٌ مَيْتٌ، لكنَّ البنادق المصنوعةَ منه تقتلُ بشراً لا حصرَ لهم.

147. كلُّ الجِبال العظيمة، بما فيها تلك البعيدة عن السَّواحل البحريَّة، سوفَ تدفعُ البحرَ عن مكانِه.

يكونُ ذلك بفِعلِ الأنهار عندما تجرفُ التُّرابَ بعيداً عن الجبال، حاملةً إيَّاه إلى سواحلِ البِحار؛ وحيثُ يتقدَّمُ التُّرابُ يتراجعُ البحر.

148. سوفَ يغيِّرُ الماءُ الهاطلُ من الغيوم طبيعتَه، فهناك فوقَ سفوحِ الجبال سوفَ ينبسطُ دون حراكٍ لفترةٍ طويلةٍ من الزَّمن؛ ويكون ذلك في أراضٍ كثيرةٍ مختلفة.

الثَّلج المتساقط، والذي هو في الأصلِ ماء.

149. أمَّا صخورُ الجبال العظيمةُ، فسوفَ تلفظُ ناراً، تُحرقُ بها خشبَ غابات كثيرةٍ متراميةِ الأطراف، ومعه حيواناتٌ لا تُحصى، وحشيَّةٌ ومستأنَسة.

تلك هي حجارةُ القدحِ في البنادق، تصنع ناراً تأكلُ الخشبَ الذي بفسادِه تفسُدُ الغابة، وبهذه النَّار تُشوى أجسادُ البهائم.

150. أوه! كم من الصُّروح العظيمةِ سوف تتهاوى بِفِعلِ النَّار!

أي بنيرانِ القذائف.

151. لَسَوفَ تكون الثِّيرانُ سبباً لا يُستهانُ به في تدميرِ المدائن، وكذا شأنُ الأحصنةِ والجواميس.

ذلك أنَّها تجرُّ المدافع.

152. أشياء لا حصرَ لها سوفَ تتعاظمُ إبَّانَ هُوِيِّها.

كراتُ الثَّلج التي تتدحرجُ على الثَّلج.

153. ما أكثر الذين سَينسون وجودَهم وأسماءَهم، مُستلقين كالموتى فوقَ رِمامِ موتى آخرين.

النَّومُ على رياشِ الطُّيور.

154. لَتَرَوُنَّ المشرقَ يقتحمُ المغربَ، والجنوبَ يجتاحُ الشَّمالَ، هكذا في شَواشٍ دوراني يلفُّ الكونَ، مع صخبٍ عظيمٍ، وارتعادٍ وهِياج.

تلكَ رياحُ الشَّرق التي تجتاحُ الغربَ.

155. سوفَ تُضرمُ أشعَّةُ الشَّمسِ ناراً على سطحِ الأرض، بها يُلَظَّى ما هو تحتَ السَّماء، وإذ يَحولُ سقفُ السَّماءِ دونَ ألسنةِ لهيبِه، ترتدُّ تلك الألسنةُ إلى الأسفل.

المرايا المقعَّرة تُضرمُ ناراً، وبالنَّارِ تُحَمَّى الأفرانُ، ولكلِّ فرنٍ قَعرٌ وسقف.

156. قَدْرٌ عظيمٌ من البحرِ سوفَ يحلِّقُ نحوَ السَّماء، ولن يعودَ قبل زمنٍ طويل.

إنَّها الغيوم.

157. **عن القمحِ وبذورٍ أخرى.** سوفَ يرمي النَّاسُ خارجَ منازلهم مِنَ المؤنِ ما كان لِيؤازرَ عَيشَهم.

158. **عن الأشجار التي تغذّي النَّبتَ المطعَّمَ عليها.** لَتَرَوُنَّ الآباءَ والأمَّهات يُعنَونَ بِأرِبَّائهم أكثر ممَّا بأبنائهم الذين مِن أصلابِهم.

159. **عن التَّهويـلِ بـالبَخُور.** سـوفَ يطـوفُ الـبعضُ متـسربلينَ بالأبيض، يصنعونَ إيماءاتٍ متغطرسة، مُنذِرين بالنَّارِ والمعادِنِ أولئك الذين لن يُضرُّوهـم أبداً.

160. **عن مواليدِ العُنوز.** لَيَعودَنَّ عهدُ **هيرودس**[1] مـن جديـد، فتَرَونَ المواليـدَ الأبريـاء يؤخَـذون مـن مرضـعاتهم عنـوةً، ويموتـون مُثخَنين بجراحٍ رهيبةٍ ابتلاهـم بها بشرٌ متوحِّشون.

161. **عن حَشِّ العُـشب.** حيـواتٌ لا حـصرَ لهـا سـوفَ تُطفَـأ، وخواءاتٌ شاسعةُ الأرجاء سوفَ تعمُّ الأرضَ.

162. **عن جسدِ الإنسان، الذي يبدِّلُ في كـلِّ عقـدٍ مـن حياتِـه طبيعتَه وتكوينَه.** سوفَ يَعبرُ البشرُ أمواتاً عبرَ مصارينِهم نفسِها.

163. **عـن القِـراب الجلديَّـة.** سـوفَ تحمـلُ المِعـازُ النَّبيـذَ إلى المدينة.

164. **صانعو الأحذية.** ستَرَونَ رجالاً يفرحون برؤيةِ صنيعِ أيديهم يَهترئُ ويَتلَف.

---

(1) هيرودس الأوَّل (73 ق.م - 4 ق.م)، كـان ملكـاً لليهـود بـسط نفـوذه علـى المنطقة الممتدَّة من هضبة الجولان شمـالاً إلى البحـر الميـت جنوبـاً، وقـد شكَّكتْ المصادر اليهوديَّة في شـرعيَّته كملـكٍ باعتبـاره مـن أبٍ إدومـيٍّ وأمٍّ نبطيَّة، أمَّا في المسيحيَّة فيُعتبَر هيرودس طاغية، حيث يذكر إنجيـل متَّـى أنَّـه أمر بذبح كل مواليد بيت لحم عندما علم أنَّ المسيح قد وُلِدَ فيها.

165. **عن الظِّلالاتِ التي تُرسلُها الأجسامُ ليلاً بِفِعلِ الإضاءة.** سوفَ تلوحُ صورٌ هائلةٌ بهيئاتٍ بشريَّة، كلَّما اقتربتَ منها أكثر، تقلَّصت حجومها المتراميةِ الأطراف أكثر.

166. **عن البِغال التي تحملُ أثقالَ الفضَّةِ والذَّهَب.** كنوزٌ عظيمةٌ ونفائسُ جَمَّةٌ سوفَ تُرفَعُ على ظهورِ البهائمِ ذواتِ الأربع، لتُحمَلَ إلى شتَّى الأماكن[1].

167. **عن النَّصيحةِ والفقر.** هاكَ أمرٌ، كلَّما اشتدَّتْ حاجتُكَ إليه، اشتدَّ نفورُكَ منه. إنَّه النَّصيحة، هذه التي لا يعبأ بسماعِها مَن هو في أمسِّ الحاجةِ إليها، أي الجاهل.

وهاكَ أمرٌ، كلَّما اشتدَّ خوفُك منه وجددتَ في اجتنابِه، اقتربتَ منه أكثر. إنَّه الفقر، هذا الذي بقدر ما تبتعد عنه يزيدك فقراً وحرماناً من السَّكينة.

168. ما هو ذلك الشَّيء المُشتَهَى عندَ البشر أكثر مِن سواه، وعندما يحصلون عليه لا يستطيعون إدراكه؟

إنَّه النَّوم.

169. النَّبيذ طيِّبٌ، لكنَّ الماءَ أطيب.

معَ الطَّعام.

---

(1) يعتقد جان بول ريختر أنَّ هذه الملاحظة التي كتبها دافنشي في إحدى مذكَّراتِه التي تعود إلى عام 1502 عندما زارَ مدينة أوربينو مبعوثاً مِن الدُّوق سيزار بورجيا آنذاك، إنَّما هي إلاحةٌ إلى حادثة السَّلب الشَّهيرة لثروات قصر غْوِيدوبالدو التي حملَها سيزار بورجيا على الفور إلى مدينة تشيزينا.

170. **ضوءُ الشَّمعة.** إليكَ شيءٌ لا يبلغُ من العُلْوِ إلا قدْراً ضئيلاً، ومع ذلك، لا شيء قادرٌ أن يُحقِّرَ من عظمتِه أبداً.

171. **النَّار.** وهاكَ شيءٌ، كلَّما ازدادَ شرّاً وخُبثاً، ازددتَ قرباً منه.

172. **عن النَّحل.** يحيَون معاً في مجتمعات، وجماعيَّاً يُبادون من أجل العسل. أممٌ عظيمةٌ لا حصرَ لها سوفَ تُغَرَّقُ داخلَ بيوتِها.

173. أنا هو ذلك الذي وُلِدَ قبلَ أبيه؛ الجنسُ الثَّالثُ للنَّسلِ البشريِّ الزَّائل؛ عمَّا قليلٍ أعودُ إلى جوفِ أمِّي.

174. أوه مُورو، لَسَوفَ أموتُ إن أنتَ لم تغمرني بكرمِ أخلاقِك حبَّاً بي؛ جدُّ مريرةً سوف تكون حياتي[1].

* * *

(1) تفقد هذه الفقرة ألَقَها الحقيقي عندما تُترجَم، لأنَّها في الأصل تلاعبٌ لفظيٌّ بين عدَّةِ مفرداتٍ مُشتقَّةٍ من جذرٍ واحد؛ فَمورو Moro هو لقب "لودفيك الموراي" امبراطور باري وميلانو، مرَّ ذكره سابقاً، و"أموت" باللغة الإيطالية القديمة هي moro، وحُسن الأخلاق moralità، وفعل الحب amare، ومرير amaro. أمَّا من جهةٍ أخرى، فإنَّ لجوء دافنشي إلى خفَّة الظِّل هذه في التماسِه بلاطَ أحد الحكَّام إنَّما يضيءُ لنا جانباً آخرَ مختلفاً ومجهولاً من شخصيَّته.

طُرَفٌ

1. رأى أحدُهم سيفاً كبيراً معلَّقاً على خصرِ رجلٍ، فقال له: "يا لكَ مِن مسكين! منذ عهدٍ بعيدٍ وأنا أراك موثَقاً إلى هذا السِّلاح؛ لماذا لا تَفكُّك وثاقَك وتحرِّرَ نفسَك ما دمتَ طليقَ اليدَين؟".

أجابَ الآخر: "ليس هذا من شأنِك، علاوةً على أنَّ ما تقولُه قديمٌ وبالٍ".

ملدوغاً بهذا الجواب، ردَّ المتحدِّثُ الأوَّل قائلاً: "لطالما عهدتُكَ قليلَ المعرفةِ بشؤون هذا العالَم، فحسبتُ أنَّ أيَّ شيءٍ قد أقوله لك سيكون جديداً عليك".

2. وقفَ أحدُهم يُحاججُ ويتبجَّحُ بين زمرةٍ من النَّاس بأنَّه يُحسن القيام بكثيرٍ من الخُدَعِ الطَّريفة والمتنوِّعة، فانبرى له أحدُ الحاضرين قائلاً: "أنا أتقنُ خُدعةً أستطيع بها جذبَ سروالِ مَن يحلو لي". قال الرَّجلُ الأوَّل "المتبجِّح": "أراهنك على زوجٍ من الجوارب أنَّك لن تستطيع فعل ذلك". فما كان مِن مُقترِحِ الخدعة، وقد قبل الرِّهان، إلا أن خلعَ سروالَه ولوَّح به أمام وجهِ المراهِن؛ وربحَ الرِّهان[1].

3. قال رجلٌ لأحد معارفه: "لقد تحوَّلت عيناك إلى لونٍ غريب". أجابَ الآخر: "هذا يحدُث في كثيرٍ من الأحيان، ولكنَّك لم تلاحظ مِن قبل". "ومتى يحدث ذلك؟" قالَ الأوَّل. "كلَّما رأت عيناي وجهكَ الدَّميم امتُقِعَ لونُهما لِقُبحِ منظرِه وأصبح غريباً هكذا" أجابه الآخر.

---

(1) من الصَّعب ترجمة هذه الطُّرفة لأنَّها في الأصل تلاعبٌ لفظيٌّ على معنيين مختلفين للفعل Trarre، لذلك كان لا بدَّ من بعض التَّصرُّف هنا.

4. قال رجلٌ لآخَر: "لقد تحوَّلت عيناك إلى لونٍ غريب". فأجاب الآخَر: "ذلك لأنَّ عينيَّ تُبصران وجهك الدَّميم الغريب".

5. انبرى رجلٌ يقول إنَّ بلادَه تُنجبُ أكثر الأشياء غرابةً في العالم. أجابَ آخَر: "أنتَ المولودُ هناك، تؤكِّد هذه الحقيقة، بغرابةِ وجهك القبيح".

6. **طُرفة.** كان رجلان يسيران ليلاً في شارعٍ مُظلِم عندما أطلقَ الذي في المقدِّمة فرقعةً قويَّةً مِن قفاه؛ فقال له صاحبُه: "بتُّ على يقينٍ الآن من أنِّي أثيرُك". "وكيف؟" سألَ الآخَر. أجابَ ذلك: "لقد مَدَدْتَني بهذا الإنذار الغازيِّ كي لا تزلَّ قدمي، أو أتيه عنك".

7. **طُرفة.** مرَّ راهبٌ بامرأة تغسلُ الثِّيابَ في النَّهر وقدماها جدُّ مُحمرَّتان من شدَّةِ البرد، فسألها دَهِشاً "مِن أين تنبعثُ كلُّ تلك الحُمرة"؛ فأجابت المرأة على الفورِ بأنَّ ذَلك العارض أصابَها لأنَّ النِّيران تضطرمُ تحتَ جلدِها. آنئذٍ، وضعَ الرَّاهب يده على ذلك العضو الذي صار أكثر رهبنَةً مِن راهبة، وعندَ تلك المقاربة، توسَّلَ المرأةَ بصوتٍ عذبٍ ومُتذلِّلٍ أنَ تتلطَّفَ وتوقدَ تلك الشَّمعةَ قليلاً.

8. **طُرفة.** فيما كان أحدُ القساوسة يقومُ بواجب الخَوْرَنة ليلةَ الفصحِ المجيد، ويرشُّ الماء المقدَّس داخلَ البيوت كما جرت العادة، وجدَ نفسَه في حجرةِ رسَّامٍ حيث نثرَ الماءَ على بعضِ لوحاته. استدارَ الرَّسامُ نحوَه، غاضباً بعضَ الشَّيء، وسأله عن سببِ نثرِه الماءَ على لوحاته؛ فأجاب القسِّيس أنَّ العُرفَ والواجبَ الدِّينيَّين اقتضيا فعلَ ذلك، وأنَّه كان يعملُ خيراً، ومَن يعمل خيراً يتوقَّع، حتماً، أن ينال الخيرَ بالمقابل، بل وأحسن منه، ذلك أنَّ ذا هو وعدُ الله: "كلُّ خيرٍ يُصنَعُ في الأرض، يتلقَّاه صانعُه مضاعفاً مئةَ ضعفٍ من الأعلى". إذَّاكَ انتظرَ الرَّسَّام إلى أن خرجَ القسِّيس، فصعدَ إلى النَّافذة العُليا،

وأفرغَ جَرْدلاً كبيراً من الماء على ظهرِه، قائلاً: "هاكَ ثوابُك إذن مُضاعفاً مئة ضعفٍ ينزل عليكَ من أعلى، الثوابُ الذي قلتَ بأنَّك لا بدَّ متلقِّيه عن الخيرِ الذي صنعته لأجلي بمائك المقدَّس، والذي أتلفتَ به لوحاتي".

9. اعتاد الرُّهبان الأصاغر[1] المتعبِّدون، في أوقاتٍ محدَّدة، ولا سيَّما في زمنِ الصِّيام الكبير، ألَّا يأكلوا اللحم في أديرتهم؛ إلَّا مَن كان منهم على سفرٍ، فيُرَخَّصُ له في أكل ما يُقدَّم له، لأنَّه يعيش في أثناء ذلك على الإحسان. مرَّةً، حطَّ اثنان من هؤلاء الرُّهبان رحلَهما في نُزُلٍ، وكان برفقتهما أحدُ التُّجَّار، واتَّفق أن جلسا معه على نفسِ المائدة التي لم يُقرَّب عليها، لرقَّةِ حالِ النُّزُل، سوى ديكٍ صغيرٍ مشويٍّ؛ وإذ رأى التَّاجر أنَّ قطعةَ اللحم هذه بالكاد تكفي لسدِّ رمقه، التفتَ إلى الرَّاهبَين وقال: "إذا لم تَخُنِّي ذاكرتي، فأنتم لا تأكلونَ أيَّ نوعٍ من اللحم في أديرتكم هذه الأيَّام". وتلقاء هذه الكلمات، ما كان من الرَّاهبَين إلا أن وجدا نفسَيهما مُرغمَين بدورِهما على الإقرار، دون أدنى مُماحكَة، بصحَّة ما ذهبَ إليه؛ وهكذا نالَ التَّاجرُ مطلوبَه، والتهمَ الدِّيك برمَّته، فيما بذلَ الرَّاهبان ما في وسعِهما.

بعد الغداء غادرَ أصحابُ المائدة الثَّلاثةُ معاً، وواصلوا رحلتَهم إلى أن بلغوا نهراً واسعاً وعميقاً، ولمَّا كانوا جميعاً مسافرين على الأقدام ـ الرَّاهبان لرقَّة حالهما، والتَّاجر لبُخله ـ، وَجَبَ على أحد الرَّاهبَين، بِحُكم صحبَة الطَّريق، أن يخلع حذاءه ويحمل التَّاجر على كتفيه ليعبرَ به النَّهر: هكذا، استأمن الرَّاهبُ التَّاجرَ على حذائه الخشبيِّ، ورفعه على كتفيه.

---

(1) الرُّهبان الأصاغر أو الأخوة الأصاغر، هو لقبٌ للرُّهبان الفرنسيسكان الذين يتَّبعون طريقة الرَّهبنة كما أسَّسها القدِّيس فرنسيس الآسيزي.

لكن حدثَ عندما بلغَ الرَّاهبُ منتصفَ النَّهر أن تذكَّرَ حُكماً يُمليه عليه ناموسُ طائفته، فتوقَّفَ في الحال، ونظرَ إلى أعلى، كأنَّه القدِّيس خريستوفر[1]، رافعاً رأسه نحوَ ذلك الحمل الذي يُثقلُ كاهلَه، وقال: "قل لي، هل تحمل معك شيئاً من النُّقود؟". "أنتَ تعلم جيِّداً"، أجابَ الآخر، "كيف تفترضُ أنَّ تاجراً مثلي يمكنُ أن يتنقَّلَ من غير نقود؟". "ويحي"، صرخَ الرَّاهب، "إنَّ شريعتنا تحرِّمُ علينا حمل النُّقود"، وفي الحال رمى بهِ في الماء.

إذَّاك، أدركَ التَّاجر أنَّ ذلك كان أسلوباً طريفاً للرَّدِّ على أسلوبِهِ المهين في معاملتهما؛ لذلك، بوجهٍ باسمٍ، متورِّدٍ قليلاً من الحياء، تقبَّلَ الثَّأرَ بهدوء.

10. أنهى أحدُهم علاقته الوطيدة بأحد أصدقائه لأنَّه كثيراً ما كان يأتي على ذكر أصدقائه الآخرين بالسُّوء. فجاء الصَّديق المُجافَى إليه ذات يومٍ معاتباً يرجوه، بعدَ إلحافٍ في التَّشكِّي، أن يخبره عن السَّبب الذي دفعه إلى نسيان عهدِ صداقتهما الوثيق فجأةً؛ فأجابه الآخر قائلاً: "لا أريد لصداقتنا أن تستمرَّ لأنَّني أحبُّك ولا أريد أن تتركَ لدى الآخرين، كما عندي، انطباعاً سيئاً عن شخصِك إذ تتحدَّث عنِّي، أنا

---

(1) القدِّيس خريستوفر هو شفيع المسافرين، يُروى أنَّه وقف إلى أحد الأنهار ونذر نفسَه لحملِ من أرادَ اجتيازه على كتفيه، إلى أن تقدم منه يوماً طفلٌ صغيرٌ وطلب منه أن يحمله إلى الضفة المقابلة، فرفعه بطيبة خاطرٍ إلى كتفه ودخل الماء ليعبر به، فإذا هو يشعر بثقل حملٍ لم يعهد مثله من قبل. وما أن بلغ منتصف النهر حتى كاد ييأس من الوصول إلى الضفة الأخرى؛ ولما تمكن من بلوغها أنزل الطِّفل وقال له وهو يلهث: ما أعظم وزنك يا بُني، لقد أحسستُ بأنِّي أحمل الأرض كلها على كتفي. فأجاب الطفل بصوتٍ كرنين الأجراس: لا عجب في ذلك فقد حملت على كتفك خالق العالم بأسره.

صديقك، بالسُّوء أمامَهم؛ ولذلك، أن ننـهي هـذه الـصَّداقة الوطيـدة سوف يجعلنا نبدو في عيون الآخرين عـدوَّين لبعـضنا، فـإذا تحـدَّثت عنِّي بالسُّوء بعد ذلك، مثلما هي عادتُك، فإنَّ أحداً لن يلومَـك علـى هذا كما كان ليفعل لو كنَّا لا نزال صديقَين".

11. **طُرفة.** أراد رجلٌ أن يُثبتَ، بالاستناد إلى نظريَّة فيثـاغورس، أنَّه عاشَ قبـلَ حياتِـه هـذه حيـاةً أخـرى في هـذا العـالَم، لكـنَّ أحـدَ الحاضرين لم يدعه يُنهي حديثـه، فقـال الرَّجـل الأوَّل للثَّـاني: "هـاك علامةٌ على كلامي: أذكرُ أنَّك في حياتي السَّابقة كنتَ طحَّاناً". فما كان من الآخَر، وقد شعر بلدغةِ الإهانـة، إلا أن أقـرَّ بـأنَّ ذلـك صـحيحٌ، وأنَّ محدِّثه، على ما يذكُر، كانَ الحمارَ الذي ينقل الطَّحين.

12. **طُرفة.** سُئل رسَّامٌ مرَّةً لِمَ هم أطفالُه قبيحون للغايـة مـع أنَّـه يـصنع صوراً رائعة الجمال ما هي في النِّهاية إلا جماداتٌ مَيتة؛ فأجاب الرَّسَّـام عـن ذلك بأنَّ لوحاتِه يصنعُها في النَّهار، أمَّا أطفاله فيصنعُهم في الليل.

13. **كلمةٌ مأثورةٌ مِن شابٍّ إلى شيخ.** طفـق أحـدُ الـشُّيوخ مـرَّةً يكيل الإهانات لأحـد الـشُّبَّان جهـاراً وعلـى رؤوس الأشـهاد، مُعلنـاً بوقاحةٍ أنَّه لا يرهبُ جانبَه؛ فردَّ عليه الشَّابُّ بأنَّ عمرَه المتقدِّم هـو مـا ينفعُ درعاً له لا قوَّته أو لسانه.

14. **طُرفة.** كان أحدُهم مريضاً يُحتَضَرُ على فراش الموت عنـدما سمع طرقـاً علـى البـاب، فـسأل أحـدَ خدَمـه أن يـذهبَ وينظُـرَ مـن الطَّارق، فخرجَ الخادمُ، وعادَ يقول إنَّ في الباب امرأةً تُـدعى **مادونّـا بونا**[1]. حينذاك، رفعَ الرَّجل المـريض يديـه نحـو الـسَّماء شـاكراً الله

---

(1) يُطلق لفظ "مادونَّا" على مريم العذراء، كما كان يُطلق قـديماً كلقـب تـشريف على السَّيِّدات الرَّاقيات، و"بونا" بالإيطاليَّة تعني الطَّيِّبة.

بصوتٍ مرتفع، وأمرَ الخادمَ بأن يدَعَ المرأة تدخلُ في الحال لكي يُتاحَ له أن يرى امرأةً طيِّبةً قبل موتِه، ذلك أنَّه لم يـرَ في حياتِـه واحـدةً مِـن قبلُ قَط.

15. **طُرفة.** طُلبَ من أحدِهم أن ينهض من الفِراش، لأنَّ الشَّمسَ نهضتْ في كبدِ السَّماء، فأجاب: "لو كان عليَّ أن أقطـع مثـل المسافة التي تقطعُها هي، وأن أقوم بمثلِ العمل الذي تقوم به، لرأيتني ناهـضاً مثلها الآن؛ لكن بما أنَّ الدَّرب الـتي علـيَّ اجتيازُهـا قـصيرةٌ، فلـيس ينبغي أن أنهضَ بعد".

16. اعتادَ حرفيٌّ أن يتردَّد كثيراً على سـيِّدٍ كـريم المَحتِـد دون أن يكون له عندَه أيُّ سُؤلٍ محـدَّد، إلى أن سـأله الـسَّيِّدُ يومـاً عـن سـبب ذلك، فأجاب بأنَّه يأتي إليه لكـي يحظـى بغبطـةٍ لا يمكـن لـسيادته أن يحظى بها؛ فبالنِّسبة إليه لا شيء يسرُّ خاطرَه كمثلِ رؤيـةِ رجـالٍ أرفـع مقاماً منه، مثلما هو دَيدَنُ العَوَامِّ دومـاً؛ بينمـا لا يـستطيع سـيادتُه أن يرى إلا من هم دونَه مرتبةً: ولذلك فـإنَّ الـسَّادة وأصـحاب المقامـات الرَّفيعة محرومون من تلك الغبطة.

17. كان أحدُهم مسافراً إلى **مُودينا**[1]، فطُلِبَ منه خمسةُ فلـوسٍ رَسْمَ دخولٍ عن شخصه. وإذْ هالَه الأمر طفـقَ يـثيرُ صـخباً بـصيحاتِ الدَّهشةِ والاستنكار، حتَّى التمَّ حولَه حشدٌ كبيرٌ من النَّاسِ يسألونه عن سبب اسـتغرابِه وذهولِـه، فأجـابَهم المـدعوُّ **مـازو** قـائلاً: "وكيـف لا أعجبُ مِن ألا يدفعَ شخصٌ بأكمله سوى خمسة فلوسٍ وحَسْب؟ فأنـا في فلورنسا دفعتُ عشر دُوقيَّاتٍ ذَهبيَّات لكي أُدْخِلَ ذَكَري لـيس إلا،

---

(1) مدينــة عريقــة في شمــال إيطاليــا بــإقليم إميليــا رومانيــا وهــي عاصــمة لمقاطعة مودينا.

فيما أراني هنا أُدخِلُ ذَكَري وخصيتيَّ وبقيَّةَ جسدي لِقاءَ هذا الرَّسْمِ البخس. ربِّي خلِّصْ هذه المدينةَ واحفظها هي ومَن يحكمُها".

18. نظرَ رجُلٌ إلى المرأةِ التي تتأهَّبُ لمبارزته، فهتفَ بعدَ أن رازَ تُرسَها وتمعَّنَ في رُمحِه: "ويحي! هذا الصَّانعُ صغيرٌ جداًّ على هذا الحانوتِ الكبير"[1].

19. عرضتْ إحدى المومسات فَرجَ عَنْزتها بدلاً مِن فَرجِها على أحد الرُّهبان، وتقاضت عن ذلك قطعةً فضِّيَّةً، ساخرةً بذلك من الرَّاهب.

20. في عبور المرأةِ درباً وعرةً وموحِلة ثلاثُ حقائق، فهي إذْ ترفعُ ثوبَها بيديها مرَّةً من الأمام ومرَّةً من الخلف، فإنَّها تلمسُ الفَرْجَ والشَّرْجَ وتقول: "يا لها مِن دربٍ صعبة".

21. **طُرفة.** لماذا يقتني الهنغاريون صلباناً ذات رأسين؟[2].

22. ذاتَ عصريَّةٍ انتفختْ النَّفسُ كمداً، كما ينتفخُ البطِّيخُ أو اليقطين بالعُصارة، أو كما تنتفخ الجيوب الفطريَّةُ على شجر البرقوق بعد زخَّةٍ من المطر. لا، أنتَ لستَ على ما يُرام؛ أوَتَعلمُ مَن عساه يكون ذلك المتجلِّي؟ إنَّه حتماً مجنونٌ مِن جِلِّلو[3]، يحلِّقُ جزافاً؛ لكن يُعوزه القِنبيطُ أو ورق اليقطين لأجل تقطير القشرةِ الحليبيَّة. هناك

---

(1) في هذه الطُّرفة توريةٌ جنسيَّة، حيثُ يشير الرُّمح ـ الصَّانع إلى العضو الذَّكري، ويُشير التُّرس ـ الحانوت إلى فَرج المرأة.

(2) للصَّليب ذو الرَّأسين الشَّكل التَّالي: ‡ ويقصد دافنشي أنَّ أحد الرَّأسين هو للتَّقديس، والآخَر لغرض إمتاع الذَّات جنسيَّاً، وأنا أقرأ في هذا اتِّهاماً عنصريَّاً لشعبٍ بأكمله بالنِّفاق الدِّيني.

(3) يوجد عدَّة مناطق في إيطاليا تحمل هذا الاسم.

في الأعلى، ساندرو، ما الذي يلوحُ لك؟ إنّي مُخبرُكَ اليقين، وقد وُفِّقتُ إلى هذا[1].

23. هاكَ طُرفةٌ عن أسقف **سانتا ماريّا دِل مونتِه**، الذي اضطُرَّ للمكوث في ڤارزِه[2]، بعد أن بُعِثَ إليها مع الدُّوق بدلاً من طائر باز[3].

24. عيَّرَ أحدُهم رجلاً طيِّباً بأنَّه ابنٌ غيرُ شرعيٍّ؛ فردَّ عليه هذا بأنَّه شرعيٌّ بالاحتكام إلى مقاييس الصِّفات البشريَّة من جهة وإلى قانون الطَّبيعة من جهةٍ أخرى، أمَّا هو فابنُ زِناً لأمرَين، أوَّلاً أنَّه ذو عاداتٍ أقرب إلى البهائم منها إلى البشر، وثانياً أنَّه لا يمتلك، وفقاً للقانونَ البشريِّ، وثيقةً تُثبتُ شرعيَّته.

25. **طُرفة.** خَبِرَ لصٌّ أنَّ تاجرَ خردواتٍ من معارفه كان يَكنِزُ قدراً كبيراً من المال داخلَ صندوقٍ في مَتجَرِه، فعقدَ العزمَ على سرقتِه، وفي منتصف الليل دخلَ ذلك المَتجر، وحدث فجأةً، فيما هو يمحِّصُ حولَه ويهمُّ بقصدِه، أن أديرَ المفتاحُ في القفل الكبيرِ لبابِ المتجَر. بِرُعبٍ عظيمٍ حدَّق اللصُّ إلى الفتحات الضَّيِّقة التي هبَّت منها نسمةٌ أطفأتْ شُعلتَه، قبلَ أن

---

(1) إنَّ ترجمة هذه الفقرة الغامضة مجازفةٌ في حدِّ ذاتِها، فحتَّى الشُّرَّاح الإيطاليُّون حاروا في أمرها، كما تجنَّبَ جان بول ريختر ترجمتَها إلى الانكليزيَّة، ويُجمِع أكثر الشُّرَّاح أنَّ مكانها هنا غير مناسب كونها لا تنتمي في رأيِهم إلى الجنس الفُكاهي.

(2) مقاطعة شمال إيطاليا.

(3) هنا تلميحٌ إلى طُرفةٍ من تأليف "لودفيك كاربونِه" يروي فيها كيف بدَّلَ عُمدة الإقليم آنذاك الكلمة اللاتينية Accipitrem وتعني باز بكلمة Arciprete وتعني أسقف، وهكذا أرسلَ مع الدُّوق أسقفاً بدلاً من الباز.

يُوصَدَ البابُ ثانيةً مِن خارج، ليُلفي اللصُّ نفسَه مُحتَجَزاً هناك ووقعُ خطواتِ أهلِ بيتِ المالك يتناهى إلى سمعه. في الحال شرعَ يبحثُ عن مَنجىً فوريٍّ لنفسه، فأوقدَ شمعتَين من الشُّموع الموجودة في المتجر وأخرجَ رزمةً من أوراقِ اللعب، رمى قسماً منها على الأرض، جهةَ اللاعب الوهميِّ الخاسر، وقسماً أبقاه في يدِه إشارةً إلى تفوُّقِه في اللعب، وهكذا مكثَ ينتظرُ دخولَ عائلةِ المالك عليه. وما أن وصل هؤلاء مصحوبين بالمالك وبزمرةٍ من الدَّرَكِ الخيَّالة، حتَّى هتفَ اللصُّ إذ سمعَ المفتاحَ يُدارُ في القفل الكبير: "لَعَمري لقد حبستَني هنا لكيلا تدفعَ لي المبلغَ الذي ربحتُه منك؛ وأيمُ الله لتدفعنَّ لي حقِّي؛ مَن يرفضُ الخسارةَ عليه أن يرفضَ اللعب. دائماً تُرغمني على اللعب، ثمَّ عندما تخسر تغادر المتجرَ هارباً بأموالك وأموالي، مُحتجِزاً إيَّايَ في الدَّاخل كي لا ألحقَ بك". قائلاً كلامَه هذا، قبضَ اللصُّ على كيسِ نقوده ولوَّح به ليرى الجميعُ أنَّه فارغٌ تماماً. حينذاك، إذ رأى الخيَّالةُ أنَّه ضحيَّةُ احتيالٍ، أرغموا تاجرَ الخردواتِ على أن يعطيه المال الذي هو حقٌّ له.

26. **طُرفة.** سأل رجلٌ فقيرٌ حاجباً يعمل عند والٍ عظيمِ الشَّأن أن يُخبِرَ سيِّدَه أنَّ في الباب أخاً له هو في أمسِّ الحاجة إلى رؤيته. فبلَّغَ الحاجبُ الرِّسالةَ وأُذِنَ له أن يسمحَ لذلك الأخ بالدُّخول. فلمَّا وقف الرَّجلُ بين يدي الوالي، أخذ يعرضُ له كيف أنَّ النَّاس جميعاً ينحدرون من أبٍ واحدٍ هو آدم، وعلى هذا فهو أخٌ له، وأنَّ الميراث قُسِّمَ بين الأبناء جزافاً، ولولا هذا لما كان واقفاً اليومَ بين يديه يتوسَّل إليه أن يخلِّصَه من فقرِه المُدقع، بعد أن أضنتْ نفسَه مرارةُ العيش على الحسنات. حينئذٍ ردَّ السَّيِّدُ بأنَّ سُؤلَه مُجابٌ،

وأمرَ أمينَ الخزانةِ أن يُعطيه فلساً واحداً؛ فاعترى الفقيرَ ذهولٌ بالغٌ وقالَ إنَّ هذا لا يليقُ بأخٍ في مثلِ مكانتِه. فأجابَه السيِّد بأنَّ لديه أخوةً كثيرين رقيقي الحال مثله، إنْ هو أعطى كلاً واحدٍ منهم قدراً كبيراً من المال، فلن يتبقّى له شيءٌ في النِّهاية، وأردفَ بأنَّ ذلك الفلس كافٍ وفقاً لقسمةِ الميراث. وهكذا، أعطاه بمُقتضى العُرف والقانون نصيبَه من تركةِ الأبِ الأوَّلِ آدم.

* * *

استهلالات

1. بما أنَّني، خِلافاً لهم، لا أستطيعُ الاستشهاد بكلامِ غيري من المؤلِّفين، فلا مناصَ لي من التَّعويل على ما هو أعظمُ من ذلك وأجدَر: - على التَّجربة، هذه التي هي معلِّمةُ معلِّميهم. أولئك الذين ينتفخون غطرسةً ومُباهاةً بما يَلبسونه ويتَّخذونَه زخرفاً مِن ثمارِ جُهدِ الآخرين، لا مِن ثمارِ جُهدهم، تَراهُم يحرِّمون عليَّ اقتبالَ ثمارِ ذاتي. أولئك سوفَ يُحقِّرونني بأنِّي مُبتكِر؛ لكن كم من الذَّمِّ سوفَ ينالُ مَن لا يعرفُ الابتكار، ولا يُحسنُ إلا التَّفاخر والتَّغنِّي بأعمال الآخرين.

2. **استهلال.** أولئك الخلَّاقون والوسطاءُ بين الطَّبيعةِ والإنسان، مَثَلُهم إذا ما هُم قورِنوا بالمتبجِّحين والمتغنِّين بأعمال الآخرين، كَمَثَلِ الشَّيءِ أمامَ المرآة إذا ما هوَ قُورِن بصورتِه المرتدَّةِ في المرآة؛ فالأوَّل شيءٌ كائنٌ بذاته، والآخَرُ لا شيء. هؤلاء قومٌ لا يدينون للطَّبيعة بالكثير، ذلك أنَّهم بالصُّدفةِ فقط اكتسوا صورةَ الإنسان، ولولا هذا لصنَّفتُهم مع أجناسِ البهائم.

3. قد يحسبُ أكثرُهم أنَّهم محقُّون بِلَومي عندما يزعمون أنَّ براهيني تُخالفُ حُجَجَ بعضِ الرِّجال المُحاطين بهالاتِ التَّوقير والتَّبجيل لِما تقدَّموا به مِن أحكامٍ تفتقرُ في حقيقتها إلى التَّجربة؛ متجاهلين أنَّ أعمالي إنَّما هي ثمارُ التَّجربة النَّقيَّة والخالصة، تلك المعلِّمةُ الكُبرى[1]. هذه القواعدُ كافيةٌ لجعلكَ قادراً على تمييز الأصيل من الزَّائف؛ الشَّيءُ الذي من شأنِه أن يمكِّنَ الإنسان من رؤيةِ

(1) بعضُ الطَّبعات تُنهي الفقرة عند هذه النُّقطة وتضعُ ما بعدَها في فقرةٍ مستقلَّة.

الأشياء المعقولةِ فحسب، بدون تطرُّفٍ أو مُغالاة. إنَّها القواعد التي تنجِّيكَ مِن الاستغراق في الجهل، هذا الذي لا ثدرة طيِّبة تُرتَجى منه، والذي بسببه سوفَ تسلِّم نفسَكَ بقنوطٍ للسَّوداويَّةِ المُطلَقة.

4. **استهلال.** بالنَّظر إلى أنَّني لا أستطيعُ إيجاد مادَّةٍ أدبيَّةٍ خاصَّةٍ بي تكون مصدرَ نفعٍ أو مُتعة - ذلك أنَّ جميع الذين سبقوني استولوا لأنفسِهم على كلِّ الموضوعات المفيدةِ والضَّروريَّة - فقد حُتِّمَ عليَّ أن أفعل كما فعل ذلك الشَّقيُّ الحظِّ الذي وصل متأخِّراً إلى المَعرِضِ، فلم يجد بدّاً من أخذِ جميع الأشياء التي عاينَها الشُّراة من قبلِه، ثمَّ نبذوها لضآلةِ قيمتِها. بمثلِ هذه البضاعةِ المُزدراةِ والمنبوذة مِن مخلَّفات الشُّراة سوف أحشو صُرَّتي الوضيعة، وأمضي لأوزِّع ما عندي، لا في المدائن الكبرى، بل في البلدان الأشدِّ فقراً، لقاءَ السِّعر الذي تستحقُّه قيمةُ معروضاتي[1].

5. **استهلال.** الإنسانُ الصَّالح يشتهي المعرفةَ بالفطرة.

أعلمُ أنَّ أكثرَ النَّاس سوف ينعتون هذا العمل باللَغوِ[2]؛ وهؤلاء هُم مَن قال **ديميتريوس** عنهم إنَّه لا فرق بين الهواء الذي يخرج من أفواههم في شكلِ كلماتٍ، وذلك الذي يخرجُ مِن أمعائهم السُّفلى[3]: هؤلاء لا يشتهون في الحياة شيئاً عدا الغنى المادِّيِّ، وهم قطعاً مجرَّدون من غِنى المعرفة الذي يشكِّل الغذاءَ الوحيد والغنى الأوحد للعقل؛ وحيثُ أنَّ الرُّوح هي أعظم جدارةً من الجسد، فهذا يستدعي

---

(1) ثمَّة تهكُّمٌ خفيٌّ في هذا الاستهلال إذا ما قارنّاه بالاستهلالات الثلاثة السابقة التي يعرض فيها دافنشي معارضتَه لخصومِه، من ذوي الفِكر اللاتيني الجديد، على نحوٍ صريحٍ ومباشر.

(2) الإشارة هنا إلى مبحثِه في الرَّسم المنظوري.

(3) انظر الفقرة 102 من الباب الأوَّل.

أنَّ مقتنيات الرُّوح أعظم جدارةً من مقتنيات الجسد. وفي أغلب الأحيان، حين أرى واحداً من هؤلاء يقبضُ على عملي بيديه، أستغربُ إذا هو لم يضعه كمثلِ قردٍ على خطمه، أو يسألني إن كان صالحاً للأكل.

6. **استهلال.** أنا مُدركٌ تماماً، لكوني لستُ رجلَ أدبٍ، أنَّ بعض المتبجِّحين سوف يرون في ذلك سبباً وجيهاً لذمِّي، متذرِّعين كما قلتُ بأنِّي لستُ رجلَ أدبٍ. يا لَلحمقى! أفلا يخشَون أن أردَّ عليهم كما ردَّ **ماريوس** على نبلاء روما،[1] بالقَول: "أولئك الذين يجمِّلون أنفسَهم بثمار جهدِ الآخرين، سوف يحرِّمون عليَّ اقتبالَ ثمارِ ذاتي". سوف يقولون إنِّي لا أستطيع، لغيابِ مهاراتي الأدبيَّة، أن أعبِّرَ كما ينبغي عمَّا أرغبُ في طرحِه؛ لكنَّهم يجهلون أنَّ موضوعاتي مشغولةٌ بالتَّجربة أكثر ممَّا بالكلمات؛ وهذه [التَّجربة] لطالما كانت معلِّمةَ أولئك الذين يُتقنون الكتابة؛ وباعتبارِها المعلِّمة الكبرى، سوف أستشهدُ بها في كلِّ مرَّةٍ، وأتغنَّى.

---

(1) يبيِّن جان بول ريختر أنَّ هذا القول الذي يعزوه دافنشي إلى ماريوس لا أثر له لا في كتاب **حياة ماريوس**، ولا في كتاب **موراليا** الذي يتحدَّث عن عادات وأعراف الرُّومان والإغريق، وكلاهما للمؤرِّخ اليوناني ميستريوس بلوتارخوس. كذلك لا وجود لهذا القول، كما يقول، في كتابات ڤالِريوس ماكسيموس (الذي كثيراً ما يأتي على ذكر ماريوس في مؤلَّفاتِه)، ولا عندَ المؤرِّخَين الرُّومانيَّين ڤلِّيوس باتِركولوس، ولوسيوس كاسيوس ديُّو، أو عند أولوس جِلِّيوس المؤلِّف والنَّحوي اللاتيني، أو حتَّى عند المؤلِّف الرُّوماني ماكروبيوس. ويرى ريختر أنَّ الأمرَ قد اختلطَ على دافنشي، ولذلك فهو يقترح استبدال اسم ماريوس باسم المستشار الرُّوماني مِنينيوس أغريَّا لاناتوس، وهذا ما يستدعي بالضَّرورة استبدال "نبلاء روما" بـ"رعاع روما"؛ ومع أنَّه تغييرٌ كبيرٌ إلا أنَّه ضروريٌّ لاستجلاء هذه الفقرة بحسب رأيه.

7. **مقدِّمةٌ إلى المنظوريَّة[1] - أو: إلى وظيفةِ العَين.** انظُرْ في هـذا التَّناقض أيُّها القارئ! إنَّنا قادرون، نحنُ البشر، على تـصديق أسـلافنا القدامى، الذين حاولوا أن يفسِّروا لنا ماهيَّةَ الـرُّوح والحيـاة العـصيَّتَين على كلِّ بيِّنةٍ وإثبات، في حين بقيـت تلـك الأشـياء القابلـة للتَّعريـف والبرهان بوضوحٍ عبرَ التَّجربة، مجهولةً ومُساءً فَهمُهـا لقـرونٍ طويلـة. فالعينُ، هذه التي نعرفُ وظيفتَهـا تمامـاً مـن خـلال التَّجربـة، قـد تمَّ تعريفُها، حتَّى زمني هذا، بطريقةٍ واحدةٍ مِن قبلِ عددٍ لا يُحـصى مـن المؤلِّفين؛ لكنَّني أجدُ، وبالتَّجربةِ، أنَّها شَيءٌ آخرُ مختلفٌ تماماً[2].

8. هذه القواعدُ كافيـةٌ لجعلـكَ قـادراً علـى تمييـز الأصـيل مـن الزَّائف؛ الشَّيءُ الذي من شـأنه أن يمكِّـنَ الإنـسان مـن رؤيـةِ الأشـياء المعقولةِ فحسب، بدون تطرُّفٍ أو مُغالاة. إنَّها القواعـد الـتي تنجِّيـكَ مِن الاستغراق في الجهل، هذا الذي لا ثمرة طيِّبة تُرتَجى منه، والـذي بسببه سوفَ تسلِّم نفسَكَ بقنوطٍ للسَّوداويَّةِ المُطلَقة[3].

---

(1) La Prospettiva ، لهـذه الكلمـة معنيـان، معـنىً عـامٌّ شـاملٌ هـو "التَّجـسيم المنظوري" الذي يتعلَّق بمظهـر الـشَّيء المجسَّم أو المنظـور، وعلـى هـذا فهـو وشيج الصِّلة بعلم البـصريَّات وتطبيقاتـه؛ ومعـنىً خـاصٌّ محـدَّدٌ هـو "التَّـصوير المنظوري" الذي يعتمد مبادئ الضوء والظـل والأبعـاد والعمـق ونقـاط التَّلاشـي وغيرها من أساسيَّات الرَّسم، ولأنني أعتقد أنَّ دافنشي، مـع تمييـزه الـدَّقيق بـين علم البصريَّات والعلم المنظوريِّ، يرى أنَّ العلمـين لا ينفـصلان عـن بعـضهما، فسوف أدمج المعنيين المُشار إليهما في لفظةٍ واحدة هـي "المنظوريَّـة"، كمـصدرٍ صناعيٍّ يُراد به خصائص كلا العلمين والكينونـات الناشـئة عنـهما، وذلـك طبعـاً باستثناء المواضع التي تردُ فيها الكلمة بمعناها الخاصّ.

(2) تنبغي الإشارةُ هنا إلى أنَّ دراسات دافنـشي حـول التَّـصوير المنظـوري وعلـم البصريَّات استندتْ بشكلٍ أساسيٍّ على وظائف العين، كما أنَّ بحوثه الفلكيَّـة كانت وثيقة الصِّلة بعلوم العين.

(3) أعدتُ كتابة ترجمة هذه الفقرة بشكلٍ مستقل كمـا وردتْ في الطَّبعـة الأصـليَّة التي اعتمدتُها.

9. وَقْعُ قوانيني. إذا أنتَ سألتَني: "ما الجدوى مِن قوانينك هذه؛ وفيمَ عسانا نجدُ أثرَها الطيِّب؟" فسوف أجيبُك بأنَّ هذه القوانين هي الرَّسَنُ الذي يلجمُ المخترعين[1] والباحثين عن الانجرافِ في تمنيةِ أنفسِهم والآخرين بوعود مستحيلة، وهي الحِرزُ لهم مِن أن يصبحوا مجانين أو مُخادعين.

10. ليست هذه الفكرة في مكانِها هنا، ولكنَّها مطلوبةٌ للكلام على تكوينِ الأجسامِ الحيَّة؛ أمَّا تعريفُ الرُّوح فأتركُه لتصوُّراتِ رجال الدِّين، ذلك أنَّهم آباءُ البشرِ العارفون بجميعِ الأسرار بفضلِ ما أوتوه من وحيٍ وإلهام.

إنَّني أترك الكتبَ المقدَّسة جانباً؛ لأنَّها تمثِّلُ الحقيقة الأسمى[2].

11. مَن يُحاجِجْ معوِّلاً على المكانة[3]، يستخدمْ ذاكرتَه أكثر ممَّا يستخدم ذكاءه.

12. الثَّقافةُ الفعَّالة هي مولودةُ فطرةٍ فعَّالة؛ وحيثُ أنَّ العلَّةَ أولى بالثناء منَ الأثَر، فإنَّني أثني على فطرةٍ فعَّالةٍ تُعوِزُها الثَّقافة، أكثر ممَّا أثني على ثقافةٍ فعَّالةٍ تُعوِزُها الفطرة.

13. عن الأجسام الثلاثةِ المنتظمةِ خِلافاً لزعمِ بعضِ الشُّرَّاح المنتقصين من شأن القدماء الذين أوجدوا علم النَّحو وسائر العلوم ...[4].

---

(1) الترجمة الحرفية هي "المهندسين"، لكنَّني أرى أنَّ دافنشي يقصد بها "المخترعين".

(2) يشير جان بول ريختر إلى أنَّ دافنشي لا يقصد بالكتب المقدَّسة الأناجيل فحسب، وإنَّما يريدُ معها أعمال الآباء الأوَّلين، وسائر الكتب الأخرى التي تُعتبَر مقدَّسة في رأي الكنيسة الرُّومانيَّة.

(3) أغلبُ الظَّنِّ أنَّه يقصدُ المكانة العلمية أو الفكريَّة.

(4) ثمَّة انخرامٌ في هذه الفقرة على ما يبدو؛ أمَّا الأجسام الثلاثة المنتظمة فهي رباعي السُّطوح، والمجسَّم الثماني، والعشروني الوجوه.

14. عندي فائضٌ من مفرداتِ لغتي الأم، حدَّ أنَّني أعاني من مشقَّة تفسيرِ الأشياء على الوجهِ الأنسب، أكثر ممَّا أعاني من نُقصان الكلمات التي أستطيع بها التَّعبيرَ جيِّداً عن تصوُّراتِ فِكري[1].

15. مِن بينِ جميع الدِّراسات المتَّصلةِ بالأسباب والمسبِّبات الطَّبيعيَّة، الضَّوءُ هو أكثرُ ما يستهوي المتفكِّرين؛ ومن بين السِّمات الكبرى لعلوم الرِّياضيات، يقينيَّةُ براهينها هي أسمى ما يرتقي بقرائحِ الباحثين. ينبغي، إذن، تفضيلُ **المنظوريَّةِ** على سائرِ سياقاتِ وجدليَّاتِ العلومِ الإنسانيَّةِ. في هذا الفرع من العلوم، تمَّ شرحُ شعاعِ الضَّوء بالاستناد إلى طرائق الإثبات التي لا تمثِّلُ مفخرةً للرِّياضيات فحسب، وإنَّما للفيزياء أيضاً، وبأزهارِ الاثنينِ معاً كُلِّلَ شعاعُ الضَّوء. لكن والحالُ أنَّ المسلَّمات حولَ الضَّوء لطالما اكتُنفتْ بكثيرٍ من اللفِّ والدَّوران، فمن واجبي اختزالُها إلى خُلاصةٍ قاطعة، عبرَ نسجها في بعضِها وفقاً لشرطِ أنساقِها الطَّبيعيَّة ولمنهجِ الإثبات الرِّياضي معاً، مرَّةً باستخلاصِ النَّتائج من الأسباب، ومرَّةً بالاستدلالِ على الأسباب من النَّتائج، مُضيفاً كذلك إلى استنتاجاتي ما يمكن، بالرَّغم من عدمِ اشتمالِ تلك المسلَّمات عليه، أن يُستخلَصَ منها. هكذا، إذا تكرَّمَ الله - الذي هو نورُ كلِّ شيءٍ - عليَّ بتنويرِ [عقلي]، أنا الباحثُ في أحوالِ **الضَّوء**، فسوفَ أقسِّمُ هذا العملَ إلى ثلاثةِ أجزاء[2].

---

(1) كأنِّي بدافنشي هنا يعكسُ قولةَ النِّفَّري فيقول: "كلَّما ضاقت الرُّؤية، اتَّسعتِ العبارة"، ولا عجبَ في ذلك، فمَن كان مع التَّجربةِ والواقع، وضدَّ الشَّطح والخيال، تضيقُ عندَه الرُّؤية القلبيَّة للأشياء، فيستغلقُ إذَّاك عليه إدراكُها، وعندما تضيق الرُّؤية تصيرُ العبارةُ فضفاضةً عليها.

(2) لعلَّ الإشارة هنا إلى الفروع الثلاثة للمنظوريَّة التي تحدَّث عنها دافنشي في كتاباته عن فنِّ الرَّسم وهي: "المنظوريَّة الخطيَّة"، "منظوريَّة اللون"، و"منظوريَّة التَّلاشي".

16. وأنتَ، يا مَن تقولُ بأنَّ النَّظرَ إلى مُشرِّحٍ أثناءَ تأديةِ عملِه أفضلُ من النَّظرِ إلى هذه الرُّسوم، قد تكون محقّاً لو كان من الممكن ملاحظةُ جميعِ الأشياء الظَّاهرة في رسومٍ كمثلِ هذه مجموعةً في شكلٍ واحد[1]؛ ولكنَّك، مع جميع مهاراتِك، لن ترى أو تلحظَ في ذلك الشّكل أكثرَ من بضعةِ عروق؛ بضعةِ عروقٍ سبقَ لي أن فسَّختُ، في سبيلِ الحصول على معرفةٍ صحيحةٍ وكاملةٍ عنها، أكثرَ من عشرةِ أجسادٍ بشريَّة، مُخرِّباً كلَّ عضوٍ جُسمانيٍّ سِواها، ومُزيلاً أدقَّ ذرَّاتِ اللحمِ المغلِّف لها، من دون أن أريقَ قطرةَ دمٍ واحدة، خلا النَّزيف اللامحسوس للأوردةِ الشَّعريَّة؛ وبما أنَّ جسداً واحداً لن يكفي لأمدٍ طويل، كان لا بدَّ من مواصلةِ العملِ على عدَّة أجساد بالتَّدريج، هكذا حتَّى بلوغِ المعرفة الكاملة حيالَها؛ وهو الشَّيء الذي كرَّرتُه مرَّتين، من أجل أن أقفَ على الفروق[2].

أمَّا أنتَ، إذا قُيِّضَ لك الشَّغفُ بمثل هذه الأشياء، فأغلبُ الظَّنِّ أن يحولَ بينكَ وبينها الشُّعور بالتقزُّز، فإن لم يَحبِسْكَ هذا عنها، حبَسَكَ عنها، ربَّما، الخوفُ من قضاء سُوَيعاتِ الليلِ في صحبةِ تلك الجثامين المقطَّعةِ والمسلوخة والمروِّعة لقلوب النَّاظرين؛ وإن لم يحبِسْكَ عنها لا هذا ولا ذاك، أعوزَتكَ، ربَّما، المهارةُ في الرَّسم، وهي التي لا بدَّ منها لتصويرٍ مِن قبيل هذا.

وإذا أنتَ حُزتَ تلكَ المهارة، فالأرجح أنَّها لن تكون مصحوبةً بالإحاطةِ بعلمِ المنظوريَّة؛ وإذا كانت مصحوبةً بها، فقد يُعوِزُكَ الإلمامُ بطرائق البَيان الهندسيِّ وبطرائق حساب القوى والقدرات العضليَّة؛ وربَّما أعوزَكَ الصَّبر، ففقدتَ إذَّاك كلَّ دأبٍ ومُثابرة.

---

(1) يقصد: "في شكلٍ تشريحيٍّ واحد".

(2) يشير جان بول ريختر إلى أنَّ الخطاب هنا موجَّهٌ إلى دارسي فنِّ الرَّسم والفنَّانين الشُّبَّان لا إلى رجال الطبِّ وأخصَّائيي التَّشريح.

أمَّا عمَّا إذا كانت كلُّ هذه النَّواحي موجودةً فيَّ أم لا، فإنَّ المئة والعشرين كتاباً الموضوعةَ مِن قِبَلي قمينةٌ بإصدار الحُكم بِـ "نعم" أو "لا"، وهي التي لم يثنِني عن إنجازها لا البُخلُ ولا الإهمال، وإنَّما قِصَرُ الوقت فحسب. وداعاً[1].

17. أيُّها الكاتب، بأيَّة حروفٍ سوف تصوغُ هذا التَّمثيلَ كلَّه الذي يصوغُه الرَّسمُ، ههنا، بمثلِ هذا الكمال؟ إنَّكَ، لعدمِ معرفتكَ بالرَّسم، تكتبُ كلاماً مشوَّشاً، وتقدِّمُ وصفاً طفيفاً عن الصُّور الصَّحيحة للأشياء، أنتَ المضلَّلُ بها حدَّ الاعتقاد بأنَّك قادرٌ على إرضاء السَّامع كُلِّيةً بمجرَّد الكلام على صورة أيِّ شيءٍ مجسَّمٍ مَحُوطٍ بسطحٍ ظاهرٍ. ولكنَّني أُذكِّرُكَ بأنَّكَ لا تُعجِزُكَ الكلماتُ إنْ كنتَ لا تعرضُ كلامَك على العُميِ، أو إنْ كنتَ، كذلك، تُبيِّنُه للآذانِ لا لِأعيُنِ النَّاس، فاجعلْ كلامَكَ إذنْ على أشياء ذات جوهرٍ وذاتِ كينونة، ولا تحشُرْ نفسَك في ما هو مخصوصٌ للعين بأن تحوِّلَه إلى مجرى الأذُن، لأنَّكَ حتماً ستكون مغلوباً ومُستعلَىً بعملِ الرَّسَّام.

بأيَّةِ حروفٍ سوف تصفُ هذا القلبَ ما لَم تملأْ كتاباً؟[2] إنَّكَ كلَّما قطعتَ في الكتابة على المُسوَّدة شوطاً أكبر، زدتَ ذهنَ السَّامعِ تشويشاً على تشويش، وازددتَ حاجةً إلى المفسِّرين أو إلى الرُّجوع إلى الخبرة العمليَّة وهي البالغةُ الضَّحالة عندَك، ولا تمنحُكَ سوى معرفة القليلِ من الأمور مقارنةً مع كاملِ جوانبِ الموضوع الذي تريدُ الإلمامَ بالمعرفة التَّامَّة عنه.

---

(1) تحيَّة الوداع التي يستخدمها دافنشي هنا هي "Vale" بالإيطاليَّة، وهذه التَّحيَّة مخصوصةٌ بالقول منَ المحتَضَر أو للمُحتَضَر؛ حيث يتحدَّث دافنشي في هذه الفقرة المكتوبة في الفترة الأخيرة من حياته عن 120 مخطوطةً له، وهذا ما لا يدع مجالاً للشَّك، كما يؤكِّد ريختر، في أنَّ القسم الأكبر من مخطوطاته لا يزال مفقوداً.

(2) يقصد عضلة القلب من النَّاحية الشَّكليَّة والتَّشريحيَّة.

18. أيُّها المتأمِّلُ في هذه الآلة التي لنا[1]، لا يَحزُنْكَ أن تأخذَ المعرفةَ من موتِ الآخرين، بل افرحْ لأنَّ مُحيينا جعلَ العقلَ وقفاً على آلةٍ في مثل هذه العظَمة.

19. إنِّي لَكاشِفٌ للبشرِ المنشأَ الأوَّلَ، أو ربَّما الثَّاني، لعلَّةِ وجودِهم.

20. وأنتَ أيُّها الإنسان، يا مَن تَبيَّنْتَ في عملي هذا الأعمالَ الباهرةَ للطَّبيعة، إذا رأيتَ أنَّ تدميرَه قد يكون أمراً وحشيّاً، فكِّرْ آنئذٍ كم هو في غاية الوحشيَّة سلبُ حياةِ بني الإنسان؛ هؤلاء الذين، إذا بدا لكَ تكوينُهم الخارجيُّ مَصوغاً على أعظم مِثال، فتذكَّرْ أنَّه محضُ هباءٍ قياساً على الرُّوح التي تسكنُ ذلك البُنيان، والتي، مهما تكن ماهيَّتُها، لا ريبَ في ألوهيَّتِها. اترُكْها إذن مقيمةً في صُنعةِ يديه[2]، حسبما يشاء ويهوى، ولا تسمحْ لِهِياجِك أو لنوازع الشَّرِّ فيك أن تدمِّرَ حياةً بمثلِ هذه الرَّوعة ـ ذلك أنَّه، والحقَّ أقول، مَن لا يقدِّرُ الحياةَ حقَّ قدْرِها لا يستحقُّها ـ وحيثُ أنَّها تغادرُ الجسدَ قسراً على هذه الشَّاكلة، فإنَّ حُزنَها وألمَها ليسا في اعتقادي من دونِ سبب.

21. إنِّي أُلقِّنك كيفَ تصونُ صحَّتَك؛ هذا الذي لن تُوفَّقَ إليه إلا بقدرِ ما تتحاشى الأطبَّاء، ذلك أنَّ وصْفاتِهم إنَّما هي مِن عملِ الكيميائيِّين، وما أكثر كتبَ الكيمياء الموضوعةِ، مِن قبلِهم، باسمِ الطِّبِّ.

---

(1) يقصد بالآلة هنا جسد الإنسان.

(2) هاء الغائب هنا تعود إلى الله.

22. أرى أنَّ مِن بين سذاجات البشرِ الأخرى الفائقة وغير المحتمَلة بحثَهم عن سرِّ الحركةِ المستمرَّة، وهي التي يسمِّيها البعضُ "العجلةَ الأبديَّة". هذه المسألةُ استغرقتْ قروناً كثيرة، مستحوذةً على سلسلةٍ طويلةٍ من البحوث والتَّجارب وهدرِ الأموال، وعلى عقولِ قرابةِ جميع الرِّجال المفتونين بالوحدةِ التَّركيبيَّةِ لآلاتِ الماء والحربِ وسواها مِن الآليَّاتِ الدَّقيقةِ الأخرى. لكن دائماً ما يحدثُ معهم في النِّهاية نفسُ الشَّيء الذي يحدثُ مع المشتغلين بالكيمياء، حيث بسببِ جزئيَّةٍ واحدةٍ صغيرة يضيعُ الكلّ. من هنا، إنِّي لَأزمعُ الآنَ على صُنعِ حَسَنةٍ لهذه الطَّائفةِ من الباحثين، بأن أمنحَهُم سكينةَ البالِ حيالَ هذه المسألة، لينعموا بها ما دامَ مؤلِّفي البسيط هذا قائماً بين ظهرانيهم. وفوقَ هذا، فإنَّني أقدِّمُ لهم ما يتعهَّدون هم أنفسُهم بتقديمه، وما يمثِّلُ بالنِّسبة لهم هدفَهم المشتهَى، فأجنِّبهم بذلك اضطرارَهم الدَّائم إلى الهروب من الأمراء وحكَّامِ الشُّعوب كلَّما تعذَّرَ عليهم تحقيقُ وعدٍ من وعودِهم لهم. أذكرُ في هذا المقام أنَّني رأيتُ كثيرين، ممَّن قدموا من بلدانٍ مختلفة، يقصدون، لِسذاجتِهم الصِّبيانيَّة، مدينةَ فينجيا[1] يحدوهم أملٌ عظيمٌ بتحقيق مبتغاهم، فيصنعون طاحوناً في المياه الرَّاكدة، وإذ يعجزون مِن ثَمَّ، وبعدَ بذلِ الكثيرِ من المال، عن تحريك تلك الآلة، تَراهم يُرغَمون على تحريكِ أنفسِهم بغَيظٍ شديدٍ لكي يغادِروا ذلك المكان.

23. أوه! أيُّها المتفكِّرون في "الحركةِ المستمرَّة"، كم من التَّصاميم الفارغة التي يشبِهُ بعضُها بعضاً قد ابتكرتُم! ألا اذهبوا وانضمُّوا إلى زمرةِ المنقِّبين عن الذَّهب.

---

(1) تسمية قديمة لمدينة فينيسيا.

24. أوه! أيُّها المتفكِّرون في كلِّ شيء، لا تُفاخروا بمعرفةِ الأشياء التي تأتي بها الطَّبيعةُ بِحُكم العادة؛ ولكن ابتهجوا إذا ما عرفتم مآلَ تلك الأشياء التي ابتكرتموها بأنفسِكم.

25. لَكَم هي أعمالُ الطَّبيعةِ أعصى على التَّفسير مِن كتابِ شاعرٍ!

***

خُفتان وكشفٌ واحدٌ

1. إذا أردتَ صُنْعَ تماثيلك من البرونز، خشيةَ أن يرفعها أحدٌ من مكانِها، فاعلمْ أنَّ كلَّ الرَّوائع في روما إنَّما هي أسلابٌ نُهِبَتْ من مدنٍ وأقاليم هزمتْها جحافلُ الرُّومان. أولَمْ تَرَ كيف لم تُجْدِها أوزانُها المُذهلةُ نفعاً، فرُفِعتْ كشأنِ "المسلَّة" و"الحصانَين". فإنْ أردتَ العمل بالبرونز لهذا السَّبب، فاحرصْ أن تكونَ أعمالُكَ رديئةً، لئلَّا تُحمَلَ بعيداً، والأجدرُ بكَ أن تعملَ بالجير وتبني الأسوار. اعملْ كما تُملي عليكَ نفسُك، واصنعْ وأنتَ موقنٌ أنَّ كلَّ شيءٍ إلى زوال. فإذا قلتَ بأنَّك لا ترغب بصُنعِ ما قد يشرِّفُ الصَّانعَ أكثرَ مِنَ المنتفِع، فأيقنْ أنَّ أكثر الأشياء تمنحُ الشَّرفَ لصانعِها لا لِشاريها.

2. في يومِ الجمعة، السَّادسِ مِن شهر حُزَيران 1505، في تمامِ السَّاعة الثَّالثة عشرة، بدأتُ التَّلوينَ في فِناء القصر. ما إنْ لامستِ الفرشاةُ اللوحةَ حتَّى ساءَ الطَّقس، وقصفَ الرَّعدُ على امتداد السَّماء، فيما النَّاس يتصايحونَ إلحافاً. مُسَوَّدةُ الرَّسمِ تمزَّقتْ، الماءُ انسكبَ وانكسرَتْ آنيتُه. هكذا فجأةً، ساءَ الطَّقس، وأمطرتْ حتَّى المساء وابلاً ضخمَ القَطْر، واحْلَولَكتْ كأنَّها الليل.

3. ليلةَ **القدِّيس آندريا** اكتشفتُ الغايةَ مِن تربيع الدَّائرة. ومع انتهاء الشَّمعة والليلِ والورقةِ التي كنتُ أخطُّ عليها، انتهيتُ أنا الآخر. في آخِرِ السَّاعة.

* * *

كـلامٌ ضـدَّ الاخـتـزالـيِّين

1. لا مُختـزِلين، وإنَّمـا مُغفلـينٍ ينبغـي أن يُـدْعَوا أولـئـك الـذين يختزلون الأعمالَ الأدبيَّةَ، أيّاً تكنَ تلكُمُ الأعمال.

2. لا بدَّ مِن قول كلامٍ في تأنيـبِ المُريـدين، والمنـاوئين لعلـوم التَّشريح ومُختزِليها.

3. a) مَـن يَـذمُّ اليقينيَّـةَ العُليـا للرِّياضـيات فإنـه يتغـذَّى علـى الفوضـى، وأبـداً لـن يُفلِـحَ في إفحـام تناقـضات العلـوم السُّفسْطائيَّة، هذه التي تُفضي إلى ضوضاءَ لا نهائيَّة.

b) إنَّ المختزلين يحطُّون من شأن المعرفة ومن شـأن الحُـب، ذلك أنَّ حُبَّ أيِّ شيءٍ إنَّما هو ابنُ تلك المعرفة، وكلَّما كانت المعرفةُ أقوى يقينيَّةً كانَ الحُـبُّ أشـدَّ توهُّجـاً؛ واليقينيَّـةُ هـي وليدةُ المعرفة الموحَّدة لكلِّ تلك الأجزاء التي، حـينَ تنـدمِج في بعضِها، تؤلِّفُ كُلِّيَّةَ الشَّيء الذي ينبغي أن يُحَبَّ.

فأيُّ قيمةٍ، إذن، في أن يختـزلَ المـرءُ تفاصـيلَ تلـك الأشـياء التي يزعَمُ إعطاءَ معلوماتٍ شاملةٍ عنها، فيما هـو يتـركُ وراءه القسمَ الأعظمَ من الأشياء التي مِنَ مجموعِها يتألَّفُ **الكُلُّ**؟

حقّاً إنَّها قلَّة الصَّبر، التي هي أمُّ الغباوة، ما يُسبغُ المـديحَ للإيجـاز. مثلُ هؤلاء لا تكفيهم حياةٌ مديدةٌ كاملة لكي يحيطوا علمـاً بموضـوعٍ واحدٍ مُفرَد، كجسمِ الإنسان! وفوقَ هذا يريدون الإحاطـةَ بعقـلِ الله الذي فيـه متـضمَّنٌ الكـون، مُقـرِّطين ومجـزِّئين إيَّـاه إلى دقـائقَ لا تُحصى، كما لو أنَّهم يشرِّحونَه، كما لو أنَّهم يشرِّحون عقلَ الله!

أوه، أيَّتـها الغبـاوةُ البـشريَّة! أفـلا تـدركين أنَّـكِ، وبـالرَّغمِ مـن مُلازَمَتـك لنفـسِكِ طـوالَ عُمـرِك، غافلـةٌ عـن الـشَّيء الـذي

تمتلكينه أكثر من سواه، ألا وهـو حماقتُـك؟ ثمَّ إنَّـك، ومعَـكِ زُمَرُ السُّفسْطائيِّين، تضلِّلون أنفسكم والآخرين، مُستخفِّين بعلـوم الرِّياضياتِ، هذه الـتي في ثناياهـا تُقـيم الحقيقـة، ومعرفـةَ الأشـياء محتـواةٌ ضـمنَها؛ وفـوقَ هـذا وذاك، تخوضـين في المعجـزات، وتكتبين أنَّ عندكِ علْمَ الأشياء التي يعجز عقلُ الإنسان عنها، والـتي لا يُمكنُ إثباتها عبرَ أيِّ مثالٍ مـن الطَّبيعـة؛ وتتـوهَّمين، بعـدُ، أنَّك صنعت معجزاتٍ إذْ أفسدتِ عملَ أحدَ العقولِ المفكِّـرة، غيرَ مُدركةٍ أنَّك تقعينَ في نفسِ خَطأ ذلك الذَي يعرِّي شجرةً من زينـةِ أغـصَانها المغطَّـاة بـالأوراقِ المختلِطـةِ بـالزَّهرِ العـابقِ أو بالثِّمَار، لِيُثبتَ أنَّها تصلَحُ لرسمِ نَبتةٍ جرداء!

كذلك فعلَ **جوستينوس**[1] إذ اختزلَ الأحداث التَّاريخيَّة الـتي دوَّنها **تروغوس بومْبِيوس** ـ الذي كان قد سـجَّل جميـعَ مـآثرِ أجدادِه العظيمة الشَّأن بأسلوبٍ منمَّقٍ وعباراتٍ بديعةٍ مزخرفـة ـ؛ فانتهى به الأمرُ إلى صـفٍّ كلمـاتٍ جـرداء لا تليـق إلا بتلـك النُّفوس النَّافدةِ الصَّبر التي تتوهَّمُ أنَّها تبدِّدُ مِن الوقتِ بقدرِ مـا تنهمكُ على نحوٍ نافعٍ في تأمُّلِ أفعالِ الطَّبيعة وصنائع الإنسان.

لكن، ليلزمْ أمثالُ هؤلاء صحبةَ البـهائم، ولـتكنْ حاشـيتُهم مـن الكــلاب والحيوانــات الأخــرى المفعمــة بنَزْعــاتِ النَّهــبِ والاغتصاب، وليتصيَّدوا معهم، متعقِّبين آثار الحيوانـات البريئـة العاجزة، تلك التي كلَّما أثلجتِ السَّماء حضَّها الجوع على الـدُّنوِّ من بيتِك التماساً للصَّدقة، كما لَو أنَّكَ الوصيُّ عليها.

---

(1) ماركوس جوليانوس جوستينوس، مؤرِّخ روماني عاش في القرن الثـاني للمـيلاد، قـامَ بجمعِ خلاصةٍ من مؤلَّف "التَّاريخ العام" لِتروغـوس بومْبِيـوس الـذي عـاش في زمـن الامبراطور أغوسطوس، وهذا المؤلَّف الضَّخم لِتروغوس لم يعد موجوداً.

فإن تكنْ أنتَ حقّاً، مثلما دوَّنتَ في شواهد التَّاريخ، مَلِكَ الحيوانات جميعاً ـ والأحرى بك أن تقولَ مَلِكَ البهائم، حيث أنَّك الأعظم ـ فلماذا إذن لا تشدُّ أزرَها وهي التي تقدِّمُ ذراريَّها كرمى لشراهتِك، حتَّى غدا جسدُكَ مدفناً لسائر الحيوان؟ ولكنتُ قلتُ أكثرَ من هذا لو كان قولُ الحقيقة مُباحاً لي بالكامل. لكن، لا يثنينا شيءٌ عن القول إنَّ الأفعالَ البشَريَّة تمثِّل خلاصةَ الإجرام الذي لا وجودَ له عند حيوانات الأرض قاطبةً، ذلك أنَّه ليس بينها كائنٌ يأكل أبناء جنسِه إلا لخللٍ في دماغِه ـ فهؤلاء بينهم المجانين، كما بين البشر، ولئن كانوا ندرةً ـ وهذا لا يقعُ إلا عند الحيوانات الضَّارية، كما عند أنواع الأسود والفهود، النُّمور، الثعالب، القطط وأمثالها من المخلوقات التي تأكل أحياناً أبناءها؛ أمَّا أنتَ فإنَّك، زيادةً على الأبناء، تأكل الأبَ والأمَّ والأخوةَ والأصدقاء، ولا يكفيك هذا، فإذا بك تذهب لتتصيَّدَ في الجزر الأخرى مغتصباً رجالاً آخرين، مقطِّعاً أطرافهم وخُصاهم لتسمِّنَ جسدَك على ذلك اللحم الذي سوف يتغلغلُ فيك نافذاً من حلقك! أولَم تأتِ الطَّبيعةُ بما لا يُحصى من الأشياء البسيطة التي قد تُشبعُ نهمَك؟ وإذا كنتَ لا ترضى بالبسائط، أما كان بوسعِك، عبرَ مزجها ببعضِها، أن تصنع ما لا نهاية له من المعقَّدات، حسبَما كتبَ **بلاتين**[1] والمؤلِّفون الآخرون عن الشَّراهة؟[2].

---

(1) هو الاسم الذي عرف به بارتولوميو ساكّي Bartolomeo Sacchi (1421-1481م)، الذي يعتبر من أعلام الحركة الإنسانية الأدبية في عصر النهضة الأوروبية، ويشير أحد الدارسين إلى احتمال أن يكون دافنشي قد كتب هذه الفقرة متأثراً بكتاب "الشهوة الصَّادقة وصحَّة الجسد" لبارتولوميو، والذي طُبِعتْ منه نسخٌ شعبيَّة في البندقية سنة 1487م، فكان في متناول العامَّة.

(2) الملاحظات الغريبة التي ترد في هذه الفقرة حول "أكل لحوم البشر" أخذها دافنشي من موسوعة "التاريخ الطَّبيعي" لبلينيوس.

c) فإذا عثرتم على شخصٍ مستقيمٍ وطيِّب، لا تُقصوه عنكم، بل شرِّفوه وبجِّلوه لئلَّا ينفر منكم وينكفئ إلى الصَّوامع أو الغِيران أو أيِّ مكانٍ منعزلٍ آخَر هرباً من مكائدكم؛ إن يكن بينكم واحدٌ كهذا شرِّفوه وعظِّموه، ذلك أنَّ هؤلاء هم آلهتنا الأرضيُّون؛ هؤلاء هم مَن يستحقُّ منَّا التَّماثيل والتَّصاوير والتَّبجيل. لكن تذكَّروا أنَّ صورَهم لم تُصنَع لتأكلوها، مثلما يحدث إلى اليوم في بعض أجزاء الهند[1]، حيث كلَّما حقَّقتْ تلك الصُّور معجزةً ما ـ حسبَ رأيهم ـ قامَ الكهنة بتقطيعها إلى أجزاءٍ، وهي مِن خشب، ليُصار إلى تقدمتها لسوادِ الشَّعب هناك، لكن ليس من دون مقابل، ويقوم كلٌّ واحدٍ مِن ثمَّ بِبَشْرِ حصَّته إلى غبارٍ ناعمٍ يضعهُ على أوَّلِ طعامٍ يتناوله، معتقداً بإيمانٍ عميق أنَّه على هذا النَّحو يلتهمُ قدِّيسَه الذي سوف يحفظُه بعد ذلك من جميع المهالِك. فما رأيك هنا، أيُّها الإنسان، في جِنسِك؟ هل أنت حكيمٌ بقدْرِ ما تعتقد؟ هل يجدر بمثل هذه الأمور أن تكون من صُنع بشر؟

---

(1) ليتوثَّق من هذا الأمر قام جان بول ريختر آنذاك بمراسلة الدكتور G. W. Leitner المقيم في لاهور، وكان هذا جواب الأخير: "وفقاً لمعرفتنا بالعادات الهنديَّة، فإنَّ هذه الممارسات التي تحدَّث عنها ليوناردو على أنَّها "تحدث إلى اليوم في بعض أجزاء الهند" هي في الحقيقة غير معروفة على الإطلاق؛ كما أنَّها تتعارض تماماً مع روح الديانات الهندوسيَّة والمحمَّديَّة والسِّيخيَّة. في وسط التيبت يُمزَج رمادُ الموتى، بعد حرقهم، مع العجين حيث تُدمغ على المزيج من ثمَّ صورٌ صغيرة، لبوذا عادةً، يوضَع بعضُها على القبور، والبعض الآخر يتبادله الأقرباء في ما بينهم. قد تكون هذه الممارسات التي تحدَّث عنها ليوناردو سائدةً هناك ولكنَّني لم أسمع بها مطلقاً." ويشير جان بول ريختر إلى احتمال أن تكون الشعوب الأصلية لأمريكا هي ما يقصده دافنشي.

d) وفي هذه الحالة أعلم أنَّني سأكتسبُ القليل من الأعداء بالنَّظر إلى أنَّ أحداً لن يصدِّق ما أستطيع قولَه عنه؛ ذلك أنَّهم قلَّةٌ أولئك الذين يأنفون رذائلَ الآخر، بل لتجدنَّهم يبغضون مَن تخالفُ طبيعتُه تلك الرذائل؛ وما أكثر الذين يكرهون آباءهم، ويدمِّرون صداقاتِهم مع مَن يقبِّح عليهم رذائلهم؛ هؤلاء لا يسمحون بأيِّ مِثالٍ مخالفٍ لهم، ولا بأيِّ نصيحةٍ بشريَّة.

* * *

ضدَّ العرّافِ والخيميائي

1. لا يمكن أن يكون صوتٌ حيث لا تكون حركةٌ وضربٌ للهواء؛ لا يمكن أن يكون ضربٌ للهواء حيث لا تكون وسيلةٌ، ولا يمكن أن تكون وسيلةٌ من غير جسد؛ ولمّا كان الأمر كذلك، فمن غير الممكن أن تمتلك روحٌ صوتاً أو شكلاً أو مقدرة، وهي إذ تنتحل لها جسداً تكون عاجزةً عن النَّفاذ أو الدُّخول حيث الممرّاتُ موصَدَة. فإذا قال أحدٌ ما إنَّه، عبر الهواء المضغوط والمكثَّف معاً، يمكن الرُّوحَ أن تتَّخذ أجساداً بأشكال متعدِّدة، وبهذه الوسيلة تتكلَّم وتتحرَّك بمقدرة، فسوف أجيبه بأنَّه من غير أعصابٍ ولا عظام لا يمكن أن توجد قوَّةٌ مبذولةٌ في أيِّ حركةٍ منجَزة من قبل أرواحٍ مخيَّلة كهذه. حذار من تعاليم أولئك العرّافين، ذلك أنَّ أفكارهم ليست مُثبَتةً بالتَّجربة.

2. تأمَّلْ جيِّداً كيف، عبرَ حركةِ اللسان، مؤازَرةً بالشِّفاه والأسنان، يتَّضح نُطقُ كلِّ أسماء الأشياء لَنا؛ وكيف، بواسطة هذه الوسيلة، تبلغُ الكلماتُ البسيطة والمركَّبة للغة ما أسماعَنا؛ وكيف أنَّ هذه الكلمات، فيما لو قُدِّرَ لجميع مفاعيل الطَّبيعة أن تمتلك اسماً، يمكن أن تمتدَّ إلى ما لا نهاية، تساوقاً مع جميع الأشياء اللامتناهية الدَّاخلة في صميم عمل الطَّبيعة وقوَّتها؛ وليس لهذه الأشياء أن يعبَّرَ عنها بلغةٍ واحدةٍ فحسب، بل بعددٍ هائلٍ من اللغات التي تتشعَّب بدورِها إلى ما لا نهاية، ذلك أنَّها لا تتوقَّف عن التنوُّع من قرنٍ إلى قرن، ومن بلدٍ إلى آخر، من خلال تمازج الشُّعوب التي تختلط باستمرارٍ ببعضها نتيجةَ الحروب أو غيرها من الحوادث الطَّارئة؛ كما

أنَّ هذه اللغات نفسَها عرضةٌ للنِّسيان، وهي فانية كسائر الأشياء المبتكَرة؛ فإن نحن سلَّمنا بأنَّ عالَمَنا أبديٌّ أمكننا القول أنَّ هذه اللغات كانت، ولا تزال، لامتناهيةَ التَّنوُّع، من منظور القرون اللامتناهية التي تشكِّل الزَّمنَ اللانهائي.

ولا يصحُّ أن يكون لهذا أيُّ معنىً آخر، فالأمر ينسحبُ فقط على الأشياء التي لا تتوقَّف الطَّبيعة عن إنتاجها، وهي لا تبدِّلُ في ضروب تلك الأشياء المبتكَرة من قِبلها، مثلما تتبدَّل من وقتٍ إلى آخر الأشياءُ المبتكَرة من قِبل الإنسان، أداةِ الطَّبيعةِ العظمى هذا، ذلك أنَّ الطَّبيعة تهتمُّ فقط بإنتاج الأشياء الابتدائيَّة، في حين يُنتج الإنسان من هذه البسائط معقَّداتٍ لا حصرَ لها، ولكنَّه مع ذلك لا يملك القدرة على ابتكار أيِّ شيءٍ طبيعيٍّ إلا أن يبتكرَ نظراءَ له، وأولئك هم أولاده: وشهودي على ذلك الخيميائيون القدماء أنفسهم، الذين لم يُفلحوا أبداً، لا عن طريق الصُّدفة ولا بالتَّجربةِ المتعمَّدة، في الإتيان بالحدِّ الأدنى ممَّا يمكن الطَّبيعةَ الإتيانُ به؛ وللحقِّ فإنَّ هذه الفئة تستحقُّ مَدْحاً غيرَ محدود لما ابتكرته من أشياء نافعة للإنسان، ولَكانوا استحقُّوا ذلك المدحَ أكثر لو أنَّهم لم يكونوا المخترعين لأشياء مؤذية، كالسُّموم وأشباهها ممَّا يدمِّر الحياة أو العقل؛ على أنَّهم ليسوا مُعفَيْن أن يُلاموا على الإغراق في البحث والتَّجريب في سبيل تكوين ما ليس بأقلِّ نِتاجِ الطَّبيعةِ سموّاً، بل أعظمها على الإطلاق، ألا وهو الذَّهب، مولودُ الشَّمس الحقيقي، ذلك أنَّه يشبهها أكثر ممَّا يشبه أيَّ شيءٍ آخر في الوجود، وما مِن موجودٍ يفوق هذا الذَّهبَ خلوداً. إنَّه حصينٌ على النَّار، وهي التي لها السِّيادة على كلِّ الكائنات الأخرى، إذ تحوِّلهم جميعاً رماداً، بلَّوراً، أو دخاناً. فإذا كان الجشعُ الأحمقُ ولا بدَّ دافعاً إيَّاك إلى زلَّةٍ من قبيل هذا، فلماذا لا ترومُ المناجمَ حيث تنتجُ الطَّبيعةُ هذا الذَّهب، وهناك تكرِّسُ نفسَكَ

تلميذاً لها؟ لَسَوفَ تداويكَ بكلِّ إخلاصٍ من حماقتك إذ تريك كيف أنَّ لا شيء ممَّا تصنعه في أتونك يشبه شيئاً ممَّا تصنعُه هي في سبيل تكوين هذا الذَّهب. فهناكَ لا زئبق ثمَّةَ، ولا كبريت من أيِّ نوعٍ من الأنواع، لا نار، ولا أيَّ حرارةٍ سوى حرارة الطَّبيعة التي تُفعمُ الكونَ بالحياة. لَسَوفَ تُريكَ عروقَ الذَّهب كيف تتفشَّى في الحجر، في اللازَورد الأزرق، الذي لونه عصيٌّ على قوَّة النَّار. تأمَّلْ جيِّداً في تلك العروق، وسوف ترى كيفَ أنَّ نهاياتها تتمدَّد باستمرارٍ بحركة بطيئة، محوِّلةً إلى ذهبٍ كلَّ ما قد تلمسُه؛ ولتتبيَّنْ أنَّ ثمَّة هنالكَ كياناً حيَّاً لا يقع ضمن قدرتِكَ على التَّكوين.

3. لكن مِن بين جميع الميول البشريَّة التي ينبغي اعتبارها الأشدَّ حماقةً ثمَّةَ الإيمانُ باستحضارِ الأرواح، والذي هو أخو[1] الخيمياء، هذه المولِّدة لأشياء أوَّليَّة طبيعيَّة؛ غير أنَّ استحضار الأرواح يستحقُّ الزَّجرَ أكثر منها، ذلك أنَّه لا يتولَّد عنه أيُّ شيءٍ خلا الأشياء التي تشبِهه، ألا وهي الأكاذيب، وليس هذا هو الحال مع الخيمياء التي تشتغلُ بالمنتجاتِ البسيطةِ للطَّبيعة، وعملُها هذا لا تستطيعُ الطَّبيعةُ نفسُها إنجازَه، ذلك أنَّه ليس فيها من الوسائل المترابطة الأجزاء ما يؤهِّلُها للقيام بما يؤدِّيه الإنسان بواسطة يديه، اللتين بهما يصنع الزُّجاجَ وأشياءَ أخَر. إلا أنَّ استحضارَ الأرواح، هذا البَيرق، هذا العلَم الخفَّاق في مهبِّ الرِّيح، إن هو إلا المرشدُ الموجِّهُ للجمهورِ الأحمق الذي يقف على الدَّوام، بضجيجه الصَّخَّاب، شاهداً على المؤثِّرات اللامحدودة لصُنعةٍ من قبيل هذه. ولقد ملؤوا كتباً كاملةً في سبيل إثبات أنَّ الرُّقى والأرواح قادرةٌ على الإتيان بالأفعال

(1) حرفيَّاً "أخت"، لأنَّ الكلمة التي تعني استحضار الأرواح بالإيطاليَّة مؤنَّثة: Negromanzia.

والكلامِ من دون لسان، من دون الجهاز العضويِّ الذي يستحيل الكلام إلا به، وأنَّها قادرةٌ على حملِ أثقلِ الأوزان، وأنَّها تجلبُ العواصفَ والأمطار، وأنَّ البشرَ ينقلبون قططاً وذئاباً وبهائم أخرى، وما البهائم إلا أولئك الذين يجزمون بحقيقةِ هذه الأمور. وممَّا لا شكَّ فيه، إذا كان استحضارُ الأرواح هذا أمَراً واقعاً، كما تعتقدُ العقول الضَّحلة، فإنَّ ما من شيءٍ على الأرض، مهما بلغَ من القوَّةِ، يملك أن يضرَّ أو ينفعَ الإنسانَ: لأنَّه لو كان صحيحاً لامتلكَ المرءُ، بمثلِ هذا الفنِّ، القدرةَ على تشويش الصَّفاء المطمئنِّ للهواء، فيجعل مرآه مرأى الليل، ولاستطاعَ أن يرسلَ البرقَ والرِّياح مع الرَّعدِ والصَّواعق المفزِعة، [ترونَها] تشقُّ الظُّلمات، ولسخَّرَ العواصفَ الهادرة لإسقاط البروجِ واقتلاع الغابات، ولَواجهَ بذلك الجيوش وسحقَها أرضاً، لكنَّ الأخطرَ من ذلك كلِّه صنعُ الأعاصير المدمِّرة، ليسرقوا المزارعين ثمار جهدِهم، أوه! أيُّ أسلوبٍ للحربِ يمكِّنُ المرءَ من إنزالِ مهلكةٍ كمثلِ هذه بعدوِّه أعظم من امتلاك القدرةِ على سلبه محاصيلهِ؟ أيُّ قتالٍ بحريٍّ يشبه ذلك الذي يكون للمرء فيه سلطةٌ على الرِّياح فينشئ العواصفَ المدمِّرة القادرة على إغراق أيِّ أسطولٍ حربيٍّ؟ لا شكَّ في أنَّ كلَّ مَن يملك السُّلطةَ على مثل هذه القوى العظيمة سيكونُ هو سيِّدَ الأمم، وما من حيلةِ بشريَّة ستكون قادرةً على دفعِ جبروتِه المهلك: الكنوزُ الدَّفينةُ، والجواهرُ المخبوءةُ في جسدِ الأرض ستغدو كلُّها مكشوفةً له؛ لا قفلَ، ولا حصنَ، مهما بلغتْ منعتُه، سيستطيع تخليصَ أحدٍ من مشيئةِ مستحضرِ الأرواحِ هذا. إنَّه لَقادرٌ أنْ يُسْلِمَ نفسَه للهواءِ يحملُه من الشَّرق إلى الغرب، ونحوَ جميعِ أقاصي الكون. لكن ما لي أضيفُ مثالاً في إثر مِثال؟ فأيُّ أمرٍ يعجز عنه صانعٌ بارعٌ كهذا؟ لا شيء تقريباً، ما عدا إقصاء الموت.

هكذا نكون إذاً قد بيَّنَّا، جزئيّاً، الضَّررَ والنَّفع الكامنَين في هذه الصُّنعة في حال كانت أمراً واقعاً لا لُبسةَ فيه. فلو أنَّها كانت أمراً لا لُبسةَ فيه، فلماذا إذن نجدها تلاشتْ بين النَّاس الذين شدَّما يرغبون بها دون إقامة اعتبارٍ لأيَّةِ قُدسيَّة، علماً أنَّ بينهم عدداً لا حصر له من الأشخاص الذين لا يتورَّعون عن تدمير الله والكونِ بأسرِه في سبيل إشباع واحدةٍ من شهواتِهم؟ وبما أنَّها تلاشتْ بينِ النَّاس، برغم حاجتهم الماسَّة إليها، فهذا يعني أنَّها لم تكن موجودةً قطُّ، ومن غير الممكن أن توجدَ وفقاً لتعريفِ الرُّوح اللامرئيَّة، واللاماديَّة، لأنَّه ليس هناكَ ضمنَ العناصر أشياء لا ماديَّة، وحيث لا يكون جسدٌ يكون خواءٌ، والخواءُ لا وجودَ له ضمنَ العناصر، لأنَّه سرعانَ ما يُشْغَلُ من قبلِ العنصر.

4. **عن الأرواح.** لقد ذكرنا الآن، على الوجهِ الآخَر لهذه الصَّفحة، تعريفاً للرُّوح بأنَّها "قوَّةٌ متَّحدةٌ بالجسد، ذلكَ أنَّها مستقلَّةً بذاتِها لا تستطيع إبداء أيَّةِ مقاومة، ولا اتِّخاذَ أيِّ شكلٍ من أشكالِ الحركةِ الموضعيَّة". فإذا قلتَ إنَّها مكتفيةٌ بذاتها، فهذا لا يمكن أن يكونَ ضمنَ العناصر، لأنَّه لو كانت الرُّوح كميَّةً بحدِّ ذاتها من دونِ الجسد، فإنَّ هذه الكميَّة ليست سوى ما يُطلَقُ عليه خواءً، والخواء لا وجودَ له في الطَّبيعة، فما إن يتشكَّلَ خواءٌ من الأخْوِية حتَّى يُشْغَلَ في الحالِ إثرَ تهاوي ذلك العنصر فيه، العنصرِ الذي ضمنَه نشأ الخواء.

من هنا، وانطلاقاً من تعريف الوزن الذي يقول: "إنَّ الجاذبية هي قوَّةٌ عَرَضيَّة تنشأ من سقوطِ أو اندفاعِ عنصرٍ ما نحوَ آخَر"، سيترتَّب على ذلك أنَّ أيَّ عنصرٍ، ولئن يكن لا وزنَ له عندما ينوجد في نفسِ العنصر، يكتسب وزناً في العنصرِ الذي فوقَه، والذي هو أخفُّ منه وزناً؛ لذلك يرى المرء أنَّ جزءاً من الماء ليس له ثقلٌ ولا خفَّةٌ وهو

في بقيَّةِ الماء، في حين يكتسبُ هذا الجزء وزناً إنْ أنتَ استدرجتَه إلى الهواء، وإذا ما سحبتَ الهواءَ أسفلَ الماء فإنَّ الماء الموجود آنئذٍ فوق ذلك الهواء يكتسبُ وزناً، غير أنَّه وزنٌ غير قادرٍ على دعمِ ذاته بذاته، وبالتَّالي فإنَّ سقوطَه لا مناصَّ منه، فيتهاوى إذَّاكَ نحوَ الماء، إلى ذاتِ البقعةِ التي خوتْ من ذلك الماء. ولَحَدَثَ الشَّيءُ نفسُه للرُّوح لو أنَّها كانت من بين العناصر، لأنَّه من شأنِها والحال هذه أن تخلقَ باستمرارٍ خواءً في أيِّ عنصرٍ قد تحلُّ فيه، ولهذا السَّبب لا بدَّ لها من أن تكون في طيرانٍ دائمٍ نحوَ السَّماء، تجنُّباً للحلولِ في أيِّ عنصر.

5. **ما إذا كان للرُّوحِ جسدٌ بين العناصر.** لقد أثبتنا كيف أنَّ الرُّوح لا يمكن أن توجدَ مكتفيةً بذاتِها بين العناصرِ من دونِ جسد، وكيف أنَّها لا تستطيعُ الإتيان بحركةٍ طوعيَّةٍ من تلقاء نفسها باستثناء الحركةِ نحو الأعلى. وننتقلُ الآنَ إلى القولِ إنَّه لكي تتَّخذَ هذه الرُّوح من الهواء جسداً فإنَّه يتحتَّم عليها أن توزِّعَ نفسَها عبرَ هذا الهواء، لأنَّها إذا بقيت واحدةً متَّحدةً، كانت منفصلةً عنه وسقطتْ في الخواء المتشكِّلِ كما ذُكِر أعلاه. ومن ثَمَّ فإنَّه من الضروري، إذا ما أُريدَ لها البقاءُ معلَّقةً في الهواء، أن توزِّعَ نفسَها على مقدارٍ معيَّنٍ من الهواء؛ وإنْ هي امتزجتْ به نجمَ عن ذلك مشكلتان، أنَّها تخلخلُ ذلك المقدار من الهواء الذي امتزجتْ به، فيطيرُ ذلك الهواء، وقد قلَّتْ كثافتُه، متصاعداً نحو الأعلى من تلقاء نفسه، ولا يبقى معلَّقاً في الهواء ما هو أثقلُ منه؛ وعدا عن ذلك فإنَّه حالما يُقيَّضُ لهذه القوَّة الرُّوحانيَّةِ أن تتوزَّعَ وتنتشر، تنفصلُ أجزاؤها وتتفكَّك، كما تتعدَّلُ طبيعتُها، فتفقدُ بذلك شيئاً من قوَّتها السَّابقة.

يُضاف إلى ذلك مشكلةٌ ثالثة، ألا وهي، أنَّ جسدَ الهواءِ المنتحَلَ مِن قِبل الرُّوح هو [في الأصلِ] عُرضةٌ للاختراقِ مِنَ الرِّياح،

هذه التي لا تتوقَّفُ أبداً عن تفكيك وتمزيق الأجزاء المتَّصلة للهواء، فتطويها وتدوِّرُها وسط هواء آخَر؛ وبالتَّالي فإنَّ الرُّوح المنسكبةَ في ذلك الهواء سوف تتفكَّك، أَو تتقطَّع إرباً وتتمزَّق، جنباً إلى جنب مع تمزُّق الهواء الذي انسكبتِ الرُّوح فيه.

6. **ما إذا كانت الرُّوح، بانتحالِها جسد الهواء، قادرةً على الحركةِ من تلقاء نفسِها أم لا.** من المستحيل أن تكون للرُّوح المنتشرةِ ضمنَ مقدارٍ من الهواء القدرةُ على تحريكِ ذلك الهواء؛ وهذا ما بيَّنه المقطع السَّابق الذي جاء فيه: "إنَّ الرُّوح تَخلخلُ ذلك المقدارَ من الهواء الذي انسكبتْ فيه". هذا الهواء سيرتفعُ بالمحصِّلة فوقَ الهواء الآخَر، وما تلك الحركة إلا حركةُ الهواء نفسِه بسبب خفَّته الحاصلة، لا بسبب الحركة الطَّوعيَّة للرُّوح؛ وإذا ما اصطدم هذا الهواء بالرِّيح، كما وردَ حيالَ المشكلةِ الثَّالثة، فإنَّه سيتحرَّك بواسطةِ الرِّيح، لا بواسطةِ الرُّوح المنسكبةِ فيه.

7. **ما إذا كانت الرُّوح تستطيعُ الكلامَ أم لا.** إذا أردنا إثبات ما إذا كانت الرُّوح تستطيع الكلامَ أم لا، فلا بدَّ أوَّلاً من تحديد ماهيةِ الصَّوت، وكيف ينشأ. نقول في هذا السِّياق: "الصَّوتُ هو حركةُ الهواء عندَ احتكاكه بجسمٍ كثيف، أو حركةُ جسمٍ كثيفٍ عندَ احتكاكه بالهواء، والذي هو ذاتُ الشَّيء؛ وهذا الاحتكاك للكثيفِ مع الخفيف يكثِّفُ الخفيف، فيجعله أكثر ثباتاً؛ كذلك الأمرُ عند التقاء مادَّة خفيفةٍ سريعةِ الحركة مع مادَّةٍ مشابهةٍ بطيئةِ الحركة فإنَّهما تكثِّفان بعضَهما البعض، ويصدرُ عن ذلك صوتٌ أَو صخبٌ هائل. وهذا الصَّوت، وبالأحرى الصَّخب، النَّاجم عن حركةِ مادَّةٍ خفيفةٍ خلالَ مادَّة أخرى وفقَ وتيرةٍ معتدلة، إنَّما هو أشبه ما يكون بالجلبة الَّتي تُحدثها شعلةٌ كبيرةٌ من اللهب في الهواء؛ وأعلى ما تكون تلك الجلبةُ الحاصلةُ من

التقاءِ مادَّتين خفيفتين هو عندما تتحرَّك إحداهما بسرعة مخترقةً الأخرى غير القادرة على الحركة، ومثالٌ على ذلك اللهبُ الصَّادرُ عن المدفع إذ يصطدمُ بالهواء، وكذلك اللهبُ الصَّادرُ عن الغيوم إذ يضربُ الهواءَ ويولِّدُ الصَّواعق".

يمكننا القولُ بالتَّالي، إنَّ الرُّوحِ لا تستطيع إصدارَ صوتٍ دون حركةِ الهواء، وهي لا تحوي هواءً بداخلِها، ولا تستطيع إخراج الهواء من ذاتِها ما دامت لا تملكُه؛ فإذا أرادت تحريك الشَّيء الذي انسكبتْ فيه، فإنَّه لا بدَّ لها من مضاعفةِ ذاتِها، ومن المحال أن تتضاعف طالما أنَّها غير قابلةٍ للقياس[1]؛ ولَقد قلنا في الجزء الرَّابع: "لا تستطيع أيُّ مادَّةٍ خفيفةِ الحركة ما لم يتوفَّر لها وسطٌ مستقرٌّ للقيام بذلك"، وهذا صحيحٌ لا سيَّما في حالة عنصرٍ يتحرَّك في نفسِ العنصر، فهو لا يتحرَّك من تلقاء نفسِه إلا عن طريق التَّبخُّر المنتظم من مركز الشَّيء المتبخِّر، تماماً كما يحدث عند عصرِ إسفنجةٍ باليد تحتَ الماء، حيث يتدفَّق الماء في كلِّ اتِّجاهٍ وبحركةٍ متساوية من خلال الفتحات بين أصابع اليد العاصرة.

8. النَّظر فيما إذا كان للرُّوح صوتٌ واضحُ النُّطق، وفيما إذا كان ممكناً سماعُ الرُّوح، وما هو السَّمع، وما هي الرؤية، وكيف تنتقلُ موجةُ الصَّوت عبر الهواء، وكيف تمرُّ صورُ الأشياء إلى العين[2].

9. أيَا علماءَ الرِّياضيَّات، ألقوا ضوءاً على هذا الخطأ!

---

(1) أي ليس لها حجم أو وزن أو عدد.. إلخ.

(2) يردُ هذا المقطع من غير شروح، ويبدو أنَّ دافنشي قد دوَّنَ هذه التساؤلات ثم لم يُتَح له، لسببٍ ما، الإجابة عنها، مع أننا نعتقد بأنه قد أجاب عنها في مواضعَ أخرى.

الرُّوح لا تمتلك صوتاً، لأنَّه حيث يكون صوتٌ يكون جسدٌ، وحيث يكون جسدٌ يكون شُغلٌ للحيِّز، ما يمنع العينَ من رؤيةِ الأشياء الواقعة وراءَ ذلك الحيِّز؛ وبالتَّالي فإنَّ هذا الجسد يملأ في حدٍّ ذاتِه الهواءَ المحيط برمَّتِه، وذلك من خلالِ صورِه.

10. كلُّ ما تدركه القوى العقليَّة دون أن تدركه الحواسُّ باطلٌ ولا يعوَّل عليه في الإتيان بحقيقةٍ ما لم تكن مُهلِكة؛ ولأنَّها تتولَّدُ عن عقلٍ سقيمٍ، سقيمةً تكون أيضاً تلك المدركات، وإن قُيِّضَ لها أن تولدَ سليمةً فإنَّها تموت سقيمةً في شيخوختها، ذلك أنَّ الطَّبيعة تنتقم كما يبدو ممَّن يريد اجتراحَ المعجزات، - فهؤلاء ينالون أقلَّ ممَّا يناله رجالٌ آخرون أكثر مسالَمَةً منهم، أو ممَّا ينالُه أولئك الذين يصبون إلى صنع ثروةٍ في يومٍ واحد؛ سوف يحيون زمناً طويلاً في فقرٍ مدقع، مثلما يحدث دائماً، ومثلما إلى أبد الآبدين سوف يحدث، للخيميائيين المنقِّبين عن [أسرارِ] خلقِ الذَّهبِ والفضَّة، وللمهندسين الذين يريدون جعلَ الماء الآسنِ يحرِّكُ نفسَه نحوَ الحياة والحركة الدَّائمة، ولأولئك الفائقي الحماقة، مستحضري الأرواح والسَّحَرة.

11. إنَّ شرَّاحَ الطَّبيعةِ المختلقين يجزمون بأنَّ الزِّئبق هو البذرةُ المشتركة بين جميع المعادن، متناسين أنَّ الطَّبيعةَ تُنوِّعُ البذورَ وفقاً لتنوُّع الأشياء التي ترغب في منحِها للعالَم.

***

حِجاجٌ "مع" و"ضدّ" قوانين الطّبيعة

ضد. لماذا لا تقضي الطَّبيعةُ ألَّا يحيا مخلوقٌ من موتِ آخَر؟

مع. إنَّ الطَّبيعةَ، كونَها مُبهَمةً وتبتهجُ بخلقِ وصُنعِ حيواتٍ وصورٍ جديدةٍ دون توقُّف، لعلمِها أنَّها بذلك إنَّما تُثري المحسوساتِ الأرضيَّة، فهي أكثر استعداداً وسرعةً في عملها الخلَّاق من الزَّمنِ في عمله الهدَّام؛ ولذلك فقد قضتْ أن يكون كثيرٌ من المخلوقات قوتاً بعضُها لبعضٍ. ولئنْ كان هذا لا يُشبِع رغبتَها، فإنَّها كثيراً ما تُطْلِعُ ضروباً بعينِها من الأبخرةِ السَّامَّة والمهلِكة، والأوبئةِ المتواصلة، على جُموعٍ وأفواجِ الكائنات، ولا سيَّما على البشر الذين يتزايدون بحدَّة لعدمِ اقتياتِ مخلوقاتٍ أخرى عليهم؛ وإذ تنقطع الأسباب، تنقطع النَّتائج.

ضد. هذه الأرضُ إذنْ تنشدُ فناءَها عندما تخضعُ للرَّغبةِ في التَّكاثر، وبحسبِ حجَّتكَ المعروضةِ والمُسنَدَةِ ههنا، فمثلما هي النَّتائج من جنسِ الأسباب فإنَّ المخلوقاتِ ليستْ سوى صُوَرِ العالَم.

مع. إنَّكَ لَتَرى الآن كيف أنَّ الأملَ والرَّغبةَ في العودةِ إلى الأصول، وإلى فضاءِ الشَّواش الأوَّل، هو كمثلِ شوقِ فراشةِ الليل إلى اللهب، وكيفَ أنَّ الإنسان يرتقبُ دوماً، بشوقٍ مستمرٍّ، قدومَ ربيعٍ جديد، وصيفٍ جديد، وشهرٍ جديدٍ وعامٍ جديد، يحسَبُ أنَّ كلَّ رغائبه المرتقبة تتأخَّرُ ردحاً طويلاً في الوصول، غيرَ مدركٍ أنَّه إنَّما يرتقبُ فناءَه. غيرَ أنَّ هذه الرَّغبة إنَّما هي جوهرُ كينونةِ كلِّ شيءٍ،

وروحُ جميعِ المحسوسات، هـذه الـتي لإدراكها أنَّهـا أسـيرةُ الـنَّفْس تشتاق دوماً للعودةِ من الجسد البشريِّ إلى واهبها. ولـتعلمْ أنَّ هـذه الرَّغبة نفسَها لا تنفصلُ عن جوهرِ الطَّبيعة، وأنَّ الإنسانَ هو صورةُ العالَم.

* * *

مُسَوَّدةُ إيضاحات

1. أقولُ إنَّ قوَّةَ البصر تمتدُّ عبرَ الأشعَّة البصريَّة حتَّى سطوحِ الأجسام اللاشفَّافة، وإنَّ القوَّةَ التي تمتلكها هذه الأجسام تمتدُّ حتَّى حاسَّةِ البصر، وكلُّ جسمٍ نظيرٍ يملأ الحيِّزَ المحيطَ به بصورتِه. كل جسمٍ منفصلٍ، وكلُّ الأجسام معاً تفعل الشَّيء نفسَه، وهي لا تملأ الحيِّزَ بنظائر الصُّورةِ فحسب، بل وبنظائرِ القوَّةِ أيضاً.

مثال. أنتَ ترى كيف أنَّ الشَّمس، حين تبلغُ مركز نصفِ الكرة، يكون ثمَّةَ صورٌ لها في كلِّ مكانٍ تَبينُ فيه، وترى كيف أنَّه في جميعِ تلك الأماكن يكون ثمَّة صورٌ لإشعاعِها، وعلى غرار ذلك يكون ثمة أيضاً صورٌ لقوَّةِ حرارتِها؛ وجميع تلك القوى إنَّما تنطلق من نفسِ المصدَر عبرَ خطوط مشعَّة تولَدُ من ذلك الجسم وتنتهي في الأجسام المُعتِمة دون أن ينقصَ منه شيء.

نجمُ الشَّمال لا يفارق أبداً نظائرَ قوَّتِه المنبثَّة، التي ولئن اتَّحدتْ بالأجسام اللطيفةِ والكثيفة، الشَّفَّافة والمُعتِمة، فإنَّه لا يَخسر من هيئتِه شيئاً.

دَحضٌ. ثمَّ ينبري أولئك الرِّياضيُّون ليقولوا إنَّه ليس للعين قوَّةٌ روحيَّة تصدرُ عنها لمسافةٍ، لأنَّه، إذا كان الأمرُ كذلك، فإنَّه لا يمكن أن يحدثَ من دون نقصانٍ كبيرٍ في استخدام مَزِيَّة البصر، فلو كانت العين بحجم جِرم الأرض فإنَّها لا مناصَّ متبدِّدةٌ من رؤيةِ النُّجوم؛ ولهذا يرون أنَّ العين تستقبلُ ولا ترسلُ أيَّ شيءٍ من نفسِها.

مثال. ما قولُ أولئك في المسك الذي يُبقي دوماً مقداراً كبيراً من الجوِّ مشحوناً بعبقِه، والذي، وإنْ حُمِلَ آلافَ الأميال، ظلَّ يتغلغل في طيَّاتِ ذلك الجوِّ الكثيفة دون أن ينقصَ منه شيء؟

أم أنَّهم قائلون إنَّ دَويَّ النَّاقوس، إذ تمسُّه المقرَعَة، ليملأ أرجاءَ البلد كلَّ يومٍ بصوتِه، يُفضي حتماً إلى تآكل ذلك النَّاقوس؟

حقّاً، ثمَّة رجالٌ من قبيل أولاء، وكفى بما قلناه تفنيداً.

مثال. أفلا ينظرون إلى الأفعى المسمَّاة لَمْيا[1]، التي يراها القرويُّون كلَّ نهارٍ، كيف تجذبُ إليها بنظرةٍ ثاقبةٍ، كما يجذبُ المِغنطيسُ الحديدَ، طائرَ العندليبِ الذي لا يلبث أن يهرعَ، مع تغريدةٍ حزينةٍ، نحوَ موتِه؟

كذلك، يُقالُ إنَّ الذِّئب يملك في نظرتِه القدرةَ على جعل أصوات الرِّجال تبحُّ.

والباسيليسكُ، يقالُ إنَّ له القدرةَ على قبضِ الرُّوح من كلِّ شيءٍ حيٍّ، بنظرةٍ خاطفة.

ويُقالُ إنَّ النَّعامةَ والعنكبوت قادران على فقْسِ بيوضِهما بمجرَّدِ النَّظر إليها.

ويُقالُ، أيضاً، إنَّ في عيون الفتيات القدرةَ على استمالة قلوبِ الرِّجال إليهنَّ.

والسَّمَكُ المعروف بِـ "لِينُّو"، ويسمِّيه البعض سمكَ القدِّيس هرمز، والذي يتواجد عندَ سواحل سردينيا، أفلا ينظرُ الصَّيَّادون إليه كيف يضيءُ طبقاتِ الماء بالضَّوء المُسلَط من عينيه كأنَّهما شمعتان، فإذا بكلِّ سمكةٍ [أخرى] داخلَ مجالِ ذلكَ السُّطوعِ تطفو على سطح الماءِ مقلوبةً وميِّتة؟

---

(1) Lamia، وتعني بالإيطالية السَّاحرة أو المرأة الشِّرِّيرة، كما كانت تُطلق هذه التسمية في العصور القديمة والوسطى على وحشٍ أسطوريٍّ، بوجهِ امرأة وجسدِ أفعى، يمتصُّ دماء الأطفال حسب زعمِ الأسطورة.

2. **كيفَ أنَّ الخطوط المشعَّة تحملُ في ذاتِها مَزيَّةَ البصر إلى متلقِّياتِها.** إنَّ هذه القدرةَ أو الحاسَّةَ التي لدينا جميعاً، والتي يؤكِّدُ الفلاسفةُ على أنَّها تكمنُ في مركزِ الرَّأس، تنشرُ أوصالَها الرُّوحيَّة إلى مسافاتٍ بعيدةٍ عنها، وتلك الأوصال إنْ هي إلا خطوط الأشعَّة البصريَّة التي ما إن تبلغ المتلقِّيات حتَّى تمنح المرسِلات الخصائصَ الشَّكليَّةَ للجسمِ الكاسِرِ[1].

وهكذا بالنِّسبة إلى حاسَّةِ اللمس، وهي حاسَّةٌ مُشاعةٌ أيضاً، ألا ينظرون إليها كيف تمتدُّ بقوَّتِها حتَّى رؤوس الأصابع، فما إن يمسس إصبعٌ جسماً ما حتَّى يَميز الإحساسُ الأمرَ، أحارٌّ هو أم بارد، قاسٍ أم رخوٌ، حادٌّ أم مستوٍ؟

كيفَ أنَّ الأجسامَ تُرسِلُ من ذاتِها إلى الخارج شكلَها ولونَها وطاقتَها. إذا اتَّخذتِ الشَّمس، بسبب الكسوف، شكلَ القمر، خذْ صفيحةً رقيقةً من الحديد واجعل فيها ثقباً صغيراً وأدِرْها جهةَ الشَّمس، رافعاً خلفَها ورقةً على بعدِ نصف ذِراع، تَرَ في تلك الورقة صورةَ الشَّمس في هيئتها القمريَّة، ولَها شكلُ الجسمِ الباعثِ ولونه.

مثالٌ ثانٍ. الشَّيءَ نفسَه تفعلُه تلك الصَّفيحةُ ليلاً مع جِرم القمر وأجرام النُّجوم؛ لكن يجب ألا يكون بين الصَّفيحة والورقة، من أيِّ جهةٍ كانت، أيُّ منفذِ نورٍ خلا ذلك الثقب الصَّغير، ويتمُّ الأمرُ بتشكيلٍ ما يشبه صندوقٍ مربَّع، حيث يكون وجهاه العلوي والسُّفلي، والوجهان الجانبيَّان، من خشبٍ متين، فيما تحتلُّ الصَّفيحةُ الوجهَ الأماميَّ، ويكون الوجه الخلفيُّ عبارةً عن الورقة البيضاء الرَّقيقة، ويُستحسَنُ إلصاق عجينةٍ على حوافِّ اللوحين الخشبيَّين.

---

(1) أي الجسم الذي يكسر تلك الأشعة ويعكس اتجاهها.

مثالٌ ثالث. كذلك، خذ شمعةً من الشَّحم تـصنعُ نـوراً طـويلاً، واجعلها أمام ذلك الثقب، تَـرَ علـى وجـه الورقـة النُّـورَ نفـسَه بهيئتِـه المتطاولة والشَّبيهة بهيئة الجسم الباعـث، ولكنَّهـا مقلوبـةً رأسـاً علـى عقب.

خصائص الشَّمس. للشَّمس جسمٌ ماديٌّ، شكلٌ، حركةٌ، نـورٌ، حرارةٌ، وقوَّةٌ مولِّدة، وكلُّ ذلك إنَّما يصدرُ عنها دون انتقاصٍ منها.

* * *

التّحليقة الأوّلى

لَسَوفَ يتّخذ الطّائر الكبيرُ تحليقته الأولى على متنِ بجعتِه العظيمة، مالئاً الكونَ دهشةً، وشاغلاً الكتبَ جميعاً بشهرتِه، وليرجعنَّ بالمجد الأبديِّ إلى العشِّ الذي وُلِد فيه[1].

* * *

(1) يرى الشُّرَّاح أنَّ هذا النَّصَّ ليس إلا تكهُّنات دافنشي حول آلة الطيران.

الطُّوفان

1. وصفٌ للطُّوفان.

أ) باديءَ ذي بدء، قمْ برسمِ قمَّةِ جبلٍ حادِّ النُّتوء مع بعض الوديان المحيطةِ بسفحِه، واجعلْ سطحَ التُّربةِ على حوافِّ القمَّةِ يبدو مُعرًّى بتشطيبِه بالجذور الرَّفيعةِ لشُجيرات صغيرة، ولا بدَّ من تركِ الصُّخورِ، معظمِها، مكشوفةً حواليَها؛ ثمَّ اجتَحِ المنحدراتِ بالخراب الجارف، جاعلاً الخطوطَ تنحدرُ بِطَيشٍ، ضارباً ومعرِّياً الجذورَ المعوجَّةَ والملتوية للأشجارِ الكبيرة، ولتقلبْ تلك الأشجار عاليَها سافلَها. ولكي تبدو الجبالُ معرَّاةً ينبغي إظهارُ التَّصدُّعات العميقة التي شكَّلتها الزَّلازل القديمة؛ واحرصْ أن تكون قواعد الجبال مغطَّاةً ومدفونةً بطبقةٍ من حُطامِ الشُّجيرات التي سقطتْ بِطَيشٍ من حوافِّ الذُّروة العليا للجبل المُشار إليه، وليكنْ ذلك خليطاً من الطِّين والجذور والأغصان، مع تنويعاتٍ من الأوراق المنثورةِ بين الطِّين والتُّراب والحجارة.

واترك كِسَراً من بعض الجبال تهبطُ في عمقِ واد؛ وشكِّلْ هناكَ حاجزاً تنتفخ وراءَه مياهُ النَّهر مفجِّرةً الحاجزَ باندفاعاتِ أمواجها الهائلة، وحيث تضربُ كُبرياتُها أسوارَ المدنِ وقرى الوادي مسوِّيةً إيَّاها بالأرض. ومن أنقاضِ الصُّروح العالية للمدن المذكورة فاجعلْ سُحُباً كبيرةً من الغبار تتصاعدُ في الهواء في هيئةِ دخانٍ أو حلقاتِ غيومٍ تصارعُ المطرَ الهاطلَ.

لكن ينبغي إظهارُ الماءِ المنتفخِ وهو يدوِّمُ حولَ مَجمَعِ الأمواه

الذي هو فيه، ضارباً كلَّ ما يعترضه بدوَّاماته المتفجِّرة، ومندفعاً إلى السَّماء في رغوةٍ موحلة، ليعودَ من بعدُ فينهمرَ جاعلاً الماءَ ينقذفُ في الهواء ما إن يمسُّه. وأمَّا الموجاتُ المدوِّمة التي ترتدُّ من نقاط التَّماسِّ، فتندفعُ بقوَّتها الذَّاتيَّة عبرَ مساراتِ موجاتٍ مدوِّمةٍ أخَر تتحرَّك في اتِّجاهٍ معاكسٍ لها، وإذ تلتطمُ ببعضها، تقفزُ في الهواء دون أن تنفصلَ عن قواعدِها.

وحيثُما كان الماء خارجاً من المَجمَعِ المذكور، رؤيَ الموج المتكسِّرُ يمدُّ ألسنته نحوَ الخارج؛ وهو إذ يسقطُ أو ينهمرُ في الهواء فإنَّه يكتسب وزناً وزخماً؛ ثمَّ لا يلبث حين يخترق الماءَ في مواضعِ سقوطه أن يمزِّقه ويتخلَّله عميقاً، ليرتدَّ من ثمَّ صاعداً نحو سطحِ المَجمَعِ مصحوباً بالهواء الذي تغلغلَ فيه، حيث يمكثُ هناك في الزَّبَد الدَّبِق مختلطاً بالأخشاب الطَّافية وغيرها من الأشياء الأخفِّ وزناً من الماء، والتي حولَها تتشكَّلُ من جديدٍ بادئاتُ الأمواج، وهذه يتوسَّعُ محيطُها بقدرِ ما تكتسبُ حركةً؛ والحركةُ بدورِها تجعل تلك الأمواج أخفض بالتَّوازي مع اكتسابها قاعدةً أوسع، ولذلك فإنَّ الأمواجَ تغدو غيرَ مرئيَّةٍ تقريباً إذ يتبدَّدُ زخمُها. أمَّا إذا ارتدَّ الموجُ إثر اصطدامه بعائقٍ ما فإنَّه يقفز إلى الوراء معاكساً مسارَ الموجاتِ الأخَر، مراعياً في انعطافه قانونَ النُّموِّ نفسَه الذي كان اتَّبعه في حركته الأصليَّة. فيما يكون للمطر الهاطلِ من الغيوم لونُ الغيومِ نفسُه، وذلك في جهته المظلَّلة، أمَّا إذا تخلَّلته أشعَّةُ الشَّمس فينبغي أن يبدوَ أقلَّ دُكنةً من الغيوم. وإذا ما ضربتْ جلاميدُ الحطامِ الهابطةُ من الجبالِ الضِّخامِ أو الصُّروح الكبيرةِ مَجمَعَ الماء العظيم، فإنَّ قدْراً كبيراً من الماء سوف يندفع في الهواء، ويكون مسارُ حركته معاكساً لمسارِ حركةِ الأجسامِ المقذوفة في المَجمَع، ما يعني أنَّ زاويةَ الانعكاس تكونُ مساويةً لزاوية السُّقوط.

وأمَّا عن الأشياء المحمولة بسيلِ المياه فإنَّها ستكون بعيدةً عن كلتا الضِّفَّتين، ذلك أنَّها أثقل وزناً أو أكثر عدداً. بينما تكون دُوَّامات المياه أشدَّ سرعةً في أجزائها الأقرب إلى المركز. تيجانُ أمواجِ اليمِّ تلتفُّ نحوَ قواعدِها، صافعةً ومُحكِّكَةً نفسَها عندَ الدَّقائقِ الملساء التي تشكِّلُ وجوهَها، وبسبب ذلك الاحتكاك ينفرطُ الماء المتحدِّرُ إلى دقائق صغيرة، ويتحوَّل إلى ضبابٍ كثيفٍ ليختلط بتيَّارات الرِّياح في شكلِ دخانٍ ملتفٍّ أو غيوم منتفضة، وفي النِّهاية يصعد في الهواء ويتحوَّل إلى غيوم.

غيرَ أنَّ المطر الهاطلَ عبرَ طبقاتِ الهواء يغدو، إذ تضربه وتسوقه تيَّارات الرِّياح، إمَّا خفيفاً وإمَّا كثيفاً وفقاً لخفَّة أو كثافة تلك الرِّياح، ولذلك يتولَّد عبر الهواء فَيضٌ من السُّحب الشَّفَّافة المكوَّنة من ذلك المطر، ويكون مرئيَّاً من خلال الخطوط التي يرسمها هطول المطر القريب من عين المشاهِد.

أمواجُ اليمِّ التي تضرب انحناءات الجبال المتاخمة لها، تتسارع مُزبِدةً صعوداً نحو حوافِّ الهضاب نفسها، وبارتدادها إلى الوراء فإنَّها تواجه اندفاعةَ الموجةِ التَّالية، وبعد الصَّخب العظيم النَّاجم عن ذلك تعود في فيضٍ هائلٍ إلى اليمِّ الذي جاءت منه أوَّل مرَّةٍ. أعدادٌ كبيرةٌ من القاطنين، من بشرٍ وأنعامٍ مختلفة، يُرَونَ والطُّوفان يجرفهم عالياً نحو قمم الهضاب التي حاقتْ بها الأمواه.

ب) أمواجُ بحر بيومبينو، كلُّها أمواهٌ مُزبِدة[1].

(1) هذه العبارة والعبارة التي تليها كتبهما ليوناردو دافنشي في الناحية السُّفلى من إحدى رسوماته التَّخطيطية (PI. XXXV, 3. The MS. Leic.)، وبيومبينو بلدةٌ في مقاطعة توسكانا الإيطالية ذات تاريخ عريق.

ج) عن الماء الذي يقفزُ عالياً؛ عن رياح بيومبينو.

دُوَّاماتٌ من الرِّياح والأمطار مع غصونٍ وشجيراتٍ تتخالطُ في الجوِّ.

تفريغُ القواربِ من مياه الأمطار.

2. عن الطُّوفان وكيفيَّة تصويره في لوحة.

أ) أظهرِ الجوَّ القاتمَ والضَّبابيَّ إذ تتلاطمُه اندفاعات الرِّياح الملتفَّة والممزوجة بزخمِ الأمطار المتواصلة، وهي تحمل، هنا وهناك، تفريعاتٍ لا تُحصَى من الأشجارِ الممزَّقة، مختلطةً بعددٍ لا يُحصى من الأوراَق. وليكنْ مرئيَّاً في كلِّ ناحيةِ أشجارٌ معمَّرة وقد اقتلعتْ وعُرِّيتْ بضراوة الرِّيح، ولْتَرِ كيف أنَّ حُطامَ الجبال الذي جلَتْه السُّيول يتكسَّرُ الآنَ على تلك السُّيول نفسِها ويوصِدُ عليها الوديان، إلى أن ترتفعَ السُّيولُ المخنوقة وتغمرَ السُّهول الواسعة بقاطنيها. كذلك، ينبغي أن تُري صنوفاً من الحيوانات تحتشدُ على قمم جبالٍ عديدة ملتفَّةً حول بعضِها، مُرتاعةً وخاضعةً أقصى ما يكون الخضوع، ومعها رجالٌ ونساءٌ هاربون صُحبةَ أطفالِهم. الأمواه التي غمرت الحقول، كُسيتْ أمواجُها في مواضع كثيرة بالموائدِ والمراقدِ والقواربِ، وبغير ذلك من الحِيَلِ التي ارتجلتها الحاجةُ والخوفُ من الموت، وقد اعتلاها الرِّجال والنِّساء مع أطفالِهم، ملتفِّين حول بعضِهم في شتَّى صورِ العويل والبكاء، مرتاعين من وحشيَّةِ الرِّياح التي تطوي بجبروتها الأمواج صعوداً ونزولاً مع جثامين الغرقى. وما من شيءٍ أخفَّ وزناً من الماء إلا وتكون عليه صنوفٌ من الحيوانات المذعورة التي احتشدتْ في هدنةٍ مع بعضِها، من بينها ذئابٌ وثعالب وثعابين، ومن كلِّ نوعٍ، هاربين من الموت. وكلُّ الأمواج التي تضرب أجنابَهم إذا بها تضربهم مرَّةً إثر مرَّة بجثامين الغرقى، ضرباتٍ تقتل مَن بقي في نفسِه رمق.

ولعلَّك راءٍ جموعاً من الرِّجال يرفعون أسلحةً ينافحون بها عمَّا بقي لهم من مواطئ قدمٍ ضدَّ الأسود والذئاب وسائر الضَّواري التي تنشدُ النَّجاة هناك. آهِ ما أكثر صرخات الذُّعر المتردِّد صداها عبر الرياح المظلمة، مسحوقةً بضراوةِ الرَّعدِ والبروقِ المرسَلَة منه، هذه التي تندلع في الغيوم حاملةً الدَّمار وصاعقةً كلَّ ما يعترضُ طريقَها! آهِ ما أكثر أولئك الذين ستراهم يسدُّون آذانهم بأيديهم اتِّقاءَ الصَّخبِ الهائل المتولِّد في الفضاء الحالكِ مِن هياجِ الرِّياح المقرونةِ بالأمطار، بالرُّعود السَّماويَّة، وباحتدام البروق! وآخرون لم يكفهم إغماضُ أعينهم فإذا بهم يضعون أيديهم عليها، يداً فوقَ يدٍ، إمعاناً في إيصادها لئلَّا يروا المذبحةَ الوحشيَّةَ المحيقةَ بالجنس البشريِّ من غضبِ الله.

آهِ كم من المراثي آنذاك! آهِ كم مِن المذعورين رموا بأنفسهم من على الصُّخور! ولعلَّك راءٍ فروعَ البلُّوطِ العظيمِ المحمَّلةَ بالبشر محمولةً عبر الهواء بقوَّةِ العواصف الهوجاء.

كم من المراكب جُعِلَ عاليُها سافلَها، بعضُها ظلَّ بكمالِه، وبعضُها هُشِّمَ على هامات النَّاس المستميتين لأجل الخلاص، بحركاتٍ وإيماءاتٍ مُفجعة تنبِّئ عن موتٍ مُريع. وترى آخرين بملامح قانطة يُنهون حياتَهم، فاقدي الرَّجاء من قدرتهم على احتمال مثل ذلك العذاب؛ فها بعضهم يرمي بنفسه من على صخورٍ شاهقة، وها بعضهم يخنق نفسَه بيديه، وبعضهم يقبض على أبنائه ويطوِّحه بعنفٍ أرضاً، وأحدهم يقتل نفسَه بما ملكَ من سلاح، والبعض خارٌّ على ركبتيه مسلمٌ نفسَه إلى الله. آهِ كم من الأمَّهات بكَين أبناءَهنَّ الغرقى، يحملْنَهم على الرُّكَب، رافعاتٍ أذرعهنَّ صوبَ السَّماء، وبأصواتٍ مؤلَّفةٍ من صيحاتٍ شتَّى يجدِّفنَ على غضب الآلهة؛ وأمٌّ بيدين مضمومتين تقضم وتنهشُ بدمويَّةٍ أصابعَها المشدودة، مائلةً بصدرِها على ركبتيها من الألم الفائق والمبرح.

ولْتُرِيَنَّ قطعاناً من البهائم، أحصنةً، ثيراناً، معيزاً، وخنازير، وقد حاقت بها الأمواه من كلٍّ جانبٍ فمكثتْ معزولةً في أعالي الجبال، يلتفُّ بعضُها حولَ بعضٍ، فالتي في الوسط تعتلي الأخريات وتمشي عليهنَّ، مثيرةً بينهنَّ شجاراً وحشيَّاً؛ ومنهنَّ أنفسٌ كثيرةٌ تموت جوعاً.

والطَّيرَ يهبطنَ على البشر وسائر الدَّوابِّ، إذ لا يجدنَ أرضاً مكشوفةً إلا استولى عليها الأحياء. ولمَّا كان الجوع، وزيرُ الموتِ هذا، قد سلب حياةَ القسم الأعظم من الدَّوابِّ، فإنَّ الجثث تصعد الآنَ منتفخةً من أعماق الماء إلى الأعلى؛ و[تراها] وسطَ الأمواج المتلاطمة، يخبِطُ بعضُها بعضاً بقوَّة، وكمثل كراتٍ ملآنةٍ بالهواء ترتدُّ إلى الخلف عندَ نقاطِ التَّصادم. فوق هؤلاء الموتى وجدت الطَّيرُ مجاثم لهنَّ. وفوقَ هذه اللعنات الإلهيَّة يُرى الهواء ملفوفاً بِظُلَلٍ من الغيم الأسود، مُشقَّقةٍ بالوميض المتشعِّبِ لصواعق السَّماء الغاضبة، إذ تبرق هنا وهناك بين طيَّات الظُّلمات.

ب) **التَّقسيم.** ظُلُمات، رياح، عاصفةُ بحرٍ، طوفان الأمواه، غاباتٌ مُشتعلة، مطرٌ، صواعق سماويَّة، زلازل وحُطاماتٌ جبليَّة، مدنٌ مقوَّضة.

دوَّامات الرِّياح التي ترفعُ الماء، أغصانَ الأشجار، والبشرَ، في الهواء.

أغصانٌ ممزَّقةٌ من [قوَّةِ] الرِّياح، متشابكةٌ مع تيَّاراتِ الرِّياح، وفي أعلاها بشرٌ.

أشجارٌ محطَّمةٌ محمَّلةٌ بالبشر.

فُلكٌ محطَّمةٌ قِطعاً، تُضرَبُ على الصُّخور.

بَرَدٌ غزيرٌ، صواعق، وزوابع.

قطعانٌ من الماشية.

أناسٌ يعتلون أشجاراً لا تستطيع حملَهم.

أشجارٌ وصخور، بروجٌ وهضابٌ تغصُّ بالبشر، قواربُ، موائدُ، أحواضُ سِقايةٍ ووسائل عَومٍ أخرى.

هضابٌ مغطَّاةٌ برجالٍ ونساء ودواب، وصواعق من الغيمِ تضيء الأشياء.

3. **رَسم الطُّوفان.** وكان الهواء مدلهمَّاً بالوابل الغزير الذي كان، وهو يهطل بزاويةٍ مائلة حَرَفَتْها اندفاعة الرِّيح، يصنع أمواجاً تنساقُ عبرَ الهواء ولا تبدو للعين إلا كما يبدو الهباء، وتنجلي فقط إذ تتخلَّلُها الخطوط المستقيمة لِما ثقلتْ قطراتُه من الأمواه الهاطلة. لكنَّ لونَها مَشوباً كان بلونِ النَّار الَتي أوقدتها الصَّواعق الفالقةُ والممزِّقةُ للغيوم، هذه التي ضربَ لهيبُها كاشفاً مَجمَعَ الأمواه في الوديان المغمورة، فبانتْ في بطونِها رؤوس الأشجار الملويَّة[1].

ولْتجعلْ **نبتون**[2] مرئيَّاً وسطَ الأمواه مع الرُّمحِ الثُّلاثيِّ الشُّعب، ولتجعلْ **أوليس**[3] مرئيَّاً مع رياحه إذ تلفُّ الأشجار المُجتثَّة، مؤازَرةً بالأمواج الهائلة.

---

(1) يستخدم دافنشي الأفعال هنا بصيغة الماضي مع أنه يعرض تصوُّراً للوحةٍ يريد إنجازَها في المستقبل، وتفسيرنا لذلك هو تأثره بأسلوب الرواية الإنجيليَّة لطوفان نوح.

(2) إله البحر عند الرومان.

(3) إله الرياح عند الإغريق.

والأفقُ، والفضاء بأكمله، كان مُعكَّراً وملتهباً مِن وميض صواعق لا تنقطع. ولعلَّك راءِ البشرَ والطَّير محتشدين على الشَّجر الباسق الذي عرَّته الأمواه المتعاظمة، مُبدِعةُ الجبال المحيطةِ بالهاوياتِ العظيمة.

4. لعلَّكَ راءِ [أيضاً]، وسط دوَّامات الرِّياح، أعداداً مهولةً من أسراب الطَّير تُقبِلُ من أصقاع بعيدة، وتلوحُ للعين بطريقةٍ من الصَّعب معها تمييزها، ذلك أنَّها في التفافاتها معاً يمكن أحياناً لطيور السَّرب الواحد أن تُرى كحافَّةٍ جانبيَّة، بما يُظهِرُ أقلَّ قدرٍ ممكنٍ من أجسادِها، ويمكن لها أحياناً أخرى أن تُرى بكاملِ امتدادِها، إذ تكون في المواجهة؛ أمَّا عند أوَّلِ ظهورٍ لها فإنَّها تأخذ شكل سحابةٍ يصعب تمييزها، فيما تصبح الفِرَق الثانية فالثالثة أشدَّ وضوحاً كلَّما اقتربت أكثر من عين الرَّائي.

وهذه الأسراب المذكورة أعلاه يأخذ أقربُها بالانخفاض بحركةٍ مائلة، ويحطُّ على جثث الغرقى المحمولة على موج ذلك الطُّوفان العظيم، ليتغذَّى عليها، حيث يستمرُّ على هذا المنوال إلى أن تفقدَ تلك الجثث المنتفخة قابليتها للطَّفو، وتبدأ بالهبوط ببطءٍ إلى أعماق المياه.

5. ولعلَّك راءِ أناساً يحمِّلون مؤنَهم، بفارغ الصَّبر، على مراكب مختلفةِ الأشكال صُنِعتْ على عجلٍ.

بريقُ الأمواجِ هناك غيرُ مرئيٍّ، حيث تنعكسُ ظلمةُ المطرِ الحالكِ وغيومِه.

لكن حيثما انعكستْ ومضاتُ البروق السَّماويَّة، شوهِدَتْ بقعٌ مضيئةٌ من أخيلةِ تلك البروق، على أن يكون ثمَّة موجٌ يعكسُها إلى عين المشاهِد.

ويزدادُ عدد الصُّور التي يكشفُها وميض البرق على الأمواج بما يتناسب مع ازدياد البعد عن عين المشاهِد. وهذا يقتضي أنَّ عدد الصُّور يقلُّ كلَّما كانت أقرب إلى العين التي تراها، تماماً كما كنَّا أثبتنا في تعريفنا لبريق القمر وللأفق البحري عندما تنعكس أشعَّةُ الشَّمس عليه وتكون العين التي تتلقَّى الانعكاسَ بعيدةً عن البحر.

6. **موقفُ ارتياب.** تثورُ ههنا حيرةٌ في ما إذا كان الطُّوفان الذي حلَّ في زمنِ نوح كونيَّاً أم لا؛ والأرجح أنه لم يكن كذلك للأسباب التي سيتمُّ طرحُها. لدينا في الكتاب المقدَّس أنَّ الطُّوفان المذكور آنفاً قد كوَّنَه أربعون يوماً وأربعون ليلةً من المطر الكونيِّ المتواصل، وأنَّ تلك الأمطار علتْ عشر أذرعٍ فوق أعلى قمَّةٍ جبليَّةٍ في العالم[1]؛ فإذا كان صحيحاً أنَّ المطر كان كونيَّاً، فهذا يعني أنَّه شكَّل من نفسِه غطاءً غلَّف أرضنا التي هي في الأصل كرويَّة، ومعلومٌ أنَّ كلَّ نقطةٍ من السَّطح الكرويِّ لها نفسُ البعدِ عن مركزِه، وبالتَّالي سيكون من المستحيل لطبقة الماء السَّطحيَّة، وقد وجدت نفسَها في الحالةِ المذكورةِ أعلاه، أن يتحرَّك الماء فيها، ذلك أنَّ الماء لا يتحرَّك من تلقاء نفسِه إلا نزولاً. فكيف إذن لمياه طوفانٍ عظيمٍ أن تغور وقد أثبتَ هنا أنَّ لا قدرة لها على الحركة؟ وإذا كانت قد اختفت، فكيف كانت حركتها إن لم تكن نحو الأعلى؟ ههنا، إذن، تُعوزنا العلل

---

(1) يخطئ دافنشي هنا، فلقد جاء في سفر التَّكوين أنَّها كانت خمس عشرةَ ذراعاً وليس عشر أذرعٍ: "وعلت المياه خمسَ عشرةَ ذراعاً فوق الجبال فغطَّتها"، تكوين 7: 20.

الطَّبيعيَّة؛ وعليه فإنَّ إزالة هذه الحيرة تقتضي منَّا إمَّا استدعاء المعجزات لإنجادنا، وإمَّا القول بأنَّ تلك المياه تبخَّرت من حرارة الشَّمس.



كهف

أ) كمثلِ الرِّيح الدَّوَّامـةِ المندفعـةِ في وادٍ رملـيٍّ أجـوف، والـتي خلالَ تقدُّمِها المتسرِّع تـدفع إلى مركزِهـا كـلَّ مـا يعتـرضُ انـدفاعَها الوحشيَّ ...

ب) لا تفعلُ خلافَ ذلك ريحُ الشَّمال الدَّائرةُ في زوبعتِها ...

ج) ولا البحـرُ العاصـفُ إذ يجـأر بقـوَّة، عنـدما تـضربه ريـح الشَّمال، بأمواجِه المزبِدة بين **سيلًا وكاريبدِس**[1]؛ ولا **سترومبولي** ولا **إتنا**[2] عندما تشقُّ الـنِّيرانُ الكبريتيَّـة الحبيـسة الجبـلَ العظـيمَ وتفجِّـرُه قسراً، قاصفةً الجوَّ بالحجارة والتُّراب سويَّةً مع اللهب الـذي تلفظُـه؛ ولا عندما تلفظُ كهوفُ **إتنا** الملتهبة العنصرَ الجامحَ، قاذفةً به في هياجِ نطاقِها الخاصِّ، وكاسحةً من أمامِه أيَّ عائقٍ قد يعترضُ غضبه الهائج.

د) مدفوعاً برغبتي التَّوَّاقة، متلهِّفاً إلى رؤيـة الفـيض الهائـل مـن الأشكال المتنوِّعة والعجيبة التي كوَّنتها الطَّبيعةُ البارعةُ الصُّنعة، وبعـد أن طُفتُ قليلاً بين الصُّخور المتدلِّيـة، بلغـتُ مـدخلَ كهـفٍ عظـيم؛ قُبالتَه مكثتُ برهةً من الـزَّمن مـذهولاً، مُغيَّبـاً عـن حـضورِه، ظهـري محنيٌّ على شكل قوس، ويـدي اليـسرى مرخـاةٌ علـى ركـبتي، فيمـا

(1) سيلًا وكاريبدس وحشان بحريَّان أسطوريَّان ذكرهمـا هـوميروس، ثمَّ جعلـتْ الأساطير الإغريقيَّة مُقامهما على جانبي مضيق مسِّينا، بين جزيرة صقلية والبر الإيطالي الرَّئيسي، وكانت الأخطار البحريَّة تُعزى لهما، ويـذكرهما دافنـشي هنا كتورية يريد بها ذلك المكان.

(2) سترومبولي وإتنا بركانان في جزيرة صقلية.

اليمنى مرفوعةٌ لتظليل حاجبيَّ المُطرِقَين والمعقودَين، وأنا أنحني مـرَّةً إثر مـرَّة لأرى إن كـان بوسـعي تبـيُّنُ أيِّ شـيءٍ في الـدَّاخل، غـير أنَّ الظَّلام الـشَّديد حـالَ دون ذلـك. ومـا إن مكثـت هنـاك قلـيلاً، حتَّـى تملَّكني شعوران، رهبةٌ ورغبةٌ: رهبةٌ من ذلك الغـارِ المُنـذِرِ المُظلِـم، ورغبةٌ بمعرفة ما إذا كان في جوفِه شيءٌ ما باهرٌ.

***

الوحشُ البحريُّ

1. (أنتَ يا آلةَ جبَّارةَ حيَّة كوَّنَتها الطَّبيعةُ المُبدِعة، عتوُّكَ العظيم ليس يُجديك، وحريٌّ بك التَّخلِّي عن حياة الخمود، والإذعان للنَّاموس الذي فرضَه الله والوقتُ على الطَّبيعةِ الولَّادة).

ليس تُجديك الزَّعانف الظَّهريَّةُ المتشعِّبةُ والقويَّة، حين كنتَ تمزِّقُ بصدرِكَ، وأنتَ في إثرِ فريستِك، الأمواجَ الملحيَّةَ باجتياحٍ هادرٍ.

أوه، كم مرَّةً شوهِدتْ أسرابُ الدَّلافين والتُّونَةِ الكبيرةِ وهي تندحرُ مذعورةً قُدَّامَ غضبِكَ الوحشيِّ! فيما أنتَ جامحٌ بزعانفِكَ الخاطفةِ المتشعِّبة، وبذيلِكَ المتفرِّع بشكلِ مِذراة، تثيرُ في البحرِ إعصاراً مباغتاً وصخباً عظيماً، تُغرِقُ المراكبَ بالأمواج العاتيات وتكدِّسُ على الشُّطآن المفتوحة رِمَمَ الأسماك الخائفة المذهولة التي هربت من أمام وجهِك، فلمَّا انكشفَ البحرُ عنها جفَّت، وأصبحتْ غنيمةً وافرةً وفائضةً للشُّعوب المجاورة.

أيُّها الزَّمنُ، يا مبدِّدَ الأشياء، فيك تُطوى حيواتٌ جُدَدٌ وتُمحى منازلُ كثيرة.

أيُّها الزَّمنُ، أيُّها النَّهَّابُ السَّريعُ لكلِّ ما هو كائنٌ، كم من الملوكِ والأممِ سحقتَ، وكم من الأحوالِ والعهودِ أبدلتَ بعدئذْ بادَ هنا التَّكوينُ الباهرُ لذلك الكائن البحريِّ!

في هذا التَّجويفِ الغائرِ المتعرِّج ...

أمَّا الآن وقد بدَّدَكَ الزَّمنُ، ها أنَّكَ مضطجعٌ بِجَلَدٍ في هذا الأخدودِ الضيِّق. وبعظامِكَ المعرَّاةِ، المجرَّدةِ من اللحمِ، صنعتَ درعاً وركيزةً للجبلِ القائمِ فوقَك.

2. أ) أوه، كم مرَّةً شوهِدتَ وسط أمواجِ المحيطِ العظيمِ المنتفخِ، محلِّقاً كجبلٍ شاهقٍ بِظهرِكَ الأسودِ المُزعنَف، تحرثُ الموجَ الأجاجَ بانسيابٍ فخمٍ وجليل!

ب) كثيراً ما شوهِدتَ وسط أمواجِ المحيطِ العظيمِ المنتفِخ، وأنت تنسابُ بجلالٍ وفخامة بين الأمواه البحريَّة؛ وبظهرِك الأسودِ المُزعنَف كمثل جبلٍ تعلو عليها وتقهرُها!

ج) آهِ كم مرَّةً شوهِدتَ وسط أمواجِ المحيطِ العظيمِ المنتفِخ، وأنت تعلو عليها كمثلِ جبلٍ وتقهرُها، وبظهرِكَ الأسودِ المُزعنَف تحرثُ الأمواه البحريَّة، بانسيابٍ فخمٍ وجليل![1].

* * *

(1) يرى الشُّرَّاح هنا أنَّ أسلوب الخط والكتابة اليدويَّة إنَّما يشير إلى فترة مبكرة من حياة دافنشي، حيث أصبحت الكتابة شبه مطموسة، وبات من الصَّعب جدّاً فكُّ رموزِها، وهذا ما استدعى ثلاث قراءاتٍ للمقطع الأخير، في حين لا تزال بعض المقاطع الأخرى موضعَ شكٍّ.

مَزارُ ڤينوس

1. أ) **لأجلِ [إقامةِ] مزارٍ لڤينوس.** عليكَ بناءُ أدراجٍ على الجوانب الأربعة تُفضي إلى مَرجٍ شكَّلته الطَّبيعةُ على قمَّةِ صخرة، وقمْ بتجويفِ هذه الصَّخرة ودعِّمها من الأمام بالأعمدة، واحفرْ مِن أسفل رواقاً كبيراً، حيث يصبُّ الماءُ هناك في أحواضٍ مختلفةٍ من الغرانيت، والرُّخام السُّماقي وحَجَر الأفعوان[1] داخلَ تجاويف نصف دائريَّة، ليفيضَ بعد ذلك من الأحواضِ نفسها متدفِّقاً على جانبَي ذلك الرِّواق. وليكنْ إلى الشَّمال من الرِّواق بحيرةٌ تتوسَّطُها جزيرةٌ صغيرة، وعلى الجزيرةِ غابٌ كثيفٌ وظليل. ولتجعل الماءَ ينسكبُ من رؤوسِ الأعمدة إلى أحواضٍ انتظمتْ حولَ قواعدِها، ومِن هذه فلتنتشرْ جداولُ صغيرة.

ب) انطلاقاً من ساحلِ كيليكيا نحوَ الجنوب تكتشفُ جمالَ جزيرةِ قبرص، والتي ...[2].

2. مِن سواحل كيليكيا الجنوبيَّة تُرَى إلى الجنوبِ جزيرةُ قبرص السَّاحرة، تلك التي كانت مملكةً للإلهة ڤينوس، وكثيرون ممَّن فُتنوا بجمالِها حُطِّمتْ سفنُهم وصواريهم على الصُّخور وسطَ الأمواج المضطربة. هنا، جمالُ التِّلال المُبهِجة يُغوي البحَّارةَ المترحِّلين بإنعاشِ قُواهم وسطَ خضرتِها المنمَّقة، حيث تتخفَّفُ الرِّياح غامرةً الجزيرةَ والبحرَ مِن حولِها بالرَّوائح الطَّيِّبة. آهِ كم مِن سفينةٍ غرقت

---

(1) صخر مكوَّن من السليكات والمغنزيوم، أخضر اللون مرقَّط كجلد الأفعوان.

(2) انخرامٌ في النَّص الأصلي.

ههنا! آهِ كم مِن سفينةٍ تهشَّمتْ على الصُّخور! لعلَّكَ راءٍ هنا مراكبَ لا حصرَ لها: فهذه محطَّمةٌ ونصف مدفونةٍ في الرِّمال، وتلك ظاهرٌ مؤخَّرُها وأخرى جؤجؤها، وغاطسٌ هنا وعارضةٌ هناك. لكأنَّه يوم قيامةٍ يتعيَّن فيه على السُّفن الميِّتة أن تُبعَثَ من مراقِدها؛ هائلٌ هو رُكامُ حُطامِها الذي يغطِّي السَّاحل الشَّماليَّ بأكملِه. ههنا، رياح الشَّمالِ إذ تعصِفُ، تصنع أصواتاً غريبةً ومُرعِبة.

* * *

المارِد

1. أ) **عزيزي بِندِتُّو**، إليكَ أخبارُ الأشياء مِن الشَّرق؛ إعلمْ أنَّه في شهر حزيران ظهرَ هناك ماردٌ خرجَ من صحراء ليبيا.

ب) هذا الماردُ وُلِدَ في جبلِ أطلس، وكان أسودَ اللون، ولقد قاتلَ ضدَّ **أرتَحْشَسْتا**[1] مع المصريين والعرب، الميديِّين[2] والفُرس، وعاشَ في البحرِ بين الحيتان واللوياثانات والسُّفن.

ج) عندما سقط الوحشُ العملاق لسببٍ ما على اليابسة،

---

(1) ولفظه في الفارسية القديمة "أرتكسشترا Artaxerxes I of Persia"، ومعناه "الذي يعطي القانون المقدس السيادة"، وقد ذكر المؤرخون اليونان أن أرتحشستا أخمد ثورة قامت في مصر عام 460 ق.م. وأخرى في سوريا عام 448 ق.م..

(2) **الميديون** كانوا أحد الأقوام التي استوطنت إيران قديماً حيث عاشوا في الشمال الغربي لما يعرف الآن بإيران وكان موطنهم حسب الجغرافية الحالية يشمل كردستان وأذربيجان ومنطقة كاردوخ واستناداً إلى كتابات هيرودوت فإن الميديين كانوا مؤلفين من 6 قبائل رئيسية وهم الفيلية وباريتاك وستروخات وآريا وبودي وموغي وأطلق هيرودوت اسم الآريين على القبائل الميدية. هناك اعتقاد لدى بعض الأكراد أن الميديين هم أحد جذور الشعب الكردي ويبرز هذه القناعة في ما يعتبره الأكراد نشيدهم الوطني حيث يوجد في هذا النشيد إشارة واضحة إلى إن الأكراد هم "أبناء الميديين" واستنادا إلى المؤرخ الكردي محمد أمين زكي (1948 - 1880) في كتابه "خلاصة تاريخ الكرد وكردستان" فإن الميدين وإن لم يكونوا النواة الأساسية للشعب الكردي فإنهم إنضموا إلى الأكراد وشكلوا حسب تعبيره "الأمة الكردية".

مضرَّجاً بالوحل والدِّماء، بدا الأمرُ وكأنَّ جبلاً قد سقط، فاهتزَّت البلادُ كما لو مِن زلزال، وبلغ الرُّعبُ **أفلوطين في جحيمه**، **ومارسُ** خوفاً على حياتِه لاذَ بِجُنْحِ **جوبيتر**[1]. هكذا، وما إن انطرحَ، مِن هَولِ الارتطام، على الأرضِ المستوية انطراحَ السَّكران، حتَّى وقعَ النَّاسُ فوراً، وقد حسِبوا أنَّ صاعقةً قتلتْه، في هرجٍ ومرجٍ مِن حولِه، وإذا بهم كجماعةٍ من النَّمل يطوفون في هِياجٍ أنحاءَ الجسدِ المطروحِ[2]، مُسرِعين فوقَ الأطرافِ الفسيحة يجتازونها مُثخِنين إيَّاها بالجِراح.

وإذ تنبَّه الماردُ وأحسَّ بتلك الحشود تكادُ تغطِّيه بالكاملِ، شاعراً بِلَذْعِ وخزاتِهم، أطلقَ على حينِ غرَّةٍ زمجرةً كأنَّها الرَّعدُ المُجَلجِل، ووضعَ يديه على الأرض رافعاً وجهه المرتعِب، ثمَّ وضعَ إحدى يديه على رأسِه فإذا بها مليئةٌ بالرِّجال المعلَّقين بالشَّعر كما لو كانوا مخلوقاتٍ ضئيلةً اعتادتْ العيش هناك: "بَدَوا وهم يتشبَّثون بالشَّعر ويكافحون للاختباء فيه كمثلِ بحَّارةٍ في قلبِ عاصفة يتسلَّقون الصَّواري بغيةَ إنزال الأشرعة"[3]؛ إذَّاكَ حرَّكَ المارد رأسه فتطاير الرِّجال في الهواء كحبَّاتِ البَرَد عندما يطوِّح بها عتوُّ الرِّياح. وكان أن وُجِد كثيرٌ مِن الرِّجال صرعى تحتَ رفاقهم الذين سقطوا عليهم؛ ثمَّ وقفَ منتصباً يدوسهم بقدَمَيه.

---

(1) هذه العبارة: "ومارسُ خوفاً على حياتِه لاذَ بِجُنحِ جوبيتر"، كتبها دافنشي على هامش إحدى الأوراق، ويرى بعض المختصِّين أنَّ هذا هو المكان الأنسب لها، ولذلك أدرجتُها هنا، على أن أعيدَ إدراجَها كما وردتْ منفردةً في الطبعة الإيطالية التي بين يدَي.

(2) ثمَّة انخرامٌ في هذه العبارة، ولذلك فإنَّ لها قراءةً مختلفةً يجدها القارئ في الفقرة (و).

(3) التنويه قبل السَّابق ينطبق على هذه العبارة التي أدرجتُها هنا وحصرتُها بقوسين "...".

د) بَدَوا وهم يتشبَّثون بالشَّعر ويكافحون للاختباء فيه كمثلِ بحّارةٍ في قلبِ عاصفة يتسلَّقون الصَّواري بغيةَ إنزال الأشرعة.

هـ) ومارسُ خوفاً على حياتِه لاذَ بِجُنْحِ جوبيتر.

و) كجماعةٍ من النَّملِ تنتشر هائجةً هنا وهناك بين العلَّيق إذ تهوي عليه فأس فلّاحٍ صارم.

ز) ومِن هولِ سقوطِه بدا وكأنَّ الإقليم بأسرِه يهتزُّ[1].

2. أ) ذلك المحيَّا الأسود يبدو للوهلةِ الأولى فظيعاً ومرعباً جداً لِمن ينظر إليه، ولا سيَّما العَينَين الحمراوَين المتورِّمَتَين، تحت حاجبَين مَهولَين وحانِقَين يجعلان السَّماءَ تغيم والأرضَ ترتجف.

وصدِّقوني، ما مِن رجُلٍ مهما بلغت به الشَّجاعة إلا وسيتمنّى، عندما تتَّجه تلك النَّظرات النَّاريَّة إليه، أن يركِّبَ أجنحةً ليهربَ بها، ذلك أنَّ وجهَ إبليس الجهنَّميِّ نفسَه يبدو ملائكيَّاً مقارنةً بهذا الوجه. الأنفُ مجعَّدٌ مع خياشيم واسعة يخرج منها شَعَرٌ كثيفٌ وطويل، مِن تحته فمٌ مزمومٌ غليظ الشَّفَتين، على جانبيه شعرٌ يشبه ما لدى الهررة، والأسنان صفراء. يعلو رؤوسَ الرِّجال وهم على صهواتِ خيولِهم مِن ظَهرِ قدَمَيه فأعلى.

ب) فلمَّا أعياه طولُ الانحناء، ولكي يخلِّصَ نفسَه مِن إلحاحِ [...][2]، تحوَّل غضبُه إلى هِياج، وبدأ يخبِطُ بقدمِه منفِّساً عن نفسِه ما

---

(1) أدرجتُ هذه الجملة في السياق المناسب لها من الفقرة (ج) مع بعض التعديل لكي تتلاءم وذلك السياق، ولكنها في نسخة الطبعة الإيطالية التي بين يدي تردُ منفردةً في هذا الموضع.

(2) انخرامٌ في الورقة الأصليَّة؛ لكن على الأرجح أنَّ الكلمة المطموسة هي "الجموع".

تملَّكَ أطرافَه العظيمة مِن هيجـان، وحالمـا دخـلَ وسـطَ الحـشود أخـذَ يكيل لهم الرَّكلات قاذفـاً الرِّجـال في الهـواء، ليـسقطوا مِـن ثمَّ علـى بقيَّـة البشر وكأنَّهم عاصفةٌ غزيرةٌ من البَرَد، فكان أنَّ أكثر الـذين مـاتوا جلبـوا الموتَ للآخرين؛ وعلـى هـذا المنـوال اسـتمرَّت تلـك الوحـشيَّةُ إلى أن ارتفعَ الغبار الذي أثارته قدماه الجبَّارتـان في الهـواء واضـعاً حـدّاً لهياجِـه الجهنَّميّ.

أمَّا نحنُ فتابَعنا الفرارَ.

ج) آهِ ما أكثر الغاراتِ الطَّائشة التي شُـنَّتْ علـى هـذا المتُـشيطِن المستعرِ الذي كلُّ هجمةٍ قُدَّامَه كانت محضَ هباءٍ! إيهِ لكُم قوماً بائـسين، ليس تنفعكم حصونكم المنيعة، ولا أسوارُ مدنكم العالية، ولا أن تكونـوا ألوفاً مؤلَّفة، لا بيوتكم ولا قصوركم! لم يبقَ ثمَّةَ سوى الجحور الـصَّغيرة والتَّجاويف الأرضيَّة؛ وأنتم كمثلِ سـرطاناتِ البحـرِ أو الـصَّراصير أو مـا يشبهها من المخلوقات تجدون ملاذكم وخلاصكم فيها!

آهِ كم من أمٍّ وأبٍ تعيسَيْن حُرِموا مِن أطفالِهم! آهِ كـم مِـن امـرأةٍ بائسةٍ حُرِمتْ من شريكِها!

الحقَّ الحقَّ أقول لك يا عزيزي بِندِتُّو، لا أظنُّ أحداً شـهِدَ علـى الإطلاق، مُذ خُلِقَ العالَم إلى اليـوم، نُواحـاً وعـويلاً بـشريّاً مـصحوباً بمثل هذا الرُّعب العظيم!

د) إنَّ الجنس البشريَّ إزاءَ محنةٍ من هذا القبيل لَيَحسدُ كـلَّ سـلالاتِ الحيـوانِ الأخـرى: صـحيحٌ أنَّ النَّسر يفـوق بقوَّتـه بقيَّـة الطُّيور، إلا أنَّ هـذه لا تُفـاقُ في سـرعةِ طيرانِهـا، ونـضرب مـثلاً السُّنونو التي تتملَّص بخفَّتـها مِـن أن تتخطَّفهـا الـصُّقور؛ وكـذلك

الدّلافين التي تتفلّتُ بانسيابيّتها من افتراسِ الحيتان واللوياثانات العظيمة؛ أمّا نحن، فإيهِ ما أتعسنا! سُدىً لدينا كلُّ مَهْرَبٍ، ذلك أنَّ أبطأ خطوةٍ يخطوها هذا [المخلوق] تفوقُ بأضعافٍ مُضاعَفة سرعةَ أسرعِ المُجَلِّيات[1]. لا أعرفُ ماذا أقولُ، أو ماذا أفعل، وخُيِّلَ إليَّ أنِّي غائصٌ برأسٍ منكّسة عبرَ الحلْقِ الهائل، نحوَ ميتةٍ مشوَّشة، لأدْفَنَ داخلَ البطنِ الكبير.

3. **كان أشدَّ سواداً من الزُّنبوريّات**
عيناه حمراوان، كمثلِ نارٍ متّقدة
ويمتطي صهوةَ نِهدٍ[2] عظيم
عَرضه ستّة أبواع وطولُه أكثر من 20،
مع ستّةِ مَرَدَةٍ مقيَّدين إلى القَربوس،
وواحدٍ في يدِه كان قضمَه بأسنانِه
ومِن خلفه تعدو خنازير أنيابُها
تبرزُ من أفواهها، ربّما بلغتْ عشرة أشبار.

---

(1) المجلّي من أسماء الخيلِ وتُطلَق على أوّلِها وصولاً في السِّباق، ويُقال إنَّه سُمِّيَ كذلك لأنّه جلّى عن صاحبه ما كان فيه من الكرب والشِّدَّة، وقد آثرتُ هذه اللفظة هنا على أسماء الخيل المعتادة لأنَّ دافنشي استخدم بالإيطالية كلمة Corsiero التي تُطلَق حصراً على خيول السِّباقات والمعارك، ولم يستخدم كلمة Cavallo التي تعني "الحصان" عامّةً.

(2) النِّهد هو الجواد العظيم الشديد الأعضاء، عظيم الجوف. كذلك هنا استخدم دافنشي كلمة Ronzone التي تُطلَق على الجواد العظيم الممتلئ بدلاً من Cavallo؛ وجديرٌ بالذِّكر أنَّ دافنشي كان مفتوناً بالخيل وقد استلهم من جمال تكوينِها كثيراً من رسوماتِه.

إلى الدَّفْتَرْدار السُّوري[1]

1. أ) تبويبُ الكتاب.

الاستهلال بتمجيد الإيمان والإقرار به[2].

الفيضان المفاجئ من بدايته إلى نهايتِه.

تَهَدُّمُ المدينة.

هلاك الشَّعبِ وزوالُه.

مُطاردةُ الواعظ، إطلاق سراحِه والإحسان إليه[3].

---

(1) الدَّفْتَرْدار تسمية كانت تُطلَق على الموظَّف المالي المكلَّف تنظيم الوارد والمنصرف من أموال الحكومة، وقد أطلِقت على وزير المالية في القسطنطينية قبل أن تتحوَّل تسميته إلى "Mallie-Nazri"، ويصبح "الدَّفتردار" لقباً لمرؤوسيه، ولرؤساء أقسام الشؤون المالية في كل مقاطعة من المقاطعات؛ وهذه المفردة ليست تركية الأصل كما يُظَن وإنَّما عربية الشق الأوَّل "دفتر: كرَّاسة"، فارسيَّة الشق الثاني "دار: كاتب حسابات". في جميع الأحوال ليس هذا هو المعنى الذي قصده دافنشي، فالفترة التي عاش فيها دافنشي توافق حكم المماليك في سوريا، وفي ذلك العهد كان لقب "الدَّفتردار" يُطلق على شخص رفيع المقام هو وكيل وممثل الآمر، وكان مكتب "الدَّفتردار" هو الثالث من حيث الأهمية في الدولة.

(2) على طريقة استهلال الكتب والرسائل بالبسملة والحمدلة في الإسلام، ويرجِّح الشُّرَّاح أنَّ هذا الكتاب كان موجَّهاً من دافنشي إلى شخصٍ مسلمٍ أو هيئةٍ إسلاميَّة.

(3) العبارة غامضة ولم يخاطر أحدٌ من الشُّرَّاح في تخمين معناها.

وصفُ سبب تهاوي الجبل.

الدَّمار الذي سبَّبه.

الانهيار الثَّلجي.

حجَّةُ النَّبي.

نبوءتُه.

غَمْرُ الجزء السُّفليِّ من أرمينيا الشَّرقيَّة، وذلك بالماء المتسرِّب مِن تصدُّعات جبال طوروس.

كيفَ بيَّنَ النَّبيُّ الجديد[1] حدوث ذلك الدَّمار في رسالتِه[2].

وصفُ جبال طوروس ونهر الفرات.

ب) لماذا يتلألأ الجبلُ عندَ قمَّته، مِن ثلثِ الليل إلى نصفِه، ويبدو لسكَّان الغرب كمثل مذنَّبٍ بعد المغيب، وذلك قبل يومٍ لِمن هم في الشَّرق.

لماذا يظهر ذلك المذنَّب بصورٍ مختلفة، فهو تارةً مُدوَّرٌ، وتارةً متطاولٌ، تارةً متفرِّعٌ إلى فرعين أو ثلاثة، وتارةً ملتئمٌ؛ ومتى يختفي، ومتى يظهر.

ج) إلى الدَّفْتَرْدار السُّوري، وكيلُ سلطانِ بابل[3] المبجَّلِ.

الكارثة الأخيرة التي وقعت في مناطقنا الشَّماليَّة هذه، والتي أنا

(1) النَّبي محمَّد.

(2) يشير دافنشي هنا إلى سورة الزَّلزلة في القرآن الكريم.

(3) ينبغي الانتباه هنا إلى أنَّ تسمية "بابل" كانت تُطلَق في العصور الوسطى على القاهرة.

على يقينٍ من أنَّها قمينةٌ لا بترويعِكَ فحسب، بل بترويعِ العالَم بأسرِه، هي ما سوفَ تُخبَّرُ عنه فيما يلي وفق ترتيبٍ منطقي، بِعَرضِ النَّتيجةِ أوَّلاً ومن ثم العلَّة.

إذ أنا في هذه الجهة من أرمينيا[1] للقيام بكلِّ حبٍّ وعِنايةٍ بتنفيذ المهمَّة التي أرسلتني من أجلها[2]، ولأضعَ أسُساً في المكان الذي قد يبدو لي الأكثر ملاءمةً لهدفِنا، وجدتُني أدخلُ مدينةَ **كاليندار**[3] القريبة من حدودِنا[4]. تقع هذه المدينة عند سفحِ ذلك الجزء من مرتفعات طوروس الذي يقسمُه الفرات إلى قسمين، وهي تتطلَّع إلى قمم جبل طوروس العظيم غرباً. تلك المرتفعات هي من العُلُوِ حيث تبدو وكأنَّها تلامسُ السَّماء، وليس ثمَّة في العالَم بأسره جزءاً من الأرضِ يربو على قمَّتها، ودائماً ما تضرب أشعَّة الشَّمس جانبَ الجبلِ الشَّرقيَّ قبل أربع ساعاتٍ مِن طلوع النَّهار، ولِبياضِ حجارته[5] فإنَّه يشعُّ متلألئاً فيبدو للأرمن كنورِ قمرٍ ساطع في خضمِّ الظَّلام؛ وبمثل هذا

(1) ننوِّه هنا إلى أنَّ أرمينيا في زمن دافنشي لم تكن تتمتع بحدود واضحة المعالم، حيث كان الفرس يسيطرون على أجزائها الشرقية والعرب على أجزائها الغربية.

(2) يفسِّر جان بول ريختر مخاطبة دافنشي لتلك الشخصية الرفيعة "الدفتردار" بصيغة المفرد لا بصيغة الجمع الدَّالَّة على التبجيل بوجود علاقة صداقة حميمة بينهما.

(3) أو "كاليندرا" كما كتبها دافنشي، وهي حالياً مدينة تركية صغيرة تسمى Gulnar وتقع في مقاطعة مرسين بحسب ريختر، وإنَّ وصف دافنشي، فيما يلي، لموضعها الجغرافي بدقة إنما يدلُّ على أنَّها كانت مكاناً غير معروف وقليل الأهمية.

(4) الإحالة هنا إلى حدود دولة المماليك.

(5) تتكوَّن جبال طوروس في أغلبها من صخور كلسيَّة.

الارتفاع العظيم تراه يتجاوز أقصى علوّاتِ الغيم بمسافةٍ تمتدُّ لأربعةِ أميالٍ وفقَ خطٍّ مستقيم. هذه القمَّة تُرى من أماكن كثيرة في الغرب وهي مُضاءةٌ بالشَّمسِ منذ أفولها حتَّى الهزيع الثالث من الليل، وذلك ما كنَّا نفترض من قبلُ حين كنَّا نراه في الأجواء الصَّافية أنَّه مذنَّبٌ يُدانيكم، وكان يظهر لنا في ظلمات الليلِ وهو يتحوَّل من شكلٍ إلى آخر، فتارةً ينقسمُ مَثنىً وتارةً ثُلاث، تارةً يتطاولُ وتارةً يقصُر؛ ومردُّ ذلك إلى الغيوم التي تتخلَّلُ عندَ أفق السَّماء بين جزءٍ من هذا الجبلِ وبين الشَّمس، فإذا قُطِعَت [مساراتُ] بعض الأشعَّة الشَّمسيَّة، فإنَّ الضَّوء [المنعكسَ] عنَ الجبل يُعترَضُ بقِطَعٍ مختلفةٍ من الغمام، فيتغايرُ شكلُ سطوعه.

2. a) **عن شكلِ جبل طوروس.** لا أستحقُّ أن أتَّهَمَ، أيُّها الدَّفتردار، بالتقاعس، مثلما تلمِّحُ توبيخاتُك من طرفٍ خفيٍّ؛ غير أنَّ حبَّكَ الجامحَ لي، ومنه نُعمى أن أكون محظيّاً لديك، هو ما يرغمني بحرصٍ فائق على البحث وبكدٍّ ومثابرة على استقصاء الأسباب التي من شأنها أن تُفضي إلى نتيجةٍ عظيمةٍ وباهرة؛ وذلك ما لا يمكن أن يتحقَّق دون أن يستغرقَ وقتاً. أمَّا الآن، فلكَي أقنعكَ تمامَ الإقناع بما قد يُفضي إلى نتيجةٍ بمثل تلك الرَّوعة، فإنَّه لا مناصَ من أن أصف لك شكلَ المكان، ثمَّ سأنتقل إلى النتيجة التي معها ستكون، حسب يقيني، راضياً تماماً.

b) لا تأسَ، أيُّها الدَّفتردار، لِتوانيَّ في الرَّدِّ على سؤالِك المُلِح، فهذه الأشياء التي تسألني عنها تقتضي طبيعتُها مرورَ فترةٍ من الزَّمن حتَّى يمكنَ شرحُها على النَّحو السَّليم، لا سيَّما وأنَّ شرحَ المسبِّبات المفضية إلى نتيجةٍ باهرة يتطلَّبُ [في البدء]

تقديم وصفٍ دقيقٍ للمكان، وعبرَ ذلك يمكنني بسهولةٍ إرضاء فضولِكَ الآنفِ الذِّكر.

سوفَ أتخطَّى التطرُّقَ إلى وصفِ شكلِ آسيا الصُّغرى، أو إلى ذكرِ البحار أو الأراضي التي ترسمُ الخطوطَ المحدِّدةَ لمعالمِها وامتدادِها، ذلك أنّي قمينٌ من أنَّ ما بذلتَه من جهدٍ ومثابرةٍ خلالَ دراستِك لم يترك لديك جهلاً بهذه الأمور، ولَسَوفَ أمضي نحوَ وصفِ الشَّكلِ الحقيقيِّ لجبلِ طوروس، الشَّكلِ الذي هو علَّةُ هذه الأعجوبة الباهرة حدَّ الإيذاء، وذلك ما مِن شأنه أن يخدمنا في دفعِ موضوعنا قُدُماً.

طوروسُ هذا، هو ذلك الجبل الذي يقالُ إنَّه يشكِّلُ مع جبالٍ أخرى كثيرة حافَّةَ جبلِ القوقاز. لكن توخيَّاً منِّي للوضوح في هذه المسألة، فقد رغبتُ بالحديث مع بعض قاطني شواطئ بحر قزوين الذين فسَّروا [لي] أنَّه بما أنَّ لجبالِهم الاسمَ ذاتَه، فيما طوروسُ هو الأعلى من بينها، فإنَّه هو ما ينبغي أن يكون جبل القوقاز الحقيقي؛ ولإثباتِ ذلك فإنَّ كلمة قوقاز في لغة الإصقوث[1] يُرادُ بها الذروة الشَّاهقة. وحقيقة الأمر أنَّه ليس ثمَّةَ في ما وردنا من أخبارٍ مِن ذكرٍ، لا في الشَّرق ولا في الغرب، لجبلٍ بمثل هذا العُلْو، ودليلُ ذلك أنَّ قاطني البلدانِ

---

(1) الإصقوث أو الإسكيثيُّون هم شعب بدوي متنقل ينحدر من أصول إيرانية، حلَّ محل السيريين الذين كانوا قد جاؤوا من سهول روسيا، وقد نزح الإصقوث من سهول أوراسيا إلى جنوبي روسيا في القرن 8 ق.م، واستقروا غربي نهر الفولجا شمال البحر الأسود حيث كانوا على صلة بالمستعمرات الإغريقية حول البحر الأسود. تمكن الإصقوث من تأسيس إمبراطورية غنية وقوية استمرت لقرون عديدة قبل أن يخضعوا للسارماتيين بين القرنين الرابع قبل الميلاد حتى القرن الثاني الميلادي.

الواقعةِ إلى الغرب يرون أشعَّةَ الشَّمس تضيءُ حتَّى الهزيع الرَّابع من أطول الليالي جزءاً كبيراً من قمَّته، ونفسُ الشَّيء بالنِّسبة للبلدان الواقعة إلى الشَّرق منه.

3. **عن بنيةِ وحجمِ جبل طوروس.** ظلٌّ هذه الحافَّة من جبل طوروس هو من الارتفاع بحيث أنَّه، في منتصف حزيران وفي شمسِ منتصفِ الظَّهيرة، يمتدُّ حتَّى يلامسَ تخومٍ سارماتيا[1]، لاثني عشر يوماً، وفي منتصفِ كانون الأوَّل يمتدُّ الظلُّ حتَّى جبال هايبربوريا[2]،

---

(1) كانت تمثِّل الجزء الجنوبي الغربي من أرض الإصقوث بين البحر الأسود ونهري الفولجا والدُّون، وقد ازدهرت حضارة السارماتيين، وهم شعب ينحدر من أصول إيرانية، بين القرنين الخامس قبل الميلاد والرابع الميلادي.

(2) حرفيَّاً: "حتَّى الجبال الهايبربوريَّة"، والهايبربوريُّون في الأصل هم، حسب الميثولوجيا الإغريقيَّة، شعبٌ أسطوري عاش شمال تراقيا (منطقة تاريخية تقع جغرافياً في جنوب شرق البلقان تضم شمال شرق اليونان وجنوب بلغاريا وتركيا الأوروبية)، ولمَّا كان الإغريق يعتقدون بأنَّ تراقيا هي مسكن بورياس "إلاهة ريح الشَّمال"، فإنَّ أرض هايبربوريا وفقاً لذلك تقع فيما وراء حدود ريح الشَّمال، فيما بعد أرض الشتاء، وكلمة "هايبربوريا" حرفيَّاً تعني "فيما وراء بورياس"، حيث تمثِّل أرض الرَّبيع الأبدي، بشمسٍ لا تأفل أبداً. في جميع الأحوال موقع هايبربوريا كان ولا يزال مثار جدل على مرِّ العصور وتختلط حولها الأسطورة بالحقيقة، ذكرها هوميروس وسوفوكليس وإسخيلوس، أمَّا أرسطوطاليس فيضع الجبال الريفيانيَّة Riphean Mountains (وهي جبال مجهولة الموقع، في حين يرى آخرون أنها نفسها جبال الأورال) ـ يضعها حدوداً شماليَّة لأرض الأصقوث، ويضع هايبربوريا فيما وراءها نحو الشَّمال (ويبدو لي هنا أنَّ دافنشي اعتمد هذا التوصيف في ذكره لجبال هايبربوريا)؛ والجدير بالذكر أنَّه الإسكندنافيين (شعوب شمال أوروبَّا) عندما جوبهوا بالثقافة الإغريق ـ رومانيَّة لمنطقة المتوسِّط، قدَّموا أنفسهم على أنَّهم هايبربوريُّون، ناكرين الفكرة التقليديَّة حول الأرض ذات الشمس التي لا تأفل في أقاصي الشمال، وقد كانت هذه الفكرة قويَّة جداً وخصوصاً خلال القرن السابع عشر في السُّويد.

وهو ما يساوي رحلةَ شهرٍ نحوَ الشَّمال؛ ودائماً ما يكون جانبه المواجه للرِّياح طافحاً بالضَّباب والغيوم، ذلك أنَّ الرِّيح التي تتفرَّق إذ تـضرب الصَّخر، تعودُ لتلتحمَ [حول ذلك الصَّخر] من جديد، وبتلك الحركـة فإنَّها تحمل معها الغيم من كلِّ جانب وتطرحه في مكان التطامها؛ ومن ثمَّ فإنَّ ذلك الجانب يكون على الدَّوام مترعـاً بالـصَّواعق نظـراً للقـدر العظيم من الغيوم الـتي تحتـشدُ هنـاك، ولـذلك فـإنَّ الـصَّخر مهـشَّمٌ بالكامل ومليءٌ بحُطامات هائلة. سفحُ هذا الجبل مأهولٌ بشعوبٍ بالغة الثَّراء، وهو يفيضُ بأجملِ الينابيع والأنهار، خصبٌ ووافرُ الخيرات من كلِّ صنفٍ ولون، ولا سيَّما في تلك الأجزاء المواجهة للجنوب. لكـن ما أن نبلغَ حوالي الثلاثـة أميـال صُـعُداً حتَّـى تطالعُنـا غابـاتُ الـشُّوح العظيم، والصَّنوبر والزَّان، وسوى ذلك من أشباه تلك الأشجار؛ بعد ذلك، وبمسافة ثلاثة أميالٍ أُخَر، يتحوَّل المشهد إلى أراضٍ معـشوشبة ومراعٍ مترامية الأطراف؛ وكلُّ ما يأتي بعد ذلك، حتَّى مـشارفِ جبـل طوروس، ثلوجٌ أبديَّة لا ترحلُ في أيِّ وقتٍ من الأوقات، وهي تمتـدُّ إجمالاً حتَّى ارتفاع أربعة عشر ميلاً على وجـه التَّقريـب. مـن مـشارفِ طوروس هذه وحتَّى ارتفاعِ ميلٍ لا تزول الغيومُ أبداً؛ على هـذا النَّحـو نكون قد قطعنا خمسة عشر ميلاً، ما يعادلُ تقريباً خمـسةَ أميـالٍ وفـوقَ خطٍّ مستقيم؛ وعند ذلك القدر أو نحوِه تطالعُنا قمم طوروس. هنـاك، عند منتصف الطَّريق صعوداً، يبدأ الإحساس بأنَّ الهواء أصـبح لاذعـاً دون الشُّعور بأيَّة هبَّةِ ريح، وما من مخلوقٍ يستطيع العيش طويلاً هناك. لا شيء يخرج إلى الحياة في ذلك المكان، سوى بضعة طيورٍ جارحـة تعشِّشُ في شقوق أجرفِ طوروسٍ الشَّاهقة، وتنزلُ أسفلَ الغيـومِ طلبـاً لطرائدها فوق التلال المعشبة. كلُّ ما هنا صخرٌ عارٍ، أي مـن مـستوى الغيم فصاعداً، صخرٌ ناصعُ البياض، ومن المحال المُضيُّ نحو الذروةِ الشَّاهقة لوعورةِ الصَّعدةِ وخطورتِها.

4. a) أعلمُ الآن، بعد أن ابتهجتُ معك مرّاتٍ عديدة عبرَ الرّسائل لنجاحاتِك المُخصِبة، أنَّك كصديقٍ سوف تحزنُ معي لِلوضع المزري الذي وجدتُ نفسي فيه؛ ففي الأيّام القليلة الماضية كنتُ في حالٍ يُرثى لها من الكَدَرِ والخوف والخطرِ والضّياع، مع هؤلاء القرويّين البؤساء، حدَّ أنّنا حسدنا الموتى. وبالتّأكيد فأنا لا أؤمن بأنَّ العناصر، وإنْ كانت بانفصالِها تحوِّل الفوضى العارمة إلى نظام، ستكون قادرةً على توحيد قواها، بل ضراواتها، لتجلبَ الهلاكَ للإنسان؛ غير أنَّ ما شهدناه ومررنا به في حالتنا هذه كان من الهول بحيث أنّني أعجزُ عن تخيُّلِ أنَّ الأشياء يمكن أن تبلغ ذلك المبلغ من الشَّر.

باديء ذي بدء هوجمنا وضُربنا بضراوةِ وغضبِ الرِّياح؛ ثمَّ لحقَ بذلك انهيار جبالٍ من الثلوج ملأتْ هذا الوادي عن آخرِه، مهشِّمةً جزءاً عظيماً من مدينتنا[1]. وغير مكتفيةٍ بذلك، أرسلت علينا ريحٌ عاصفةٌ فيضاً مباغتاً من الأمواه ليغمرَ كلَّ الأجزاء الخفيضة من هذه المدينة. زِد على ذلك انهمارَ أمطارٍ مفاجئة، أو بالأحرى سيولٍ مدمِّرة محمَّلةٍ بالرَّمل، والطّمي، والحجارة، تلفُّها جذور وأغصان وجذوع نباتاتٍ متعدِّدة؛ وكلُّ ما كان يتطاير في الهواء كان يتهاوى على رؤوسنا؛ وفي خاتمة المطاف شبَّت نارٌ عظيمة، بدا وكأنَّها لم تكن وليدة الرِّياح بل وليدةَ ثلاثين ألف إبليسٍ، حيث أنّها أتت على المكان بأسره، ولم تخمد حتّى السّاعة. حتّى أولئك القلّة

(1) يستنتج ريختر من استخدام دافنشي لتعبير "مدينتنا" بدلاً من "هذه المدينة"، أنَّه عاش لفترةٍ ما في ذلك المكان، أيّاً يكن موقعه الدّقيق.

الذين نجوا من المهلكة، تُرِكوا في ذهولٍ وفزعٍ عظيمَين، فبالكاد يُقدِم أحدهم على الحديث مع الآخر، وكأنَّ بهم مسّاً. وإذ شُغلنا عن كلِّ شأنٍ، تجمَّعنا معاً في خرائب بعض الكنائس[1]، مختلطين معاً رجالاً ونساءً[2]، صغاراً وكباراً، تماماً كقطعانٍ من المعيز، ولَولا أولئك القوم الذين مدُّونا بالمؤن لكنَّا هلكنا من الجوع.

الآن أنت ترى في أيِّ حالٍ نحن؛ وكلُّ هذه الشُّرور تكاد تكون لا شيء قياساً بتلك التي نحن موعدون بها عمَّا قريب.

b) أعلم أنَّك، كصديقٍ، سوف تحزن لِبؤسي، مثلما من قبل، عبر الرَّسائل، عبَّرت لك بتأثُّرٍ عن ابتهاجي لمسرَّتِك[3].

c) القوم المجاورون، رأفةً بنا، مدُّونا بالمؤن، وقد كانوا من قبلُ أعداءً لنا[4].

* * *

(1) سواءٌ أكانت كنائس الأرمن أم الجوامع، حيث كان من المعتاد في عصر دافنشي تسمية الجامع بالكنيسة.

(2) يمكن أن يستنتج القارئ من هذه العبارة أنَّه كان ثمة فصلٌ صارمٌ بين الجنسين في ذلك الزمان والمكان.

(3) الصِّيغة الأولى التي كتبها دافنشي لمطلع الرسالة السابقة المرقَّمة 4. a؛ قبل أن يشطبها ويستقر على الصيغة مثلما وردت في الرسالة إياها.

(4) الصِّيغة الأولى لخاتمة الرسالة المذكورة في الهامش السَّابق لهذا، قبل أن يبدِّلها دافنشي إلى الصِّيغة مثلما وردت في الرِّسالة، ويبدو أنَّ دافنشي عدلَ عن هذه الصِّيغة لأنه وجد من غير اللائق الإشارة إلى الذين مدُّوا لهم يد العون بأنهم كانوا أعداءً لهم.

رسائل

1. سيِّدي المبجَّل[1]، بعد أن رأيتُ وراعيتُ بما فيه الكفاية نماذج من أولئك الذين يحسبون أنفسهم أساطين في اختراع الآلات الحربيَّة، ولمَّا كانت ابتكاراتُ وتصاميم تلك الآلات لا تختلف بشيءٍ عمَّا هو مُشاع الاستخدام، فإنَّني سأحاولُ، دون المساس بأيِّ شخصٍ آخر، أن أفصحَ عن آرائي لجلالتكم، كاشفاً لسموِّكم عن كل أسراري، ومكرِّساً إيَّاها مِن ثمَّ لخدمة رغباتكم ببذل أفضل ما عندي في الأوقات المناسبة، في سبيل إنجاز كلٍّ تلك الأشياء التي سآتي باختصارٍ على ذكر جوانب منها، أدناه.

2. لديَّ أنماطٌ من جُسورٍ قويَّة وبالغة الخفَّة، معدَّلة لكي تُحمَل بسهولةٍ فائقة، ومعها تستطيعِ أن تتقدَّم، وأن تتراجع في أيِّ وقتٍ من أمام أعدائك؛ وأخرى مُحكَمة منيعة على النَّار والمعارك، مُلائمة وسهلة الرَّفع والتثبيت.

وكذلك ابتكاراتٌ لحرق وتدمير جسور العدو.

3. أعرفُ، عند حصارِ مكانٍ، كيف أفرغ الماء من الخنادق، وأنشئ مجموعة لانهائيَّة من الجسور والسَّراديب والسَّلالم، وسوى ذلك من آلاتٍ تتَّصل بحملاتٍ من هذا القبيل.

---

(1) يستنتج ريختر من التصويبات والتغييرات الكثيرة في المخطوطة، ومن غياب أيِّ توقيعٍ عليها، أنها عبارة عن مسوَّدة رسالة كتبها دافنشي إلى لودفيك الموراي (مرَّ ذكره سابقاً)، وهي واحدة من عدد قليل جداً من المخطوطات التي كتبها دافنشي من اليسار إلى اليمين.

4. وعليه، إذا ما تعذَّرَ، بسبب ارتفاع الحواجز، أو بسبب قوَّة المكان وموقعه، استخدام القذائف عند حصارِ الأرض، فإنَّ لديَّ وسائل لتدمير أيَّةِ صخرةٍ أو حصنٍ، حتَّى ولو كان مشيَّداً على الصَّخر.

6. لديَّ كذلك أصنافٌ من مدافع الهاوُن، مُطاوعة للغاية وسهلة الحمل، بها يُمكنُ المرءَ أن يقذفَ حجارةً صغيرة على نحوٍ يشبه العاصفة؛ ومن شأن الدُّخان الخارج منها أن يبثَّ رعباً كبيراً في رَوع العدو، مع إلحاقِ أذىً كبيرٍ به وتشويشِ صفوفه.

7. كذا لديَّ وسائل صُمِّمتْ عبر مصادر وطرقٍ سرِّيَّةٍ وملتوية، ودون أدنى ضجيج، لأجل بلوغ بقعةٍ محدَّدةٍ بعينِها، حتَّى وإن اقتضى الأمر المرور تحت خندقٍ أو نهر.

8. كذلك الأمر، سأصنع مركباتٍ مغطَّاة، آمنة ومنيعة، إذ تدخل بين صفوف العدوِّ بمدفعيَّتها فإنَّها لا تدَع جمعاً من الرِّجال المسلَّحين إلا وتبدِّدُه. ومن خلفها يستطيع المشاةُ التقدُّمَ بسلامٍ تامٍّ ودون أيِّ عائقٍ.

9. وهكذا، إن اقتضتِ الحاجة، فسأصنع مدافع ثقيلة، ومدافع هاوُن، ومدافع خفيفة، بأشكالٍ نافعة وفائقة الجمال، خارج النَّمط الشائع.

10. حيثما اختلَّ عملُ المدفعيَّة، ابتدعتُ مقاليعَ، ومجانيقَ، وقواذف، وغيرها من المعدَّات الباهرةِ الفِعل، والخارجة على النَّمط السَّائد؛ وباختصار، وفقاً لتنوُّع الحالات، أستطيع ابتكار وسائل هجومٍ ودفاعٍ متنوِّعة وإلى ما لا نهاية.

11. وحين يكون القتال في البحر، فإنَّ لديَّ صنوفاً من آليَّات عديدة فائقة الفعاليَّة في الهجوم كما في الدِّفاع؛ وسفناً قادرةً على صدِّ هجوم أعتى القذائف والبارود والأدخنة[1].

12. في زمن السِّلم أعتقد أنَّني قادرٌ على منح الشُّعور برضىً فائق مقارنةً بأيِّ أحدٍ آخر في مجال العمارة وإنشاء الأبنية العامَّةِ والخاصَّة، وفي توجيه المياه من مكانٍ إلى آخر.

على المنوال ذاتِه، أستطيع عمل منحوتاتٍ من المرمر، والبرونز، والصَّلصال، ومثلُ ذلك في الرَّسم، ما أستطيع فعله يفوق ما في مُستطاعِ أيِّ أحدٍ آخر، كائناً مَن كان.

من ناحيةٍ أخرى، من الممكن إنجاز الحصان البرونزي، والذي سيكون مجداً خالداً وشرفاً أبديّاً لذكرى والدِكُم المبجَّل المباركة، وذكرى عائلة سْفُورْتْزا[2].

فإذا شيءٌ ممَّا ذكرته أعلاه بدا لأحدهم مستحيلاً وغير قابلٍ

---

(1) ليس ثمة خطأ في ترقيم هذه الفقرة، فهي ترد كذلك، ومن دون إيراد تفسير، في طبعتين إيطاليَّتين صادرتين عن دارَي نشر مختلفتين، ويبدو لي أنَّ هناك تفسيرين محتملَين لذلك، الأوَّل أن يكون الدَّارسين قد أبقوا على تسلسل الفقرات تماماً كما ورد في مسوَّدة الرِّسالة الأصل، في حين وضعوا الترقيم على النَّحو المنطقي الذي قادتهم إليه دراساتهم وأبحاثهم، والثاني أن يكون دافنشي نفسه بعد أن كتب الفقرات على المسوَّدة قام بترقيمها وفقاً للترتيب والتسلسل الذي أراده من ثمَّ نهائيّاً للرِّسالة.

(2) سلالة المخاطَب، وهي عائلة نبيلة طبعتْ منذ نهاية القرن الرابع عشر التاريخ الإيطالي والأوروبي، ومعقلها في ميلانو. يعود اسم العائلة إلى لقب عرف به مؤسسها موزيو أتيندولو، فقد كان يدعى سفورتزا (أي القوي) لهيبته، وكان قائد رومانيا العسكري في خدمة الأنجويين ملوك نابولي.

للإنجاز، فإنَّني على أتمِّ الاستعداد للقيام بتجربته في حديقتكم، أو في أيِّ مكانٍ آخر تحبِّذه جلالتكم، التي لخدمتها أكرِّس نفسي بأقصى ما يكون التَّواضع.

13. لَشدَّ ما يُغيظني أنَّ الحاجة إلى كسب رزقي قد اضطرَّني إلى التوقُّف عن مواصلة العمل الذي عهد به سموُّكم إليَّ؛ لكن آمل أنَّني خلال وقتٍ وجيز، بعد أن أكون قد كسبتُ الكثير، سأكون قادراً ببالٍ رخيٍّ على إرضاء فخامتكم، التي أفوِّض نفسي إليها. وإن كان سموُّكم يظنُّ أنَّ معي أموالاً، فسموُّكم مُضلَّل، ذلك أنَّه كان عليَّ إطعام ستَّة أفواه لستٍّ وثلاثين شهراً، وكان معي خمسون دوقيَّة!

لعلَّ سموَّكم لم يعطِ المزيد من الأوامر إلى السيِّد **غوالْتْييري**، معتقداً أنَّ معي ما يكفي من المال.

14. a) وإن عُهِد إليَّ

بأيٍّ ... [1]

مكافأةً على خدمتي، لأنني لستُ

في واردِ الـ ...

أشياء مخصَّصة، لأنَّها في الوقت نفسِه

قد ... لهم ...

... ذلك أنَّهم قادرون على تنظيم الأمور أكثر منِّي ...

---

(1) الورقة التي كتب عليها دافنشي مسوَّدة هذه الرِّسالة الموجَّهى إلى لودفيك سفورتزا ممزَّقة من المنتصف، حيث لم يبق من كلِّ سطرٍ سوى نصفه تقريباً.

لا فنِّي الذي أرغب بتغييره و بِـ ...

بإعطاء ثوبٍ ما لو ...

b) سيِّدي، لمعرفتي أنَّ ذهنَ

فخامتكم مشغولٌ ...

لأذكِّر سموَّكم بقضاياي الصَّغيرة

كنتُ صامتاً عنها ...

أنَّ سكوتي كان ربَّما السَّبب في جعلِ

سموِّكم يسخطُ ...

حياتي في خدمتكم. أحبسُ نفسي دوماً

على طاعتكم ...

عن الحصان لن أقولَ شيئاً لأنَّني أعلم أنَّ

الوقتَ ...

إلى سموِّكم كيفَ كنتُ لا أزال أستلمُ

أجرةَ سنتين عن ...

مع اثنين من العمَّال المَهَرة اللذَين هما على الدَّوام

في عهدةِ مرتَّبي وعلى نفقتي ...

حيث وجدتُني في النهاية قد ادَّخرتُ من ذ[لك] العمل

ما قدره حوالي 15 لِيرة مـ ...

أعمالٌ ذائعة الصِّيت أستطيع بها أن أري أولئك

الذين سيأتون أنّني كنت ...

في كلِّ مكانٍ لكنّني لا أعرف أين عسايَ

أهبُ أعمالي ...

c) بما أنّني كنتُ أعمل لأكسبَ رزقي ...

d) لعدمِ إخطاري عن طبيعة ذلك، فقد وجدتُ

نفسي ...

ليتذكَّر [سموكُم] العمولة لأجل طلاء

الغرف ...

كنتُ نقلتُ إلى سيادتكم ملتمساً منكم فقط ...

15. a) سادتي المبجَّلين، إذ لاحظتُ أنَّ الأتراك ليس بمقدورهِم اجتياحَ إيطاليا عبر أيِّ جزءٍ من البرِّ الرَّئيس ما لمْ يعبروا نهرَ إيسونزو[1]، ومع أنّني أعلمُ أنَّه من غير الممكن ابتكار أيِّ تحصينٍ يدوم فترةً طويلةً من الزَّمن، إلا أنَّني لا أستطيع الإحجام عن تنبيهكم إلى حقيقة أنَّ عدداً قليلاً من الرِّجال يمكنهم بمساعدة هذا النَّهر إنجاز ما كان لِينجزه كثيرون، فحيث أنَّ هذه الأنهار ...

b) لقد تكوَّن لديَّ حكمٌ بأنَّه من غير الممكن ابتكار أيِّ تحصينٍ في أيِّ موقعٍ آخر يكون ذا قدرةٍ شاملةٍ على التأثير، كما فيما لو كان ذلك الموقع فوق هذا النَّهر.

---

(1) يقع هذا النهر حالياً ضمن حدود سلوفينيا، في الماضي شنَّ الإيطاليون عبره سلسلة معارك هجوميَّة لجذب القوّات النمساويَّة والقوّات الألمانيَّة التي تدعمها.

c) حين يكون الماء أكثر عكَراً، يكون أثقل، وحين يكون أثقل، يكون أسرع في انحداره، وكلَّما كان الشَّيء أسرع، كان أكثر وقعاً على معترضِه.

سواءٌ أطَفى الشَّيء فوق الماء أم ...

d) لا يسبِّب الماء دماراً إلَّمْ يكن متحرِّكاً، وإذ يتحرَّك، فإنَّ الشَّيء الذي يكون تحت سطحه وليس ثابتاً إلى القعر سيتحرَّك بأبطأ ممَّا يفعل الماء، ذلك بأنَّه أثقل، وإذا ما هو ...

e) بالنِّسبة إلى حمل الأشياء مع التَّيَّار، وأعني بها الخشب والحجارة ...

f) لا أريد أن أصنعَ دعامةً تقلُّ ارتفاعاً عن أخفضِ ضفَّة، أي عن أربع أذرع و ...

عن تغيير موضع النَّهر[1].

g) في شأن ما قد يُقال ضدَّ استدامتِه،

وأنَّ أخشاب البناء المنقولة بواسطة الأنهار سوف تحطِّم ...[2].

h) عن هذا الجانب أجيبُ بأنَّ جميع الدَّعائم يجب أن تكون مساوية في الارتفاع لأدنى عمقٍ للضِّفاف، فإذا ما ارتفع منسوب النَّهر إلى ذلك الارتفاع فإنَّه لن يدخل إلى الغابات القريبة من الضِّفَّة، وبعدم دخوله إلى هناك لن يكون بمقدوره أن يجرفَ أيَّ قطعة من أخشاب البناء، وهكذا فإنَّ النَّهر سيجري [محمَّلاً] بمائه المصطخب ليس إلا.

---

(1) قد تكون هذه الجملة عنواناً للفقرات التي تليها.

(2) ليس واضحاً تماماً إذا ما كان السَّطر الثاني يتبع مباشرةً السَّطر الأوَّل، أو أنَّ ثمَّةَ انخرامٌ في النَّص بينهما.

i) وفي حال ارتفع فوق مستوى ضفَّته، مثلما رأينا هذا العام عندما ارتفع حوالي أربعِ أذرع فوق مستوى أخفض ضفَّة، فإنَّه سيحمل معه أخشاباً عظيمة الحجوم، يرفعها لتطفو سابحةً مع مجراه، ثمَّ يطرحها بحيث تستند بثبات إلى تلك الأشجار العظيمة التي هي من أنواع قويَّة التحمُّل، فتبقى عالقةً بالأغصان.

l) فإن هي، في جميع الأحوال، دخلت مجرى النَّهر، فذلك لأنَّها تمتلك القليل من الأغصان أو لا تمتلك أيَّاً منها، فتطفو على السَّطح ولا تلامسُ الحاجزَ المسنَّن الذي أقمتُه.

إن أردتم الـ ...

m) (سوف يتقدَّمون ليلاً إن راودتهم الشُكوك في ...)

لن يستطيع أيُّ جيشٍ التغلُّبَ عليها إلَّم يكن موحَّداً، وإن كان موحَّداً فإنَّه لن يقدر أن يكون كذلك إلَّا في موقعٍ محدَّدٍ فقط، وأن يكون موحَّداً على هذه الشَّاكلة في موقعٍ واحدٍ محدَّد، فإنَّه سيكون إمَّا أضعف وإمَّا أقوى من العدوِّ؛ وإن كان أضعف وهذا ما سيتبيَّنه الأعداء عبرَ جواسيسهم، فإنَّ هؤلاء سيمرُّون بالغدر ...

n) عندما تحلُّ الفيضانات العظيمة التي تحملُ أخشاب البناء والأشجار العملاقة، فإنَّها ستتجاوز قمَّة هذه التَّحصينات بأربع أو خمس أذرع، كما بيَّنا، ودلالاتُ ذلك [تُرى] في الأشياء التي بقيتْ عالقةً بأغصان الأشجار عند العُلْوِ الذي بلغته.

o) حين لا يكون للماء تيَّارٌ [جارٍ]، فإنَّه سيُسَدُّ بسهولةٍ وسرعةٍ بحُزَمِ القضبان الخشبيَّة. تلك التي دائماً ما إن تسقط فيه حتَّى تعودَ ...

p) (حيث أنَّني)، يا سادتي المبجَّلين، (درستُ عن قربِ طبائعَ نهر إيسونزو، وكوني بالإضافةِ إليه أبلغتُ) من قبلِ السُّكَّان المحليِّين (أبلِغتُ) كيف أنَّه من أيَّة جهةٍ (السُّكَّان المحليِّين) يمكن للعدوِّ أن يدركهم.

q) سادتي المبجَّلين، لمَّا كنتُ قد درستُ عن قربٍ طبائع نهر إيسونزو، وفهمتُ من السُّكَّان المحليِّين أنَّ أيَّ مسلكٍ من البَرِّ الرَّئيس يمكن أن يسلكه الأتراك بغيةَ بلوغ هذه الجهة من إيطاليا لا بدَّ وأن يفضي بهم في النِّهاية إلى هذا النَّهر، فقد كوَّنتُ رأياً بأنَّه من غير الممكن إنشاء تحصيناتٍ فوق هذا النَّهر دون أن تتدمَّر وتنهار بفعلِ فيضاناته ...

r) سادتي المبجَّلين، حيث أنَّني أدركتُ أنَّه أيّاً يكن المسلك من البَرِّ الرَّئيس الذي قد يسلكه الأتراك في سبيل أن يبلغوا أراضينا الإيطاليَّة، فلا بدَّ لهم في النِّهاية من بلوغها عبر نهر إيسونزو ...[1].

(1) بالنِّسبة لهذه الرِّسالة والتي تحمل الرقم (4) مع الأحرف من a إلى r يشير ريختر إلى أنَّ الورقة المكتوبة عليها قد طويت ثلاث طيَّات بحيث انقسمت إلى ثمان شرائح اثنتان منها مفقودتان، وأنَّه من المستحيل بالتالي معرفة التسلسل الصحيح الذي كتب على أساسه النَّص، أمَّا بالنسبة للفقرات الثلاث الأخيرة المرقَّمة على التسلسل p، q، r فهي عبارة عن ثلاث محاولات من دافنشي لكتابة مطلع لهذه الرِّسالة وهي موجودة على شريحة من الشرائح السِّت مع تصويباتٍ كثيرة من قبل دافنشي نجم عنها ما يمكن للقارئ أن يلمسه في المقطع p خصوصاً من بعض العشوائية والتكرار للكلمات بين الأقواس.

16. إلى السَّيِّد المبجَّل، والموقَّر[1].

السَّيِّد هيبُّوليتو، كاردينال إستي[2]

في فِيرَّارا.

السَّيِّد المبجَّل والموقَّر.

لقد وصلتُ من ميلانو من بضعةِ أيَّامٍ، لأجدَ أنَّ أخي الأكبر يرفض أن ينفِّذ وصيَّةً وُضِعت منذ ثلاث سنواتٍ عند وفاة والدي، ولأنَّني رغم كلِّ شيء لستُ في واردِ إهمالِ أمرٍ أثمِّنه غايةَ التثمين، أجدني لا أستطيع لجمَ نفسي عن التماس رسالةِ توصيةٍ وتعاطفٍ من طرفِ سموِّكم الموقَّر إلى السَّيِّد رافائلُّو هْيِيرونيمو، وهو في الوقت الحاضر واحدٌ من أعضاء حكومتنا الموقَّرين الذين تُثار دعوايَ أمامهم، خاصَّةً وأنَّ الهيئة القضائيَّة العليا وُضِعتْ من قِبل معاليكم بين يدي السَّيِّد رافائلُّو المذكور، والذي على فضيلته أن يصدر قراراً ويغلق القضيَّة قبل حلول عيد جميع القدِّيسين. ولذلك، سيِّدي، أتضرَّع إليكم بأقصى ما أعرفُ وأقدر عليه أن يكتبَ سموُّكم رسالةً إلى السَّيِّد رافائلُّو المذكور بذلك الأسلوب البديع والوجداني الذي يتقنه معاليكم، موصين إيَّاه بليوناردو دافنشي، خادمكم المتواضع،

---

(1) الترجمة حرفيَّاً: "سيِّدي الأكثر تبجيلاً، والأكثر توقيراً"، وكذلك الأمر بالنسبة لمخاطبة المرسَل إليهم في الرسائل السابقة، حيث يستخدم دافنشي صيغة المبالغة.

(2) الرِّسالة موجَّهة إلى هيبُّوليتو الأوَّل (1479-1520)، كاردينال إستي المولود في مدينة فيرَّارا؛ وعائلة إستي هي سلالة أمراء أوروبيَّة تنقسم إلى فرعين، الفرع الأقدم المعروف بآل فِلف- إستي، أو آل فِلف، والأحدث المعروف بآل فولك- إستي، أو كما لاحقاً آل إستي فقط.

كما كنتُ، وسأكون على الدَّوام، طالبين منه وملحِّين عليه لا أن ينصفني فحسب بل وأن يفعل ذلك على وجه السُّرعة؛ وليس لديَّ أدنى شك، ممَّا يبلغ مسمعي من أخبار كثيرة، أنَّ السَّيِّد رافائلُّو من منطلقِ محبَّته المخلصة لسموكم سوف يطرح قضيَّتي للتَّصويت[1]. وذلك ما سوف أعزوه [عندئذٍ] إلى رسالة نيافتكم الموقَّرة التي أستودعها مرَّةً أخرى[2] نفسي. ودمتم بتمام الصحَّة[3].

فلورنسا XVIII 7bris 1507

E. V. R. D.

خادمكم المتواضع

الرَّسَّام ليوناردو دافنشي[4].

17. a) لقد كنت تتمنَّى كلَّ السُّوء لفرانتشسكو وتركته يتمتَّع بأملاكِك في حياتِك؛ في حين لم تتمنَّ لي السُّوء الكثير ...[5].

b) لمن كنتَ تتمنَّى الأفضل، لفرانتشِسكو أم لي؟ لنفسِك. إنَّه يريدُ أموالي من بعدي فلا أعود قادراً على التصرُّف بها وفق مشيئتي وهو يعلم أنَّني لا أستطيع إقصاء وريثي. يريد بعدئذٍ أن يطلبها من ورثتي، لا كأخٍ، وإنَّما كشخصٍ غريبٍ تماماً، وكشخصٍ غريبٍ تماماً سأستقبله وأستقبل طلبه. أأنت

---

(1) "للتَّصويت" ترد في الأصل باللاتينية Ad votum.

(2) "مرَّةً أخرى" ترد في الأصل باللاتينية iterum.

(3) في الأصل باللاتينية Et bene valeat، وتعني حرفيّاً: بصحَّةٍ جيِّدة.

(4) أيضاً في الأصل باللاتينية Leonardus Vincius pictor.

(5) الخطاب في هذه الرسالة بصيغة "أنتم" الرَّسميَّة، ولكن آثرتُ ترجمته بصيغة المخاطَب المفرَد.

من أعطى هذه الأموال لِليونـاردو؟ لا. أوه، أيُّ عـذرٍ، أكـانَ مختلَقـاً أم صـادقاً، سـيمكنكَ إعطـاؤه لجـرِّك إيَّـاه إلى هـذه المصيدة، إلَّم يكن لنهبِه ونهبِ مالِه؛ وأنـا [مـن جهـتي] لـن أبوح له بشيءٍ ما دامَ على قيد الحياة. أنت لا تريـد إذن سـدادَ الأموال المستدانةِ لصالحك إلى ورثته، بل تريد منـه أن يـوفي العائدات التي لديه من هذه الأملاك.

c) إه، لماذا لا تتركه يتمتَّع بها خلال حياته، بما أنَّها سترجع بعد ذلك إلى أبنائك؟ أيمكنه أن يعيش بعدُ سنواتٍ كـثيرة؟ إن كنتَ تعتقد مِن ثمَّ أنَّني قد أفعل ذلك، فسوف تتمنَّى لـو أنَّـني كنتُ الوريث، لأنَّه لن يكـون بمقـدوري كوريـث أن أطالبـكَ بالمال الذي حصلتُ عليه من فرانتشِسكو[1].

(1) بحسب لوقا بِلْترامـي Luca Beltrami (1854-1933) فـإنَّ هـذه الرِّسـالة (رقـم 6) والتي تليهـا (رقـم 7) موجَّهتـان إلى دومِنيكـو، الأخ غـير الـشقيق لليوناردو دافنشي، والمولود سنة 1484. أمَّا فرانتشِـسكو المـذكور في هـذه الرِّسالة فهو فرانتشِسكو دافنشي عمٌّ ليوناردو، وقـد نـشأ بعـد موتـه في عـام 1507 صراعٌ على الميراث بين دافنشي وإخوته، وأنـا أرى أنَّ الرِّسـالة رقـم (7) كان ينبغي أن تسبق الرِّسالة رقم (6) بالترتيب، ففي الأولى كان دافنـشي لا يزال يخاطب أخاه بصيغة المفرد، مـا يـدلُّ علـى أنَّ الأمـور لم تكـن قـد احتدمت بينهما بعد حين أرسل له هذه الرسـالة الـتي يخاطبـه فيهـا بالـصيغة الرَّسميَّة كما لو أنَّه يخاطب غريباً. في هذا السِّياق، وبالعودة إلى الرِّسالة رقـم (5) المبعوثة إلى هيبُّوليتو الأوَّل كاردينال إستي نجد أنَّ جذور ذلك الـصِّراع كانت بدأت منذ وفاة والد ليوناردو دافنشي (بـيرو دافنـشي) في عـام 1504 لتحتدمَ من ثمَّ بإثر موت العم، وليتنبه القارئ إذا ما أراد ربـط الأمـور إلى أنَّ هذه الرِّسالة مؤرَّخة بـ 1507 العام الذي توفِّي فيه فرانتشِسكو.

18. أخي الحبيب، أرسلُ لك هذه فقط لأحيطكَ علماً بأنّني تلقّيتُ منذ فترةٍ وجيزة رسالتكَ التي علمتُ منها أنّه أصبح لديك وريث، الأمر الذي، كما أستشفُّ، منحَكَ قدراً عظيماً من السّعادة: على ذلك، بقدرِ ما كنتُ أحسبُكَ متبصّراً بعواقب الأمور، فإنّني بتُّ مقتنعاً الآن أنّني كنتُ بعيداً عن امتلاك الحكم الصّائب بقدرِ ما كنتَ أنتَ بعيداً عنِ الحكمة؛ على اعتبار أنّك تهنّئ نفسَك على ابتداع هذا العدوِّ المتحفزِ، الذي سوف يبذل قُصارى جهده لنيل الحرّيّة، الأمر الذي لن يتحقّق إلا بموتِك.

19. أبي الغالي،

في آخر الشّهر الماضي استلمتُ رسالتك التي كتبتَها لي، والتي في حيّزٍ صغيرٍ منها منحَتني السُّرور والحزن معاً. السُّرور، لأنّي علمتُ من خلالها أنّك مُعافَى، وأحمد الله على ذلك؛ ومُلِئتُ حزناً إذ سمعتُ أنّك في ضيقٍ[1].

(1) الرسالة من ليوناردو إلى أبيه السّيّد بيرو (Ser Piero)، ونشير هنا إلى أنّ ليوناردو لم يكن قادراً على استخدام الاسم الأخير لأبيه لأنّ والديه لم يتزوّجا، أمّا الاسم الأخير لليوناردو وهو (دافنشي) فيعني بالإيطالية حرفيّاً (من مدينة فنشي)، وتلك دلالة على أنّه عمليّاً لم تكن له كنية. أمّا أخوة ليوناردو وهم أكثر من عشرة أخوة وأخوات غير أشقّاء فقد نشب بين ليوناردو وبينهم كما ذكرنا سابقاً صراعٌ كبيرٌ على الإرث بعد موت الأب، وقد عزّز هذا الصّراع موت العم الذي كان ليوناردو الأثير لديه وقد ترك له حقّ الانتفاع بأملاكه. من اللافت في هذه الرّسالة توجُّه ليوناردو إلى الله بالحمد خصوصاً وأنه لم يكن متديّناً، ولم يكن يتطرّق إلى الدِّين إلا قليلاً ودائماً باستهزاءٍ أو ازدراء، ولعلّ ذلك ليس بالأمر المستغرَب إذا ما أخذنا بالاعتبار مستوى الفساد الذي وصلت إليه الكنيسة في زمن ليوناردو.

20. a) (سيِّدي المبجَّل)[1]

(لشدَّ ما يبهجني، سيِّدي المبجَّل، أنَّكم ...)

لقد سُرِرتُ أشدَّ السُّرور، سيِّدي المبجَّل، أنَّكم استعدتم عافيتكم التي كنَّا نتوق إليها، حدَّ أنَّ ما نزل بي من سقمٍ وجدتُه يغادرني تقريباً لدى سماعي خبرَ شفائكم. ولكنَّني في غاية الضِّيق لعدم تمكّني من تلبية رغبات سموِّكم على أتمِّ وجه، بسبب خبثِ هذا المحتال، الذي لم أتخلَّف عن عملِ أيِّ شيءٍ في سبيل خدمته وعلى قدرِ ما استطعت؛ وفي المقام الأوَّل كانت حصَّته قد سُدِّدتْ له قبل الوقت المحدَّد، وأنا واثقٌ من أنه سينكرُ ذلك عن طيبِ خاطر فيما لو لم يكن ما هو مكتوبٌ لديَّ موقَّعاً بيدِ المترجم؛ وإذ لمستُ أنَّه لم يكن يعملُ لأجلي إلا عندما لا يكون هناك ما يقوم به لأجل الآخرين، ممَّن كان في غاية الحرص على استرضائهم، فقد

---

(1) مسوَّدات رسالة بعثها ليوناردو إلى جوليانو دي لورنزو دي ميديشي Giuliano di Lorenzo de' Medici (1479-1615) الذي كان راعياً وحامياً لليوناردو في ذلك الوقت، وهو من نبلاء إيطاليا عيَّنه ملك فرنسا دوقاً لِنمور سنة 1515 بواسطة من شقيقه جوفانِّي الذي صار في الوقت ذاته البابا باسم لاون العاشر. إثر وفاة والده حكم شقيقه الأكبر بييرو فلورنسا لفترةٍ قصيرة قبل أن يُطرَد لسلوكه الذليل حيال الغازي شارل الثامن ملك فرنسا. أرسِلَ جوليانو إثر تلك الأحداث إلى المنفى كباقي أفراد أسرته ولجأ أوّل الأمر إلى البندقيَّة، وبعد أن طردت الرابطة المقدَّسة الفرنسيين من إيطاليا عاد آل ميديشي إلى فلورنسا، حيث صار جوليانو حاكم المدينة بدلاً من أخيه الأكبر الثاني الكاردينال جوفانّي، ثمَّ بانتخاب هذا الأخير لكرسي البابويَّة في الحادي عشر من آذار/ مارس من عام 1513 وبفضل محسوبيَّة لاون تحصَّل جوليانو على اعترافات وتتويجات بلغت ذروتها بمنحه لقب دوق نِمور في سنة 1515 للخدمات الهامَّة التي قدَّمها لبلاط ملك فرنسا لويس الثاني عشر وإن لم يتوَّج رسميَّاً من قبل الملك لوفاته المبكرة.

دعوته لتناول الطَّعام معي، وليعملَ بعدئذٍ إلى جانبي، فبالإضافة إلى توفيرِ النَّفقات سوف يساعده ذلك على اكتساب اللغة الإيطاليَّة. كان دائماً (يعدُ بذلك، ولكنَّه أبداً لم يفعل). وقد فعلتُ ذلك أيضاً لأنَّ ذلك الألماني، جيوفانِّي، الذي يصنع المرايا، كان كلَّ يومٍ هناكَ في الورشة، وقد أراد رؤية ومعرفة كلِ ما كان يُصنَع هناك، ليتحدَّث به في أرجاء المعمورة متصيِّداً عيوب ... ما لَم يكن يفهمه. كذلك فعلتُ ذلك لأنَّه كان يتناول الطَّعام مع أولئك الرِّجال من حرسِ البابا، ليمضي برفقتهم بعد ذلك، ومعهم الجفوت[1] يقتلون بها الطُّيور[2] بين هذه الأطلال، ويتواصل الأمر هكذا مِن بعد الغداء حتَّى حلول المساء. فإن أنا أرسلتُ بلورنزو إليه لحثِّه على العمل كان يجيب بأنَّه لا يريد الكثير من المعلِّمين فوق رأسه، وأنَّه مشغولٌ بالعمل على خزانةِ ملابس سموِّكم؛ وقد مضى شهران والأمور تجري على هذا المنوال، إلى أن صادفتُ ذات يومٍ جان نيكولو القيِّم على خزانتكم وسألته عمَّا إذا كان الألماني قد أنهى العملَ لفخامتكم، فأخبرني أنَّ ذلك ليس صحيحاً، وأنَّه فقط أعطاه بندقيَّتين ليقوم بتنظيفهما. بعد ذلك عندما ألححتُ أنا عليه بالعمل غادر الورشة وبدأ يعمل في غرفته، مبدِّداً الكثير من الوقت في صنع ملزمةٍ أخرى وبعض المبارد والأدوات الأخرى ذات المسامير الدَّوَّارة، بينما كان يصنع هناك مغازل لجدل [خيوط] الحرير والذَّهب، والتي كان يخبِّؤها كلَّما دخل عليه أحدٌ من قِبَلي، مع ألف شتيمةٍ وتوبيخٍ حيث ما كان أحدٌ منهم ليرغب بالعودةِ مرَّةً أخرى إلى هناك.

---

(1) جمع جفت، ضرب قديم من البنادق.

(2) لعلَّ في استخدام ليوناردو لفعل القتل بدلاً من الصَّيد ما يُلمِح إلى أنَّه يعتبر الأمر جريمة أكثر مما هو مجرَّد تسلية، وفي ذلك على حدِّ رؤيتي موقفٌ مبكرٌ يعكس النظرة الإنسانية إلى الحياة البريَّة.

b) لقد سُرِرتُ أشدَّ السُّرور، سيِّدي المبجَّل، أنّكم استعدتم عافيتكم التي كنّا نتوق إليها، إلى حدٍّ أنَّ مرضي غادرني تقريباً. ولكنَّني في غاية الضِّيق لعدم تمكّني من تلبية رغبات سموِّكم على أتمِّ وجه، بسببِ خبث هذا الألماني المحتال، الذي لم أتخلَّف عن عمل أيِّ شيءٍ أملاً في إرضائه. فبادئ ذي بدء دعوته للإقامة والمبيت عندي، بحيث يتسنَّى لي أن أرى باستمرارِ العمل الذي ينجزه، وأصوِّب بيُسرٍ أخطاءه، إلى جانب تعلُّمه اللغة الإيطاليَّة التي بها سيكون قادراً على التحدُّث بسهولةٍ دون الحاجة إلى مترجم. والأهمُّ من ذلك أنَّ أمواله كان يستوفيها دائماً قبل الوقتِ المحدَّد. فيما بعد طلبَ الحصول على النَّماذج المنجَزة من الخشب، كقوالب تمهيديَّة نحو تكوينها من الحديد، لكي يحملها معه إلى بلدِه؛ الأمر الذي رفضتُ تحقيقه له، قائلاً له أنَّني سأعطيه، رَسماً، العرض والطُّول والارتفاع وتصويراً لما ينبغي عليه فعله؛ وهكذا بقينا على خلافٍ.

c) الأمر الثاني هو أنَّه في الغرفةِ التي كان ينام فيها صنع لنفسِه ورشةً أخرى، [مجهَّزةً] بمَلازم[1] وأدواتٍ جديدة، وراحَ يعمل هناك لزبائن آخرِين. ثمَّ كان يذهب ليتناول الطَّعام مع الحرَّاس السويسريِّين، حيث يجد له صحبةً من الخاملين، ولكنَّه يفوقهم جميعاً في ذلك. وأغلب الأحيان كان يخرج اثنان أو ثلاثة منهم معاً حاملين الجفوت ليقتلوا بها الطُّيور بين الأطلال، وكان ذلك [اللهو] يستمرُّ حتَّى المساء.

---

(1) جمع ملزمة، أداة تثبيت وشدّ مصنوعة من المعدن أو الخشب تتكوّن من فكّين يُقفلان أو يفتحان ، تستخدم في النِّجارة أو صناعة الأدوات المعدنيَّة.

d) في النِّهاية اكتشفتُ كيف أنَّ المعلِّم جيوفانِّي، صانع المرايا هذا، هو مَن تسبَّب بكلِّ ذلك، ولسببين. أوَّلاً لأنَّه قال بأنَّ مجيئي إلى هنا قد حرمه من طلعةِ وفضلِ سموِّكم الذي طالما ...، والسَّبب الآخر هو قوله بأنَّ غرفة صانع الحديد هذه ستكون ملائمة له لصنع المرايا، عارضاً الدَّليل على ذلك؛ وعليه فبالإضافةِ إلى جعلِه عدوّاً لي، جعلَه يبيع كلَّ ما لديه تاركاً ورشته له، حيث يصنع الآن مع عددٍ كبيرٍ من العمَّال الكثير من المرايا ليرسلها إلى المعارض.

e) لقد سُرِرتُ أشدَّ السُّرور، سيِّدي المبجَّل، أنَّكم استعدتم عافيتكم التي كنَّا نتوق إليها، إلى حدِّ أنَّ مرضي غادرني تقريباً؛ وأقول حمداً لله على ذلك. ولكنَّني في غاية الضِّيق لعدم تمكُّني من تلبية رغباتِ سموِّكم على أتمِّ وجه، بسبب خبث ذلك المحتال الألماني، الذي لم أتخلَّف عن عمل أيِّ شيءٍ أملاً في إرضائه؛ ثمَّ إنَّني دعوته للإقامة والمبيت معي، بحيث أرى باستمرارِ العمل الذي ينجزه، ولذلك الغرض كنت سأقوم بتثبيت منضدة عند قاعدة إحدى هذه النَّوافذ، حيث سيكون بمقدوره العملَ بالمبارد وإنهاء الأشياء المصنوعة في الأسفل؛ وبذلك كنتُ سأرى باستمرار العمل الذي ينجزه، وأتمكَّن من تصويبه على نحوٍ أيسر[1].

---

(1) يشير ريختر إلى أنَّ محتويات هذه الرِّسالة، رقم (9)، لا تدع مجالاً للشَّك بأنَّ ليوناردو كان حينذاك مقيماً في روما بين عامي 1513-1515م.

21. أعرفُ واحداً من النَّاس، لمَّا كان وعد نفسَه بأن يحظى منِّي بأشياء لا يستحقُّها على الإطلاق، فخذلَتْه رغائبه الوقحة، حاول أن يؤلِّب عليَّ جميعَ أصدقائي[1]؛ فلمَّا وجدهم حكماء وعصيِّين على مآربه، هدَّدني بأنَّه لن يعدم الوسيلةَ ليجرِّدني من أولياء نعمتي؛ ومن هنا فقد أخطرتُ سموكّم بذلك، لكيلا (يجد هذا الرَّجل، حين يرغب بنشر بذارِ شائعاته، تربةً صالحةً لاستقبال أفكار وفِعال طبيعته الخبيثة).

([وبالتَّالي إذا ما] حاول أن يجعل من سموكّم أداةً لطبائعه الآثمة والخبيثة، عاد خائب الآمال)[2].

22. a) أردتُ استبقاءه لتناول الطَّعام معي، حيث ...

b) كان يذهب ليتناول الطَّعام مع الحرَّاس، حيث، علاوةً على تبديد ساعتين أو ثلاث على المائدة، كان مراراً وتكراراً ما يبدِّد بقيَّة النَّهار بالخروج بالجفتِ لقتل الطُّيور بين هذه الأطلال.

فإذا دخل عليه الورشةَ بعضُ خدمي، استقبلهم بالشَّتائم، فإن وبَّخه أحدهم، قال إنَّه يعمل على خزانة الملابس، بينا هو ينظِّف الدُّروع والبنادق.

أمَّا بشأن المال، فتراه على الفور ومن مطلعِ الشَّهر توّاقاً إلى استيفائه.

ولكي لا يضايقه أحد ترك الورشة، وأعدَّ لنفسه واحدةً أخرى في غرفته، وراح يعمل لزبائن آخرين، فكان عليَّ في النِّهاية أن أقول له ...

---

(1) حرفيَّاً: حاول أن يحرمني من جميع أصدقائي.

(2) أسفل هذه الفقرة نقرأ على المخطوطة الأصليَّة اسمٍ جوستينو Giustino مكتوباً بالشكل التالي gusstino، لكن من غير المؤكَّد من هو المقصود بهذا الاسم، ويعتقد بعض الدارسين أنَّ الشَّخص السَّيئ المقصود بهذه الفقرة هو نفسه الألماني جيوفانِّي صانع المرايا.

لمَّا كنتُ لا أراه إلا قليلاً في الورشة، وأرى أنَّه يبدِّد قدراً كبيراً من الوقت، فقد أرسلتُ إليه أنَّني أودُّ، إذا ما راق له الأمر، أن أعقد معه صفقةً في أيِّ شيءٍ يقوم بصنعه، وبكلِّ احترام، وأن أعطيه المبلغ الذي نتَّفق عليه؛ فتشاور مع جاره وترك غرفته، بائعاً كلَّ ما لديه، وجاء يبحث عن ...

هذا الآخَر منعني من التَّشريح، ذامَّاً إيَّاي عند البابا، وكذلك الأمر في المشفى؛ وقد ملأ كلَّ هذا المشهد الرَّائع بورشاتٍ لصنع المرايا وحرفيِّين، وكذلك فعل بغرفة المعلِّم جورجيو.

c) لم يكن يصنع شيئاً قبل أن يناقشه كلَّ يومٍ مع جيوفانِّي، فكان هذا ينشر الخبر ويفشيه في كلِّ مكان، مصرِّحاً أنَّه هو سيِّد ذلك الفنِّ، وعندما كان الأمر يتعلَّق بجزءٍ لم يفهمه كان يعلنُ أنَّني لم أكن أعرف ما الذي أريد فعله، محوِّلاً اللوم عن جهله ليلقيه عليَّ.

d) لا أستطيع أن أصنع أيَّ شيءٍ بالسِّرِّ بسببه، فهو دائماً خلف كتفيِّ المرء، ذلك أنَّ الغرفة [هنا] تفضي إلى الأخرى.

e) لكن كلَّ غايته كانت أن يستولي على كلا هاتين الغرفتين لأجل أن يعملَ على المرايا.

وإن أنا وضعته هناك ليصنع نماذجي الخشبيَّة للأقواس، فإنَّه سيعمِّمها [في كلِّ مكان]، إلخ.

f) قال إنَّه وُعِد بثماني دوقياتٍ في الشَّهر، تبدأ من أوَّل يومٍ غادر فيه، أو على أبعد تقدير، من يوم تحدَّث إليكم، وإنَّكم وافقتم على ذلك، و ...[1].

---

(1) لا شكَّ أنَّ هذه الفقرات التي بقيت لنا من مسوَّدة هذه الرِّسالة، رقم (11)، ليست سوى استمراراً للفقرات الباقية من مسوَّدة الرِّسالة رقم (9) التي كتبها ليوناردو إلى جوليانو دي لورنزو دي ميديشي أثناء إقامته في روما.

23. تأكَّد لي أنَّه يحصل على عمولة من زبائن آخرين، وأنَّ لديه ورشةً لعامَّة النَّاس؛ لذلك السَّبب لا أريد أن يعمل عندي بأجرٍ ثابت، بل ينبغي أن يُدفَع له على الأعمال التي ينجزها لي؛ ولأنَّ لديه ورشةً ومنزلاً من لدُن المقام المبجَّل، فعليه أن يكون مُجبَراً على إرسال أعمال المقام المبجَّل قبل أيِّ عملٍ آخر[1].

24. كلُّ الشُّرور الموجودة والتي وُجِدتْ لن تكون كافيةً، إذا ما قام بها هذا الإنسان، لإرضاء الرغبة التي تعتمل في روحه الخبيثة. لا أستطيع، مهما طال الوقت، أن أصف لكم طبائع هذا الرَّجل، ولكنِّي مقتنعٌ تماماً أنَّ ...[2].

25. a) حضرة المدير الموقَّر، إذ تخطر في أكثر الأحيان ببالي المشاريعُ التي عرضها معاليكم عليَّ، فقد أعطيت لنفسي حريَّة الكتابة [إليكم] لأذكِّركم بالوعد الذي قُطِع لي عند مغادرتي الأخيرة، ألا وهو الحصول على الاثني عشر إنشاً من الماء المهداة إليَّ مِن ملك المسيحيَّة[3]. معاليكم يعلم أنَّني لم أحصل عليها بعد، لأنَّه في الوقت الذي أُهديتُها كان

---

(1) شأن هذه الفقرة، أعتقد، كشأن فقرات الرِّسالة السابقة، ولعلَّ ما يعزِّز هذا الاعتقاد هو أنَّ الدَّارسين خلصوا إلى أنَّها مكتوبة أثناء فترة إقامة ليوناردو في روما.

(2) لم أقع من بين المراجع التي لديَّ على أيِّ تفسيرٍ لهذه الفقرة سوى أنَّها فقرة من مسوَّدة رسالة كتبها ليوناردو أثناء إقامته في روما، مع أنَّني لا أستبعد شخصيَّاً أن يكون الرَّجل المقصود هنا هو جيوفانِّي صانع المرايا نفسه.

(3) لقب تعظيم حمله ملوك فرنسا، وترجع أصول اللقب إلى فترة طويلة ومميزة من العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية والفرنجة، اذ كانت فرنسا أوَّل دولة حديثة تعترف بها الكنيسة، وقد أطلقت عليها لقب "الابنة الكبرى للكنيسة"؛ آنذاك تمَّ الاعتراف بكلوفيس الأول ملك الفرنجة، من قبل البابوية باعتباره حامي مصالح روما، ووفقاً لذلك، تم منح هذا اللقب في كثير من الأحيان إلى ملوك فرنسا، ومنذ عهد شارل السادس أصبح اللقب متوراثاً وحصريّاً لملوك فرنسا.

ثمَّة شحٌّ في الماء داخل القناة، من جهةٍ بسبب القحط الهائل، ومن جهة أخرى لأنَّ منافذ التَّصريف لم تكن قد ضُبِطتْ بعد، ولكنِّي وُعِدتُ مِن قِبل معاليكم أنَّه حالما يتمُّ إنجازُ ذلك فسأنال حقِّي. بعد ذلك، عندما سمعتُ أنَّ القناة قد اكتملت، كتبتُ عدَّة مرَّاتٍ إلى معاليكم وإلى السَّيِّد **جيرولامو دا كوزانو**، الذي يمتلك في حوزته صكَّ هذه الهديَّة، وكذلك كتبتُ إلى **كوريجيرو**، ولم أتلقَّ أيَّ ردٍّ. فالآن أبعث إليك **سالاي**، تلميذي، حاملَ هذه [الرِّسالة]، ليكون بمقدور معاليكم إخباره شفويّاً بجميع ما طرأ في هذه القضيَّة التي أقدِّم بشأنها التماساً إلى معاليكم. أتوقَّع أن آتي إلى هناك في عيد الفصحِ هذا، لا سيَّما وأنَّ دعواي القضائيَّة في نهاياتها، وسوف أحمل معي لوحتَين لسيِّدتنا العذراء كنت بدأتُ العمل عليهما منذ زمنٍ، وقد تمكَّنت في الوقت الحاضر من إنهائهما على أحسن وجه؛ لا شيء آخر يجري معي.

b) حضرة المدير الموقَّر، أبعث **سالاي**، تلميذي، إليكم حاملاً هذه [الرِّسالة]، ومنه ستعرفون شفويّاً عن سبب ...

c) حضرة المدير الموقَّر، إنَّني ...[1].

---

(1) هذه الفقرات المنضوية تحت الرَّقم (14) هي مسوَّدات لرسالة كتبها ليوناردو آنذاك إلى مدير مشروع القنوات، (لا تفصِح المراجع التي بين يديَّ عن اسمه)، أمَّا سالاي، أو أندريا سالاي، فهو الاسم الذي اشتهر به تلميذ ليوناردو "جان جاكومو كابروتِّي دا أورِنو" Gian Giacomo Caprotti da Oreno (1480-1524)، وقد كان تلميذاً له من عام 1490 إلى عام 1518، وفي نفس الوقت من أكثر المقرَّبين إليه، ومن المفترض أنَّه الموديل الذي وضعه ليوناردو أمامه ليرسم لوحتيه "يوحنا المعمدان" و"باخوس"؛ وكلمة سالاي تعني "الشَّيطان الصَّغير".

26. سيِّدي المبجَّل، الحبُّ الذي أظهره معاليكم على الدَّوام لي، والنِّعَم التي أتلقَّاها باستمرارٍ منكم جعلتني قبل كلِّ شيءٍ ...

أخشى أن يكون الشَّيء الضَّئيل الذي قدَّمتُه لقاءَ النِّعم الكبيرة التي تلقَّيتُها من معاليكم قد ضايقكم منِّي؛ ذلك أنَّني مقابل الرَّسائل الكثيرة التي كتبتُها إلى معاليكم لم أتلقَّ ردًّا واحداً. فالآن أبعث إليكم **سالاي** ليبيِّن لمعاليكم أنَّ صراعي مع أخوتي قد شارف على نهايته، وأنَّني آملُ أن أكون معكم في عيد الفصحِ هذا، حاملاً معي لوحتَين، عليهما صورتان لسيِّدتنا العذراء بمقاسَين مختلفَين، كنت بدأتهما لأجل ملِك المسيحيَّة أو لأيِّ شخصٍ يروق لكم اختيارُه. سيكون من دواعي سروري أن أعرف أين سأقيم لدى عودتي من هنا، فأنا لا أرغب في إحداث المزيد من المتاعب لمعاليكم؛ و [أن أعرف] كذلك، كوني عملتُ لملِك المسيحيَّة، أسيستمرُّ معاشي أم لا. إنَّني أكتب إلى المدير بخصوص المياه التي أهداها إليَّ الملِك ولم أحصل عليها نظراً للشحِّ في القناة، النَّاجمِ عن القحط الهائل وعن كونِ منافذ التَّصريف لم تكن قد ضُبِطتْ بعد؛ ولكنَّه وعدني أنِّي سأحصل عليها حالما ينتهي العملُ على ذلك؛ ولذلك فإنَّني أرجوكم، في حال قُيِّضَ لكم لقاءٌ بهذا المدير، أن تتكرَّموا، وقد ضُبِطتْ الآن منافذ التَّصريف، بتذكير المدير المذكور بنقل ملكيَّة تلك المياه إليَّ، ذلك أنَّ الأمر، على حدِّ علمي، يقفُ في أغلبه عليه. لا شيء آخر يجري معي. أنا دائماً رهن أوامركم[1].

(1) موضوع هذه المسوَّدة، كما هو واضح، يتَّصل بموضوع مسوَّدات الرِّسالة السَّابقة، ويشير ريختر إلى أنَّ المرسَل إليه هو "أنتونيو ماريَّا"، وهو يقصد غالباً "أنتونيو ماريَّا غريماني" Antonio Maria Grimani بطريرك أكويليا آنذاك.

27. طاب يومُكم، سيِّد فرانتشِسكو[1]، لماذا، بحقِّ الله، لم أتلقَّ ردًّا واحداً على جميع الرِّسائل التي كتبتها إليك؟ إذن انتظرْ إلى أن آتي إليك، فبحقِّ الله لأجعلنَّك تكتبُ وتكتبُ حتَّى ينال منك الإعياء كلَّ منال.

عزيزي السَّيِّد فرانتشسكو، أبعث صوبَكم **سالاي** ليفهمَ من معالي المدير الموقَّر إلى أين وصلتْ قضيَّةُ تنظيم المياه، ذلك أنَّه عند مغادرتي كان قد اتُّفِق على ضبطِ منافذ التَّصريف، ومعالي المدير الموقَّر كان وعدني أنَّ قضيَّتي ستُسوَّى حالما يتمُّ إنجاز ذلك. لقد مرَّ وقتٌ طويلٌ مُذ سمعتُ أنَّه تمَّ تنظيم القناة، وكذلك منافذ التَّصريف، وحينذاك كتبت في الحال إلى المدير وإليكم، ثمَّ كرَّرت ذلك، وأبداً لم أحصل على جواب. هلَّا تعطَّفتُم إذن بالرَّدِّ عليَّ لتخبروني عمَّا حصل، وبحقِّ محبَّتي، لا استعجالاً للأمر، هلَّا أخذتم على عاتقكم حثَّ المدير قليلاً،

---

(1) المقصود هو فرانتشِسكو مِلتْسي Francesco Melzi المولود عام 1493م، بدأ بتعلُّم الرَّسم على يد دافنشي كهاوٍ لا كتلميذ اعتباراً من سنة 1506م، وقد رافق ليوناردو في رحلته إلى روما سنة 1513م، ثمَّ في رحلته إلى فرنسا سنة 1517م. بعض الأعمال التي نُسِبتْ إلى ليوناردو خلال القرن التاسع عشر تُنسَب اليوم إلى مِلتْسي. بعد موت ليوناردو دافنشي ورث مِلتْسي جميع أعماله الفنيَّة والعلميَّة، وجميع مخطوطاته ومقتنياته، حيث أدار تلك الممتلكات بكلِّ أمانةٍ وإخلاص. كتبَ مِلتْسي إلى أخوة ليوناردو يُعلِمُهم بموته، وفي تلك الرِّسالة يصف حُب ليوناردو لتلاميذه بأنَّه "حبٌّ غيريٌّ ومتَّقد". في مسوَّدة الرِّسالة هذه يخاطب ليوناردو صديقه اليافع بلقب "سيِّد" وبصيغة الجمع لكونه ابناً لإحدى العائلات النبيلة في مدينة ميلانو.

وكذلك السيِّد جيرولامو دا كوزانو، موصياً إيَّاه بي خيراً، ومقدِّماً احتراماتي لمعاليه؟[1]

28. a) بياتْشِنسا نقطةُ وصلٍ[2]، كما فلورنسا.

b) المبجَّلون أعضاء مجلس الكنيسة[3]، إذ سمعتُ أنَّ فخاماتكم قد أزمعتم على صنعِ بعض الأعمال العظيمة من البرونز، فإنَّني أودُّ تقديم بعض النَّصائح لكم[4]، أوَّلاً أن تحرصوا على ألَّا تكونوا مسرعين جداً أو متسرِّعين جداً في منح التَّفويض، لئلَّا تفلتَ من أيديكم، جرَّاء تسرُّعِكم هذا، إمكانيَّة انتقاء موضوعٍ لائق وفنَّانٍ خليق، فيقع اختياركم على رجلٍ ليس جديراً بذلك، والذي لعدم جدارته قد يحمل

(1) من الواضح أنَّ موضوع هذه المسوَّدة يتَّصل بموضوع مسوَّدات الرِّسالتين السَّابقتين، وبما أنَّ ريختر يشير إلى أنَّ عمر فرانتشِسكو ملِتْسي كان سبعة عشر عاماً عندما كتب إليه ليوناردو هذه الرِّسالة، فهذا يعني أنَّ تلك القضيَّة حصلت في عام 1510م.

(2) حرفيَّاً: "بياتشِنسا أرضُ عبورٍ"، وبياتشِنسا Piacenza مدينة شمال إيطاليا في إقليم إميليا رومانيا، وعاصمة لمقاطعة بياتشِنسا. تُعتبَر صلة الوصل بين منطقة إميليا التاريخية وإقليم لومبارديا، حيث لطالما حدَّد الموقعِ الجغرافي المصيرَ الاستراتيجيَّ- العسكريَّ للمدينة وجعلها وصلة هامَّة سواءً للطرق السَّريعة وللسِّكك الحديديَّة، وقد سمَّاها المؤرِّخ بروكوبيوس في القرن السَّادس "أميرة المدن على طريق إميليا".

(3) المقصود هنا تحديداً المستشارون في الهيئة الكنسيَّة التي تهتم بإدارة أوقاف الكنيسة وممتلكاتها. تشير المراجع إلى أنَّ تاريخ هذه المسوَّدة يعود إلى عام 1509م.

(4) حرفيَّاً: "فإنني أنبِّهكم إلى بعض الأمور".

ذريَّاتكم على هجائكم وهجاءِ جيلِكم، حاكمين على هذا العصر بأنَّه كان فقيراً بالرِّجال السَّديدي الرَّأي، مثلما بأساطين الفنِّ، لا سيَّما عندما يرون أنَّ المدن الأخرى، وعلى الأخصِّ مدينة الفلورنسيِّين، كانت في الحقبةِ نفسِها تقريباً غنيَّةً بأعمالٍ برونزيَّةٍ بديعةٍ وعظيمة، من بينها بوَّابات بيوت المعموديَّة فيها؛ وفلورنسا في الحقيقة هي، مثل بياتْشِنسا، نقطةُ وصلٍ، عبرَها يمرُّ الكثير من الأجانب، وهؤلاء إذ يرون أنَّ الأعمال [الفنِّيَّةَ هناك] بديعةٌ ومتقَنة، يكوِّنون انطباعاً بأنَّ تلك المدينة مليئة بساكنين أكفَاء، وتلك الأعمال هي شواهد على رأيهم هذا؛ لكنَّهم من ناحيةٍ أخرى سيكوِّنون انطباعاً مختلفاً كلِّيّاً إذا رأوا أنَّ المعدن قد أُنفِقَ بإفراطٍ وأنجزتْ منه أعمالٌ رديئة، ولَكَان أقلَّ مدعاةً لشعورِ المدينةِ بالخزي لو أنَّ تلك البوَّابات كانت من خشبٍ بسيط، ذلك أنَّ المادَّة القليلةَ الكُلفة لا تستحقُّ كما يبدو درجةً كبيرةً من المهارة، حيث ...

c) [في هذا الزَّمن] الأجزاء الرَّئيسة التي تنشدُها العينُ من المدن هي كاتدرائيَّاتها، وأوَّل شيءٍ يقع من تلك الكاتدرائيَّات على العين هو بوَّاباتها، هذه التي عبرها يمرُّ المرء إلى تلك الكنائس.

d) حذارِ، أيُّها السَّادة أعضاء الهيئة، من الاستعجال المفرط في مَرامِكم، ومن التسرُّع في منح تفويضِ عملٍ جليلٍ كهذا الذي أسمع أنَّكم أمِرتم به، لئلَّا يتحوَّل ما كان المُراد منه تكريم الله والإنسان إلى شَينٍ لأحكامكم ولمدينتكم، هذه التي لكونِها أرضُ امتيازٍ وعبور، هي ملتقى أعدادٍ لا تُحصَى من الغرباء. إنَّ ذلك الشَّين سيلحق بكم إذا ما وضعتم

باستهتارٍ ثقتكم في أحد المتغطرسين الذي بذرائعه الباطلة أو بالاستحسان الممنوح له هنا قد يحظى منكم بمثل هذا العمل، فينجم عن ذلك عارٌ كبيرٌ ومديدٌ يلحق بكم وبه؛ ومن هنا لا يسعني إلَّا أن أغضب عندما أتأمَّل في طينةِ أولئك الرِّجال الذين أسرُّوا لي برغبتهم بالخوضِ في مثل هذا العمل دون التفكير بمدى كفاءتهم، ولن أقول أكثر: فهذا خزَّافٌ، وهذا صانع زَرَدٍ، وهناك صانع أجراسٍ، والآخر قارع أجراسٍ، بل وهناك حتَّى قاذفُ قنابل؛ ومن بينهم رجلٌ من حاشيةِ معاليه، كان تفاخرَ بأنَّه من المقرَّبين إلى السيِّد **أمبروجو فِرِّيره**[1] الذي في يده بعض التَّفويضات، وكان قد قدَّم له بعض الوعود، وإن لم يكفِ ذلك فإنَّه سوف يمتطي صهوة حصانه، ويذهب إلى معاليه ليحصل منه على رسائل لن تستطيعوا بمقتضاها أن ترفضوا منح ذلك العمل إليه. فانظروا إلى أيِّ درك سينحطُّ شأن أساطين الفنِّ الأصيلي الموهبة عندما يضطرُّون للتنافس مع رجالٍ كهؤلاء! أيُّ أملٍ يبقى لهم وهم ينتظرون مكافأةً على موهبتهم! افتحوا أعينكم، وتبصَّروا جيِّداً ألَّا تُنفَقَ أموالُكم لشراء خزيكم. أستطيع أن أؤكِّد لكم أنَّكم من هذا المكان لن تحصلوا إلَّا على أعمالٍ [دون المستوى] لفنَّانين مبتذلين وخُرق. ما مِن رجلٍ جديرٍ، وصدِّقوني، إلَّا **ليوناردو الفلورنتيني** الذي يصنع التمثال البرونزيَّ للدُّوق فرانتشِسكو ممتطياً الحصان،

---

(1) Messer Ambrosio Ferrere شخصيَّة غير معروفة جيِّداً، يُعرَف عن صاحبها أنه مُنِح بعض السلطات من قبل لودفيك الموراي، حيث كانت بياتْشِنسا في ذلك الوقت تابعة لميلانو.

ولا داعي لأن تأخذوه بالحسبان، ذلك أنَّ بين يديه عملاً سيستغرق منه حياته كلَّها؛ وأشكُّ، لكونِه عملاً في غاية العظمة، في أنَّه سوف ينهيه أصلاً.

e) المثابرون البؤساء ... بأيِّ أملٍ سينتظرون جزاء جدارتهم!

f) ثمَّة رجلٌ دعاه معاليه من فلورنسا لينجزَ هذا العمل له، وهو فنَّانٌ جديرٌ بهذا الاستحقاق، لكن مع كلِّ الأعمال التي بين يديه لن يكون قادراً على إنهائه.

g) يمكنكم أن تتخيَّلوا الفرق بين أن يرى المرءُ شيئاً جميلاً، وآخر قبيحاً. أقتبس من بلينيوس.

29. a) أصحاب المقام الرَّفيع، الآباءُ المفوَّضون، بالنِّسبة إلى الأطِّباء، كأوصياء على المرضى وحرَّاسٍ لهم، من الضَّروري أن يفهموا ماهيَّة الإنسان، ماهيَّة الحياة، ماهيَّة العافية، وبأيَّة طريقةٍ يحفظُ تعادلُ وتناغمُ العناصرِ تلك العافية، وعلى المنوالِ نفسه كيف يؤدِّي تنافر العناصر إلى تقويضها وتدميرها؛ وأيُّما شخصٍ اكتسبَ معرفةً جيِّدة بهذه الأمور كان أقدر على الشِّفاء ممَّن افتقر إليها ...

b) أنتم تعلمون أنَّ الأدوية، حين تُستخدَم بشكلٍ صحيح، تعيد الصحَّةَ للمرضى؛ ويكون استخدامُ الدَّواء صحيحاً عندما يفهم الطَّبيب بالإضافة إلى طبيعةِ الدَّواء ماهيَّةَ الإنسان، ماهيَّةَ الحياة، وماهيَّةَ التَّركيب الجسمانيِّ وكذلك ماهيَّة العافية. اعرفوا هذه الأمور جيِّداً، تعرفوا أضدادَها؛ وعندما يحصل ذلك تعرفون جيِّداً كيف تداوون.

c) أنتم تعلمون أنَّ الأدوية، حين تُستخدَم بشكلٍ صائب، تعيد الصحَّةَ للمرضى؛ ومَن يعرف الأدوية جيِّداً، سيعرفُ كيف يستخدمها على الوجه السَّليم، [خصوصاً] عندما يعرف إلى جانبِ ذلك ماهيَّة الإنسان، وماهيَّةَ الحياة والتَّركيب الجسمانيِّ، وماهيَّةَ العافية؛ وإذ يعرف هذه الأمور جيِّداً، فإنَّه سيعرف أضدادَها؛ والحالُ هذه، سيكون هو الأقدر من أيٍّ شخصٍ آخر على وضع العلاج. الأمرُ نفسُه تحتاج إليه كاتدرائيَّةٌ عليلة، تحتاج إلى طبيبٍ معماريٍّ يعرف جيِّداً ماهيَّةَ البناء، و[يعرف] من أيَّةِ قواعد يستمدُّ ذلك البناء هيكلَه، ومن أين اشتُقَّت تلك القواعد، وإلى كم جزءٍ من الأجزاء تنقسم، وما هي الأسبابُ التي تجعل من ذلك الهيكل وحدةً واحدة، وتجعله مستداماً، وما هي طبيعة الثِّقل، وما هي رغبةُ القوَّة، وكيف ينبغي لهما أن يندمجا ويلتحما معاً، وما الذي ينشأ عنهما إذا اتَّحدا. أيُّما رجلٍ امتلك معرفةً حقَّة بالأشياء المذكورة أعلاه، سوف يرضيكم علمُه وعملُه.

d) إذن، لهذا السَّبب، سأحاول دون تحقيرِ أحد، أو التَّشهير بأحد، أن أقنعكم مرَّةً بالحجج ومرَّةً بالأفعال، طَوراً باستقراء النتائج من الأسباب، وطوراً بإثبات الأفكار عبر التَّجربة، مُساوقاً مع ذلك بعض مبادئ العمارة القديمة، وشواهد من الأبنية القائمة عليها، و [مستعرضاً] ماهيَّة الأسباب التي أدَّت إلى دمارها أو إلى بقائها.

e) ولسوفَ أبيِّن لكم في الوقتِ نفسه [المبدأ] الأوَّل للثِّقل، وما هي الأسباب التي تؤدِّي إلى تقويض الأبنية وما مقدارها، وما هو شرطُ ثباتها ودوامها.

f) لكن لكيلا أكون مُطنباً على معاليكم، سوف أتحدَّث أوَّلاً عن الإبداع الأوَّل لأوَّل معماريِّي الكاتدرائيَّات، وسأبيِّن لكم بوضوحٍ ماذا كانت غايته، مبرهناً على ذلك من خلال البناء الذي بُدئ فيه؛ وعندما أجعلكم تفهمون ذلك، ستكونون قادرين على أن تدركوا بجلاءٍ كيف أنَّ النموذج الذي شيَّدتُه يمتلك في ذاته ذلك التناسُق، ذلك التناغم، وذلك الانتظام الموجود في البناء الذي بُدئ فيه.

g) ما هو المبنى، ومن أين نشأت القواعد التي استمدَّ منها ذلك البناء هيكله، وما هي الأجزاء التي تنتمي إليه وما عددها ...

h) إمَّا أنا، وإمَّا [فليأتِ] أحدٌ آخر قادرٌ على تفسير الأمر بأفضل ممَّا فعلت، [فإذَّاك] اختاروه، ودعوا عنكم جانباً كلَّ تحيُّز.

30. بما أنَّ العمل على الرُّخام سوف يستغرق عشر سنوات، فإنني لا أرغب بالانتظار إلى حين إنهاء عملي لكي أحصل على الأجر[1].

***

(1) يرى ريختر أنَّ ليوناردو ربَّما يتحدَّث عن القاعدة الرُّخاميَّة لتمثال الفارس ممتطياً حصانه، لكن لا أدلَّة مؤكَّدة على ذلك.

متفرّقاتٌ ونُسوخ

1. آه أيُّها الإغريق، لا أحسبُ أنَّ أعمالي وجِدتْ لتُروى، فلقد رأيتموها رأيَ العين. أوديسيوس[1] قال إنَّ فِعالَه وقعتْ من غير شهود، وأنَّ الليل الدَّامس وحده يعرفها[2].

2. آه أيُّها الوقت، يا مُتلِفَ الأشياء جميعاً؛ آه أيَّها الدَّهر الحسود؛ أَنتَ الذي تُفني الأشياءَ جميعاً وتلتهم الأشياء جَميعاً بأسنان العُمر الصَّارمة، شيئاً فشيئاً بوتيرةِ الموت البطيء. هيلين[3]، إذ رأتْ وهي تتمرأى التَّجاعيد الذَّاوية التي صنعها العمرُ على وجهها، بكتْ وتساءلتْ في قرارة نفسِها لماذا قدِّرَ عليها أن تُجرَف بعيداً مرَّتين.

---

(1) أوديسيوس عند الإغريق هو أوليس عند الرومان، وهو ملك إيثاكا الأسطوري، وصاحب فكرة حصان طروادة. بعد انتصاره بالحرب فقد أوديسيوس صديقاً عزيزاً فأخذ يلعن الآلهة فغضب منه إله البحر بوسيدون فعاقبه بأن تاه في البحر عشر سنين لاقى فيها أهوالاً كثيرة. ذكرت قصته في ملحمة الإلياذة لهوميروس كما أنه بطل ملحمة الأوديسة لهوميروس أيضاً.

(2) كتب ليوناردو هذه الكلمات عندما كان في الرابعة والعشرين من عمره، خلال فترة اعتقاله بتهمة المثليَّة.

(3) هي في إلياذة هوميروس أجمل نساء الأرض قاطبةً، خطب ودَّها جميع ملوك الإغريق وتسابقوا للفوز بقلبها إلى أن اختارت منيلاوس زوجاً لها، ولكنَّها وقعت في غرام باريس، بسبب سحر فينوس إلهة الجمال، عندما كان في ضيافة زوجها واختارت الفرار معه إلى طروادة متسببةً باندلاع حربٍ دامت عشر سنوات انتهت بسقوط طروادة ومقتل ملكها بريام.

3. أرجوك ألَّا تنظر إليَّ بازدراء، فأنا لستُ فقيراً؛ الفقير هو ذلك الذي يرغب بالكثير.

أين عسايَ أجد لنفسي مكاناً؟ حين تعرفُ أين، بعد وقتٍ قليلٍ من الآن، أجبْ نفسَك عن ذلك! بعد قليلٍ من الآن فصاعداً.

4. سوءاً تفعل إذ تمتدح، والأسوأ من ذلك

أن تذمَّ في شيءٍ لستَ عارفاً به حقَّ المعرفة[1].

5. حين يُقبل عليك الحظُّ، اقبض عليه بيدٍ واثقة؛

اقبض عليه، أقولُ، من الأمام، لأنَّه من الخلفِ أصلع[2].

6. إذا رمتَ البقاء معافىً، فخذ بهذا النِّظام:

لا تأكل دون رغبةٍ، وتلذَّذْ بما تأكل،

امضغ جيِّداً، وليكن ما تتناولُه

حسنَ الطَّهوِ، وبسيطَ التَّكوين.

مَن يأخذ الدَّواء، يتلِف نفسَه.

لا تدع الغضب يتملَّكك، وتجنَّب الهواء المغلَق؛

ابق منتصبَ القامةِ، إذا المائدةُ رُفِعتْ؛

وأمسك نفسَك عن غفوةِ منتصفِ النَّهار.

---

(1) في الأصل بشكل بيت شعري من شطرين موحَّدَي القافية.

(2) في الأصل بشكل بيت شعري من شطرين موحَّدَي القافية.

أقسِط في النَّبيذ، خذ القليلَ وبتواترٍ،
لا خارجَ ميقاتِ الوجبات، ولا على معدةٍ خاوية؛
لا تؤخِّر ولا تؤجِّل [زيارةَ] المرحاض؛

إذا تريَّضتَ، لا تسرِف في الحركة.
لا تضطَّجع على بطنِك ورأسُك مخفوضةٌ
إلى أسفل، وتدثَّر جيِّداً في الليل؛

أرحْ رأسك، وخلِّ ذهنكَ منشرحاً.
تجنَّب الشهوات، واحرص على الحِمية[1].

7. إنَّ الرُّوح لتزداد حزناً كلَّما ازدادت تفكُّراً
في مَن يبدِّد الوقتَ دون نيل الفضائل[2].
8. لا يمتلك الفضيلةَ ولن يستطيع نيلَها
مَن يتخلَّى عن الشَّرف لنيلِ الرَّغائب[3].
9. لا يستحقُّ الحظَّ مَن لا يعرفُ الكدحَ؛
[و] ما مِن هِبةٍ تُنالُ كاملةً من غير شقاءٍ كبير؛
ينال الغبطةَ مَن يتقفَّى الفضيلة.

---

(1) هذا النَّص مكتوبٌ على شكل قصيدة مقفَّاة.
(2) في الأصل بشكل بيت شعري من شطرين موحَّدَي القافية.
(3) في الأصل بشكل بيت شعري من شطرين موحَّدَي القافية.

10. انتصاراتنا، وأمجادنا، إلى زوال.

11. الشَّهواتُ، والأحلامُ، والتَّبطُّل
نفتْ من العالَم كلَّ فضيلة؛[1]

12. الآن، ينبغي لك أن تنفضَ عنك الخمول،
قالَ المعلِّم، ذلك أنَّ التَّمدُّد وسط الرِّيش،
وتحت أغطية السَّرير، لا يأتي بالشُّهرة؛

هذه التي مَن يبدِّد حياتَه من دونِها،
يكون الأثر الذي يتركه من ورائه في الأرض
كمثلِ الدُّخانِ في الرِّيح، أو الزَّبدِ في الماء[2].

13. ثلاثيَّة لأجل الأجسام المنتظمة ومشتقَّاتها

يا لَها فاكهةً حلوةً، ساحرةً، وأثيرة

---

(1) هذه المقولة لفرانتشسكو بتراركا (بترارك)، وجدتْ منسوخةً على إحدى أوراق ليوناردو بخطِّ يده. انظر (PETRARCA, *Canz. VII, 1-2*).

(2) يرى ريختر أنَّ هذا النَّص ربَّما يكون خطَّه أحد تلامذة ليوناردو نقلاً عنه، ولعلَّه يستقي رأيه هذا من الجملة المعترضة "قال المعلِّم"؛ غير أنَّ الحقيقة مغايرة تماماً لهذا الرَّأي، فهذه الأبيات التي وجدت على إحدى أوراق ليوناردو هي من الكوميديا الإلهية لدانتي أليجييري، وتحديداً من الجحيم، انظر (DANTE, *Inf. XXIV, 46-48*).

تلك التي أرغمتْ الفلاسفةَ على البحث
عن مبررٍ يحثُّنا على تغذية الفكر[1].

14. إن كان بترارك أحبَّ الغارَ حبّاً جمّاً
فلإنَّه طيِّبٌ مع السُّجق و[لحم] السُّمانى؛
عاجزٌ أنا عن إعطاءِ قيمةٍ لتفاهاتهم[2].

15. أكثر المَكرُهات إيلاماً هي عندما تتقدَّم أفكارُك على عملِك.

16. **لتصنعَ عطراً.** خذ ماء الورد ورطِّب يديك به، ثمَّ خذ زهرة الخزامى وافركها بين يديك، تحصل على رائحةٍ زكيَّة.

17. يمكن للمرء أن يصنع من الخشب ألواحاً رقيقةَ الملمس، والتي ستبدو كجلدِ الماعزِ وحرير المواريه[3]، مع علاماتٍ متنوِّعةِ الأشكال ثابتةِ الدَّمغة.

18. عندما يتحرَّك حصانٌ في الماء فإنَّه يصنع رغوةً خفيفة إن هو انغمرَ كثيراً ورغوةً أكثف إذا انغمرَ أقل. ينشأ ذلك عن حقيقة أنَّ السِّيقان كلَّما قلَّ انغمارها بالماء قلَّت إعاقتها، وبالتَّالي فإنَّها تتحرَّك بسرعةٍ أكبر فيكون دفعها للماء من قِبل الحوافر الصَّلبة أكبر من دفعِها له مِن قِبلِ الرُّكبِ والأفخاذ.

---

(1) ليست الثلاثيَّة لليوناردو، وإنَّما لعالم الرياضيات الإيطالي لوكا باتشولي، نسخها عنه ليوناردو بصورةٍ شعريَّة.

(2) المقطع مكتوب بلغة شعريَّة تعتمد التلاعب بالكلمات، ويريد فيه ليوناردو إظهار ازدرائه لأولئك الذين كانوا، على سبيل المثال، يصنعون الأزياء الاحتفاليَّة لأتباع مدرسة بترارك الشِّعريَّة.

(3) بالانكليزية Moire نوع من القماش الحريري ذو لمعانات متموِّجة.

19. كبريتٌ وقطران؛ كبريتٌ ورصاص؛ كبريتٌ وصمغ المصطكى؛ كبريتٌ وبرنيق، ممزوجاً مع ذلك قشورُ بزرِ الصَّنوبر، نشارةُ خشبِ شجرة المُضاض، وهلامُ السَّمَك، وبزرُ الكرزِ وبرقوق السِّياج، وقواقع البزَّاق، أو قشرُ الفولِ منقوعاً ثمَّ مجفَّفاً في الشَّمس حتَّى يذوي وينكمش، وبذور الآس مع الغراء المذكور.

20. **نارٌ إغريقيَّة.** خذ فحمَ الصَّفصاف، وملحاً صخريّاً، وكبريتاً، وحمض الكبريت، وقطراناً، مع البخُور والكافور، ولفيفة من الصُّوف الإثيوبيِّ، وقُم بغليهم جميعاً مع بعضهم. هذه النَّار متأهِّبةٌ للاشتعال حيث أنَّها تتشبَّث بالخشب حتَّى تحت الماء. أضف إلى هذا التَّركيب برنيقاً سائلاً، وزيت السِّجِّيل الأسود، والتُّربَنتين وخلّاً لاذعاً، وامزج كلَّ ذلك مع بعضه وجفِّفه في الشَّمس، أو في فرنٍ بعد إخراج الخبز منه؛ ثمَّ افتُله حول حبلٍ من القنَّب أو نُسالةِ الكتَّان، حتَّى يتَّخذ شكلاً مستديراً، ورصِّعه بعد ذلك بالمسامير الحادَّة في كلِّ ناحيةٍ منه. عليك أن تترك في هذه الكرة فتحةً تقوم بدور صمَّام التَّفجير، غطِّها بالرَّاتنج والكبريت.

لا تزال هذه النَّار، التي تعلَّق في أعلى لوحٍ خشبيٍ طويل ينتهي بما طوله ذراعٌ واحدةٌ من الحديد لكيلا يشتعل بتلك النَّار، - لا تزال فعَّالةً في صدِّ السُّفن ودحرها، ما لَم تبادر هذه السُّفن إلى اكتساحها بهجومٍ ساحق.

وفوق ذلك، ارمِ أوانٍ من الزُّجاج ملأى بالقطران على سفن العدوِّ حين يعتزم الرِّجال فيها الهجوم؛ ثمَّ يكفي أن ترمي عليها كراتِ النَّار تلك حتَّى تكون قادراً على إحراقها جميعاً وبرمَّتها.

21. إذا أمكن صنعُ مزيلٍ للشَّعر من [مزيج] الجيرِ والرَّهج الأصفر[1]، فإنَّ تقطير هذا المزيج أو تحويله إلى غسولٍ سيجعله قادراً على إذابة الشَّعر والقرون والهُلبِ والأظفار.

---

(1) الرَّهج الأصفر هو ثالث كبريتيد الزرنيخ بصورته الطَّبيعيَّة.

22. كثيرٌ هم أولئك الذين لديهم شغفٌ بالرَّسم وذوقٌ له، ولكن ليس لديهم الموهبة؛ وهذا ما يمكن رؤيته بوضوحٍ عند الأولاد غير الدؤوبين الذين لا ينهون رسومَهم بالتَّظليل.

23. أيُّهما أفضل، الرَّسم عن الطَّبيعة أم عن الفنِّ القديم؟ وأيُّهما أصعب، رسم الخطوط الرَّئيسة لمعالم الشَّيء أم رسم الظِّلِّ والضَّوء؟

24. إنَّ تقليد الفنِّ القديم أفضل من الأعمال الحديثة[1].

25. **في الرَّسم.** تدرُّجاتِ اللون لجسمٍ مُضاء وقفٌ على تدرُّجاتِ اللون للجسم المضيء.

26. **في الرَّسم.** سطحُ أيِّ جسمٍ أكمد ينتحلُ التَّدرُّجات اللونيَّة المنعكسة من الأجسام المحيطة.

سطح الجسم الأكمد ينتحلُ التَّدرُّجات اللونيَّة للأجسام المحيطة بقوَّةٍ أكبر كلَّما كانت زوايا سقوط الأشعَّة التي تشكِّل صورَ تلك الأجسام على ذلك السَّطح أكثر تساوياً.

وسطح الجسم الأكمد ينتحلُ التَّدرُّجات اللونيَّة للأجسام المحيطة بقوَّةٍ أكبر كلَّما كان ذلك السَّطح أكثر بياضاً ولون الجسم أكثر إشراقاً أو أكثر عرضةً للضَّوء.

27. **في الرَّسم.** إذا أردتَ رسم إنسانٍ يتحرَّك، أو يرفع أو يقتلعُ شيئاً، أو يحمل وزناً مساوياً لوزنه، فبأيِّ وضعٍ سوف تجعل ساقيه أسفلَ جسدِه؟[2].

---

(1) يشير ريختر إلى أنَّ هذه الفقرة وسابقتها هما الفقرتان الوحيدتان اللتان يلمح فيهما ليوناردو إلى أهميَّة الفنِّ القديم في تدريب الفنَّان، مع أنه – أي ريختر- يشكُّ في أن تكون الفقرة الثانية جواباً عن الفقرة الأولى.

(2) يشير ريختر إلى أنَّ هذا التساؤل الذي طرحه ليوناردو بقي من دون إجابة.

28. **في الرَّسم.** إنَّ كثافةَ جسمٍ مـن الـدُّخان تبـدو بيـضاء أسـفل [خطِّ] الأفق، بينما تكون أعلى الأفق سوداء؛ فحتَّى وإن كان الـدُّخان في حدِّ ذاته من لونٍ موحَّد، فإنَّ هذه الوحدة في اللـون سـوف تتغـاير وفقاً لتنوُّع الخلفيَّة التي يرتفع الدُّخان أمامها.

29. **في الرَّسم.** إنَّ الخلفيَّة التي تحيط بالأشكال المحتواة في أيِّ موضوعٍ ترسمه يجب أن تكون أشد إعتاماً من السُّطوعات العالية لتلك الأشكال، وأشد سطوعاً من أجزائها المظلَّلة.

30. أيَّة إضاءةٍ هي المثلى للرَّسم عن الطَّبيعة: القويَّة أم الضَّعيفة، العميمة أم الجزئيَّـة، القويَّـة والعميمـة أم القويَّـة والجزئيَّـة، العميمـة والضَّعيفة أم الجزئيَّة والضَّعيفة؟[1]

31. الإضاءة العميمة، الرَّفيعة، ولكن المعتدلة القوَّة، من شـأنها أن تجعل تفاصيل الموضوعات أكثر تناغماً.

32. لا بدَّ لي من تذكيرك بأن تحرص على أن تعطيٍ كلَّ جزءٍ مـن الجسم، وأدقَّ تفصيلٍ مهما يكن طفيف الوضوح، الأهميَّة اللائقـة بـه من حيث الضَّوء والظِّل.

33. **كيف ينبغي، رسماً، تصوير الفروق بين الجنسين والأعمار.**

الرِّجال المتقدِّمون في السِّن، ينبغـي تـصويرهم بحركـاتٍ بطيئـةٍ وثقيلة، السَّاقان محنيَّتـان عنـد الرُّكَـب، إذا كـانوا وقوفـاً، والقَـدمان متوازيتان ومتباعدتان؛ ينحنون إلى الأسـفل بـرأسٍ تميـل إلى الأمـام، وذراعين لا تمتدَّان إلَّا الشَّيء القليل.

---

(1) أيضاً هذا التساؤل، يشير ريختر، بقي من دون إجابة على الورقة الأصليَّة.

النِّساء، ينبغي تصويرهنَّ في وضعٍ جسمانيٍّ بسيطٍ ومحتشم، السَّاقان متلاصقتان، الذِّراعان مطويَّتان بإحكام، الرَّأس تميل قليلاً إلى أحد الجانبين.

النُّسوة المتقدِّمات في السِّن، ينبغي تصويرهنَّ بإيماءات متلهِّفة، سريعة، وغاضبة، كمثل ما يكون الغضب الجهنَّميُّ؛ غير أنَّ الحركة يجب أن تبدو أكثر ضراوةً في الذِّراعين والرَّأس منها في السَّاقين.

[أمَّا] الأطفال الصِّغار، فبحركاتٍ ملتوية تتدفَّق حيويَّةً وهم جلوسٌ، فإذا انتصبوا على أقدامهم، صوِّروا في مواقف جسمانيَّةٍ خجولةٍ ومتردِّدة.

34. حركات البشر ينبغي تصويرها بحيث توحي إمَّا بوقارهم وإمَّا بانحطاط قدرهم.

35. **عن حجم المرسَم.** الغرفُ أو الدُّور الصَّغيرة تضبطُ الذِّهن، الكبيرةُ تضعفه.

36. لقد أعطتنا الطَّبيعة الخيِّرة أن نجدَ، أنَّى نظرنا في أصقاع الأرض، شيئاً نقلِّده.

37. الطَّباشير يذوب في النَّبيذ وفي الخلِّ وفي الماء القويِّ[1]، ويمكن أن يتَّحد ثانيةً مع الصَّمغ.

38. خذ مسحوقَ جوز العَفص والزَّاج[2]، ذرَّه على ورقة كما يُذَرُّ البرنيق، ثمَّ اكتب فوقه بقلمٍ مرطَّبٍ باللعاب، وستجده صار أسودَ كسوادِ الحبر.

---

(1) الماء القويُّ هو الاسم الآخر لحمض النتريك.

(2) الزَّاج هو حامض الكبريتيك.

39. انظر كيف يمتصُّ الماء القويُّ كلَّ ألوان وروائح الأزهـار. إذا أردت صنع اللون الأزرق ضـع زهـرَ الـسَّوسن فيـه، ولأجـل الأحمـر عليكَ بثمار عشبةِ ظلٍّ الليل.

40. إذا أردت الحصول على لـونٍ أزرق رائـق، ذوِّب الإسملـت المعمول مع الطَّرطير، ثمَّ قم بإزالة الملح.

41. النُّحاس الأصفر المزجَّج يعطي لوناً أحمر رائقاً.

42. تُرى أيُّ الألوان يشقُّ طريقه إلى العين أكثـر؟ يكـون الجـسم البعيد أكثر بروزاً حين يكـون أكثـر سـطوعاً، وكلَّمـا ازداد حلكـةً قـلَّ وضوحاً.

43. الهـواء حـول الأرض أزرق بـسبب الظُّلمـات الـتي فوقـه، فالأسود والأبيض معاً يعطيان الأزرق.

44. وراء الـشَّمس ووراءنـا ثمَّـة الظَّـلام، ولـذلك يظهـر الهـواء أزرق.

45. القمرُ باردٌ ونَديٌّ. الماء باردٌ ونـديٌّ. في المحـصِّلة يجـب أن تبدو بحارنا للقمر مثلما يبدو القمر لنا.

46. كلَّما ازداد المكان بعداً عن الجبال، كان أكثر سطوعاً.

47. كلَّما ازدادت الغيوم قرباً من الأفق، خفَّتْ [دكنةُ] ظلالها.

48. أتساءلُ إن كان ممكناً معرفـةُ الحركـةِ الحقيقيَّـةِ للغيـوم مـن خلال حركة ظلالِها؛ مثلما هو الحال بالنِّسبة إلى حركة الشَّمس.

49. كلُّ إنسانٍ، وهو في الثالثة من عمرِهِ، يكون قـد بلـغ نـصف الطُّول الذي سوف يبلغه في نهايةِ نموِّه.

50. إنَّ جميع فروع شجرةٍ ما، عند كلِّ مرحلةٍ من مراحل نموِّها، إذا ما جُمِعتْ معاً كانت مساويةً في الثَّخانة للجذع [الذي تحتها].

51. إنَّ جميع فروع مجرىً مائيٍّ ما، عند كلِّ مرحلةٍ من مراحل جريانه، إذا كانت متساوية السُّرعة فيما بينها فستكون مساويةً لسرعة التَّيَّار في المجرى الرَّئيس.

52. تنشأ الجبال بفعلِ جريان الأنهار.

تزولُ الجبال بفعلِ جريان الأنهار.

53. الأصداف البحريَّة لا تستطيع صعودَ الجبال.

54. **تونُس**. أكبر انحسارٍ للماء عن اليابسة في البحر المتوسِّط هو ذلك الذي يحدث فوق تونس، ومقداره حوالي ذراعين ونصف؛ في البندقيَّة ينحسر الماء بمقدار ذراعين. أمَّا في بقيَّة البحر المتوسِّط فيكون الانحسار طفيفاً أو لا يكون على الإطلاق.

55. اجعلوا عرض الشَّوارع مساوياً لمتوسِّط ارتفاعات البيوت.

56. خطُّ الاستواء، خطُّ الأفق، مدار الشَّمس، خطُّ الزَّوال: هي الخطوط التي تتساوى أجزاء كلٍّ منها في ما بينها في بعدِها عن مركزِ الكرة الأرضيَّة.

57. اللبلابُ [رمزٌ] لطولِ العمر[1].

---

(1) في الورقة الأصليَّة يوجد إلى جانب هذه العبارة رسمٌ لمعطف وقد زيِّنَ عند الخصر بنبات اللبلاب.

58. حينَ ينفتح فردوس **بلوتون**[1]، فسوف يكون هناك شياطينٌ داخل مراجل كأنَّها فُوَهٌ إلى جهنَّم. وهناك يكون الموت، والغضب، والرَّماد، وأطفالٌ عراةٌ في كل ناحيةٍ يكون؛ وثمَّة حرائق حيَّة مرسومةٌ بألوان مختلفة.

59. الحقيقة الشمس.

الباطل قناع.

البراءة،

الخبث.

النَّار تبدِّد الباطل،

الذي هو سفسطة، وهي كذلك

تستردُّ الحقيقة، داحرةً

الظَّلام.

النَّار رمزُ اندحارِ

جميعِ السَّفسطات، وهي

صورةُ الحقيقة وتجلِّيها؛

ذلك أنَّها الضَّوء والضَّوء

يطرد الظَّلام الذي يخفي

جوهرَ الأشياء.

---

(1) إله العالم السُّفلي في الأساطير الإغريقية؛ حملَ قبل ذلك اسم هاديس.

60. **الحقيقة.**

النَّار تدحرُ كلَّ السَّفسطات، والسَّفسطاتُ وهمٌ؛

ولا تُبقي إلا على الحقيقة، والحقيقة ذهب.

الحقيقة في خاتمةِ المطاف لا تقبلُ الحجاب.

المداجاةُ تذهب أدراج الرِّياح. المداجاةُ

محكومةٌ بالبُطلان

أمام القاضي الكبير.

الباطلُ يضع قناعاً.

لا شيء يخفى تحت الشَّمس.

النَّار رمزُ الحقيقةِ لأنَّها

تدحرُ كلَّ السَّفسطات والأكاذيب؛ والقناع

إنَّما هو قناع الكذبِ والباطل

الذي يخفي الحقيقة.

61. هذه، لكي توضعَ في

يد النُّكران.

الخشبُ يغذِّي النَّار التي

تتلفُه.

62. **في تصوير النُّكران.**

حين تشرق الشَّمس

الشَّمس التي تبدِّدُ الظَّلام

عامَّةً، فإنَّك تطفئ

[الديك] النُّورَ الذي يبدِّد الظَّلام

لأجلك أنت خاصَّةً

لأجلك، لأجل حاجتك وراحتك.

63. على هذا الجانب آدم، وعلى الآخر حوَّاء؛

أهِ أيُّها البؤس البشريُّ، لأجل كم من الأشياء

جعلت نفسَك عبداً للمال[1].

64. الاطِّرادُ لا يبدأ من مكان؛ الاطِّراد هو

الشَّيء الذي لا يكفُّ عن المثابرة[2].

65. ما هو بهيٌّ في الإنسان محكومٌ بالموت، لكن ليس في الفنِّ.

* * *

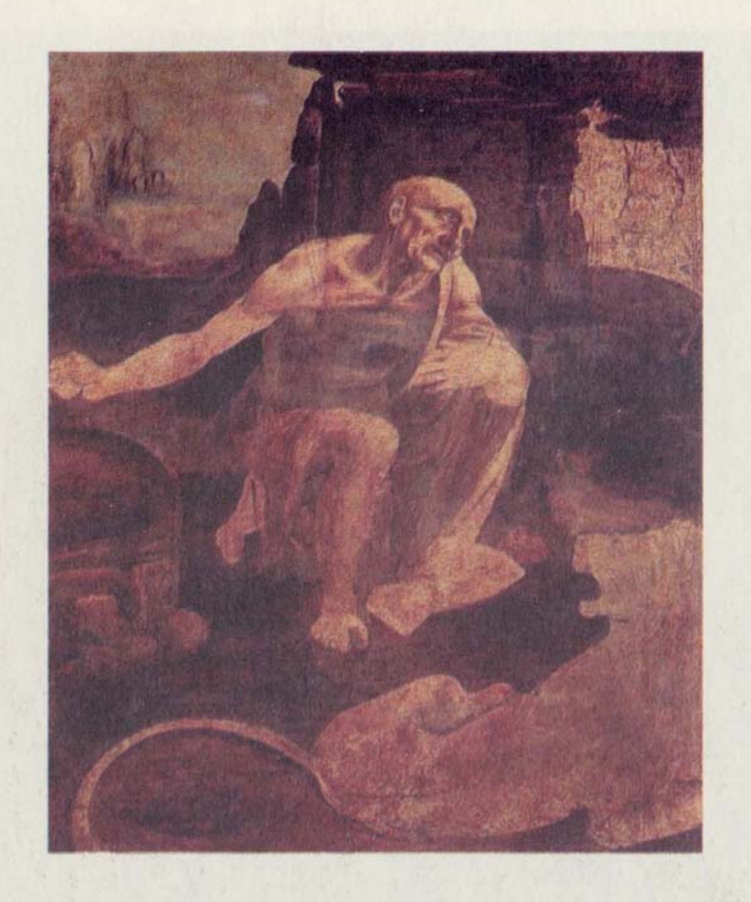
---

(1) يشير ريختر إلى أنَّ رسوم آدم وحوَّاء بين السُّحب، على الورقة الأصليَّة لهذا النَّص، تبدو رمزاً لتفوُّقهما على جميع الاحتياجات الدُّنيويَّة.

(2) على الورقة الأصليَّة يخترق هذا النَّصَّ من المنتصف رسمٌ بالطباشير الأحمر الآيل إلى الامِّحاء، وهو يبدو كما لو أنَّه مقبض سيفٍ ممسوكٌ بيدٍ.

ملحق ببعض أعمال ليوناردو دافنشي الفنية واختراعاته[1]

(1) الصور المنتقاة في هذا الملحق قد لا تتقاطع جميعها بالضرورة مع الكتابات الأدبية، وإنما تمَّ اختيارها بغية تسليط المزيد من الضوء على شخصية ليوناردو دافنشي الفنان والمهندس المخترع.



لوحة "القديس جيروم في البرِّيَّة"، لوحة لم يكمل ليوناردو إنجازها، بدأ العمل عليها في عام 1480، ولم ينهها بسبب مغادرته إلى ميلانو في عام 1482.



"ليدا والبجعة"، لوحة مفقودة لليوناردو دافنشي تؤرَّخ على الأرجح بين عامي 1505– 1510، ولم يبق من هذا العمل سوى بضعة مخطَّطات أوَّليَّة، وهذه واحدةٌ منها.



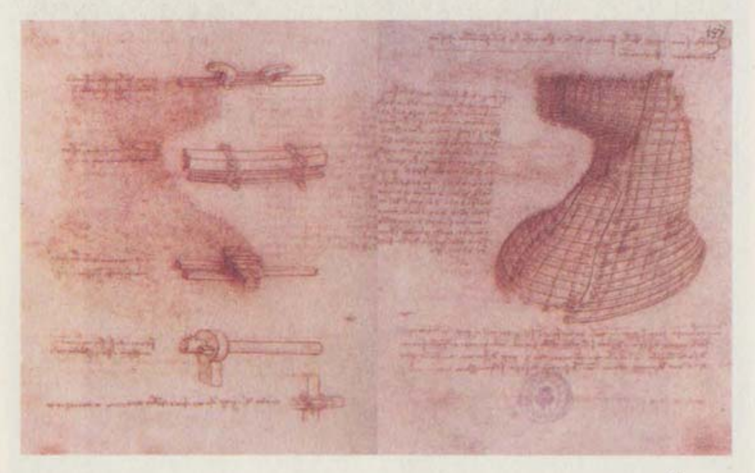
مخطَّط أوّلي للوحة "باخوس" التي تمَّ إنجازها بين عامي 1510- 1515. اللوحة الأصليَّة موجودة في متحف اللوفر بباريس، أما المخطَّط فمحفوظ في متحف ساكرومونتي في فاريزِه.



"الملاك المتجسِّد"، رسم إيروتيكي لدافنشي يعود إلى حوالي عام 1515.



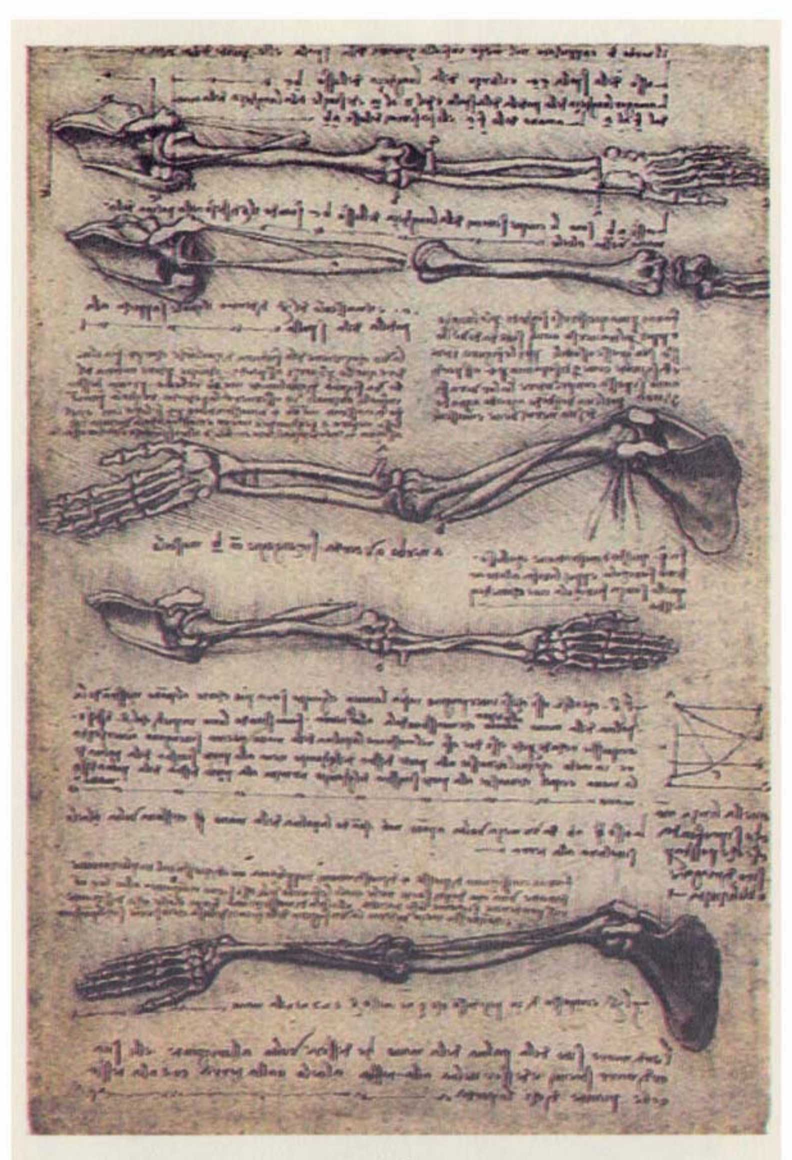
المخطَّط الأوَّلي لتمثال "الفارس ممتطياً جواده" الذي لم يتم إنجازه، وللأسف لم يصل إلينا أيُّ عملٍ نحتيٍّ لليوناردو دافنشي.



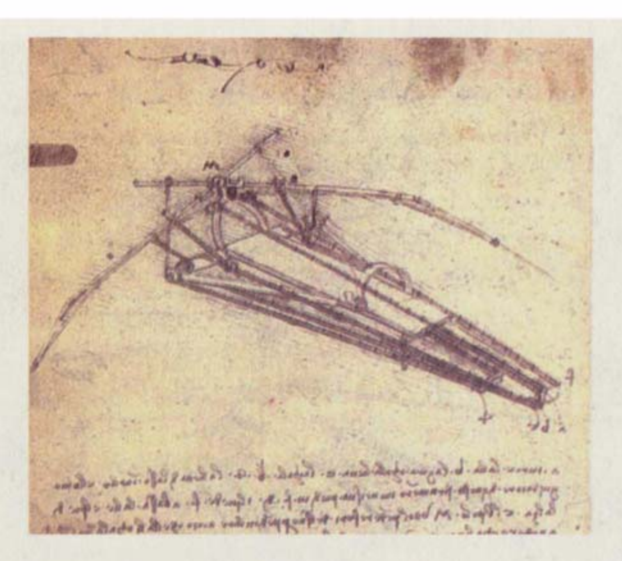
المخطَّط الأوَّلي لقالب صهر رأس الحصان لأجل تمثال "الفارس ممتطياً جوادَه"، ويعود تاريخ هذا الرسم إلى حوالي عام 1493، وهو محفوظ في المكتبة الوطنية بمدريد.



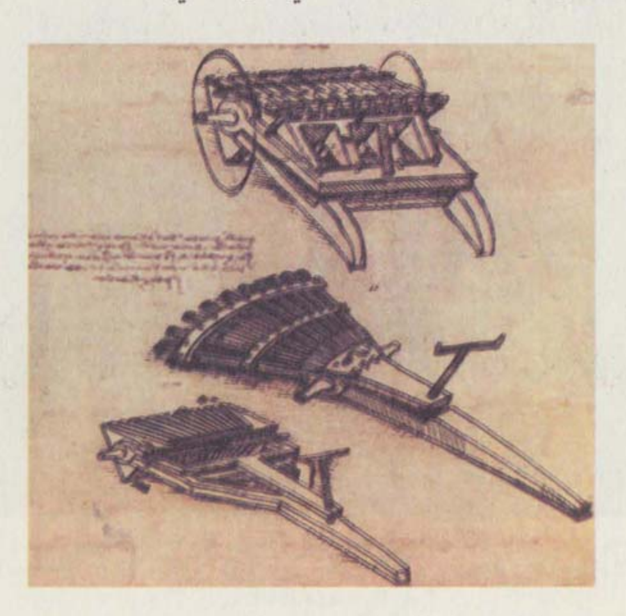
دراسة حركة الماء عند مروره بعوائق وسقوطه، كما صوَّرها دافنشي حوالي عام 1508.



دراسة حركة الذراع، كما صوَّرها دافنشي حوالي عام 1510.



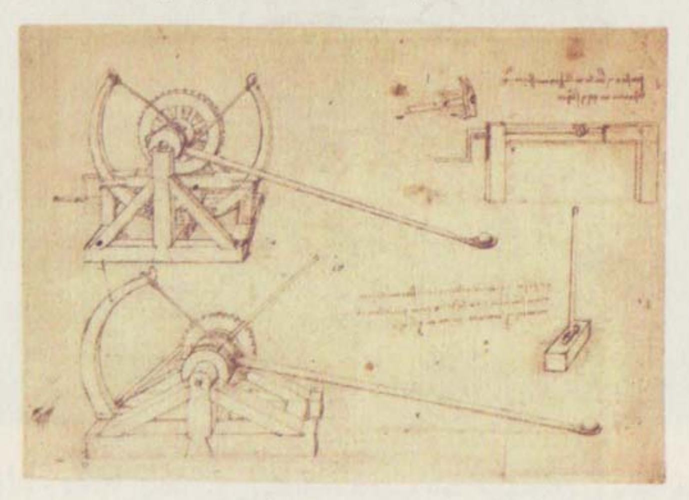
"الآلة الطائرة"، كما صوَّرها دافنشي بين عامي 1488–1489 تقريباً.



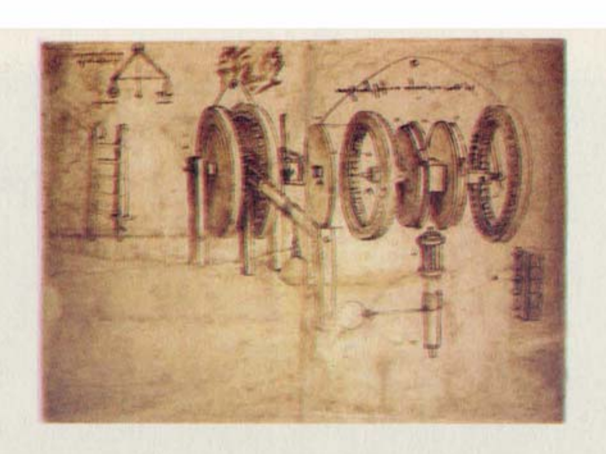
ثلاثة تصاميم مختلفة لمدفع حربي، كما صوَّرها دافنشي حوالي عام 1482.



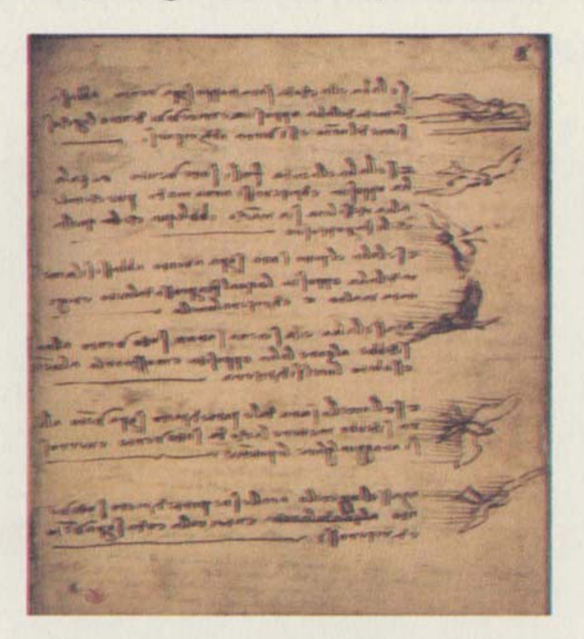
عربة قتالية، كما صوَّرها دافنشي حوالي عام 1485. يبين الرسم الذي في الأسفل على اليسار الدواليب ونظام العجلات المتشابكة الأسنان، فيما يبين الذي على اليمين الشكل النهائي للعربة في ميدان **القتال.** الرسم محفوظ في المتحف البريطاني في لندن.



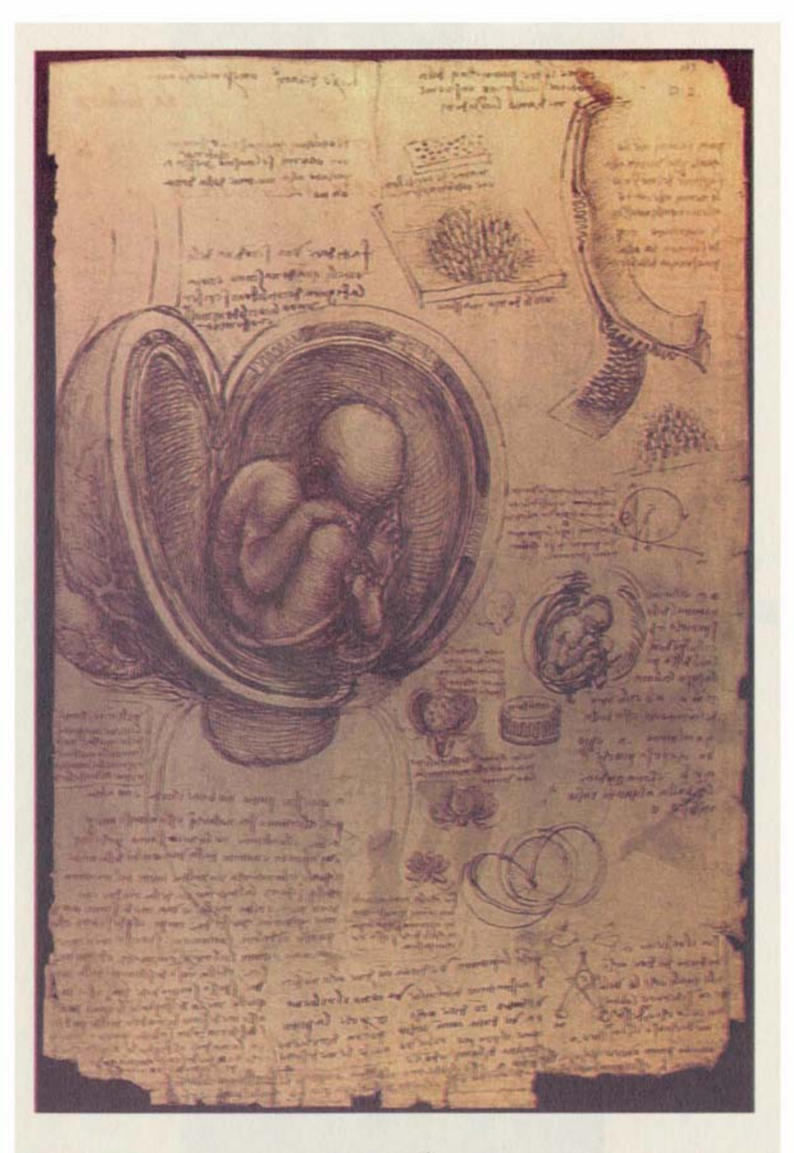
منجنيق، كما صوَّره دافنشي في رسمٍ يعود تقريباً إلى ما بين عامَي 1485– 1490.



آلة بنظام الحركة التبادلية، كما صوَّرها دافنشي بين عامي 1478- 1480. إلى اليسار الآلة بشكلها النهائي، وإلى اليمين مقطع عرضي يبين أجزاء الآلة.



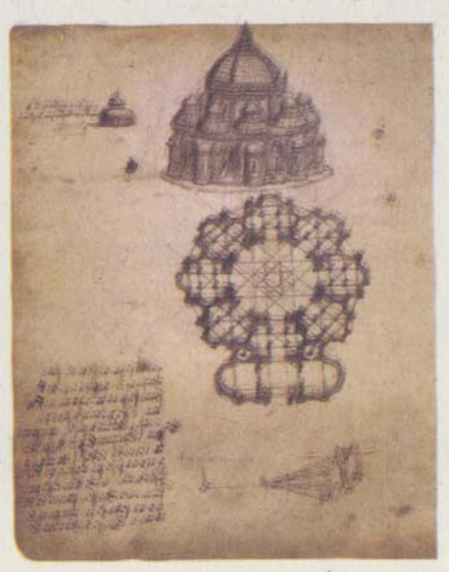
دراسة طيران الطيور بحسب تيارات الهواء، كما صوَّرها دافنشي حوالي عام 1505.



الرحم البشري والجنين، كما صوَّرهما دافنشي بين عامي 1510– 1512.
الرسم محفوظ في المكتبة الملكيَّة في Windsor.



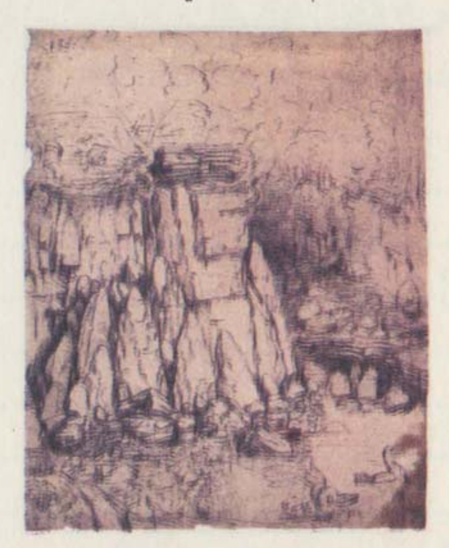
رسم لنبات، يعود إلى حوالي عام 1506، محفوظ في المكتبة الملكيّة في Windsor.



مخطَّط لكنيسة، كما صمَّمه دافنشي في رسمٍ يعود تقريباً إلى ما بين عامي 1487- 1490.



خريطة لبلدة إيمولا الواقعة في مقاطعة بولونيا في إيطاليا، كما صوَّرها دافنشي عام 1502، والرسم محفوظ في المكتبة الملكيَّة في Windsor.



مجرى مائي يمرُّ عبر هُوَّة مع طيورٍ من البط في مقدمة الصُّورة؛ يعود الرسم إلى حوالي عام 1483، وهو محفوظ في المكتبة الملكيَّة في Windsor.



"نيبتون" إله البحر عند الرومان، كما صوَّره دافنشي حوالي عام 1504، والرسم محفوظ في المكتبة الملكيَّة في Windsor.

* * *

الفهرس

أعمال أمارجي

شعر:

"ن"،دار بدايات، بالتعاون مع منشورات مواقف، بيروت، 2008.

بِيرودجا: "النَّص- الجسد"، دار بدايات، بالتعاون مع منشورات مواقف، بيروت، 2009.

مِلاحاتٌ إيروسيَّة، دار بدايات، بالتعاون مع منشورات مواقف، بيروت، 2011.

وردةُ الحيوان، حواريَّة حب شعريَّة مع الشَّاعر الإيطاليَّة ماريَّا غراتسيا كالاندروني، تصدر قريباً بالعربيَّة والإيطاليَّة.

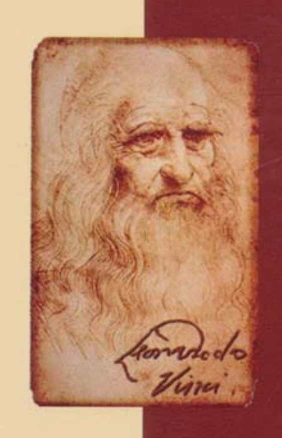
ترجمات:

أفكار، جاكومو ليوباردي، هيئة أبو ظبي للتُّراث والثَّقافة، مشروع كلمة للترجمة، أبو ظبي، 2009.

الأعمال الشّعريَّة الكاملة لدينو كامبانا، أناشيد أورفيَّة وقصائد أخرى، دار بدايات، دمشق، تصدر قريباً.

الأرض الميِّتة، غابرييل دانُّونتسو، دار طُوى، لندن، 2012.

* * *



Scritti letterari

- آهِ أيُها الإغريق، لا أحسبُ أنَّ أعمالي وجِدتْ لتُروى، فلقد رأيتموها رأيَ العين. أوديسيوس قال إنَّ فعاله وقعتْ من غير شهود، وأنَّ الليل الدَّامس وحده يعرفها.

- آهِ أيُها الوقت، يا مُتلفَ الأشياء جميعاً؛ آهِ أيَّها الدَّهر الحسود؛ أنتَ الذي تُفني الأشياء جميعاً وتلتهم الأشياء جميعاً بأسنان العُمر الصَّارمة، شيئاً فشيئاً بوتيرةِ الموت البطيء. هيلين، إذ رأتْ وهي تتمرأى التَّجاعيد الذَّاوية التي صنعها العمرُ على وجهها، بكتْ وتساءلتْ في قرارة نفسِها لماذا قدِّرَ عليها أن تُجرَف بعيداً مرَّتين.

ISBN 978-9933-429-24-9

